"يجب على الإنسان أن يفقد كل شيء"

ف. و. م. و.

ألموت تينا شميدت

ترجمة: د. سمر منير

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

ألموت تينا شميدت

ف. و. م. و.

رواية

ترجمها عن الألمانية: د. سمر منير

العربي للنشر والتوزيع

ف. و. م. و.

ف. و. م. و.
تأليف: ألموت تينا شميدت

ترجمة: د. سمر منير
تحرير: إيزيس عاشور
مُراجعة لُغويَّة: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: أكتوبر 2019
رقم الإيداع: 2019/11759
الترقيم الدولي: 9789773195052

تصميم الغلاف: إسلام علام

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Copyright © Literaturverlag Droschl Graz – Wien, 2016, Austria
Arabic edition through Nabu International Literary Agency; www.nabu.agency
First published as *Zeitverschiebung* by *Almut Tina Schmidt*

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا

@alarabipd

Federal Chancellery

Supported by the Austrian Federal Chancellery

austrian cultural forum cai

بطاقة فهرسة

شميدت، ألموت تينا، 1971 -

ف. و. م. و./ تأليف ألموت تينا شميدت؛ ترجمة سمر منير.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773195052

1- القصص الألمانية

أ- منير، سمر (مترجم)

ب- العنوان 833

مقدمة المؤلفة للقارئ العربي

صدرت رواية "ف. و. م. و." قبل ثلاثة أعوام. وقبل أربعة أعوام، كنت قد انتهيت من كتابتها في نسختها الأولية. أي أن هذا لم يحدث منذ وقت طويل جدًا. ومع ذلك فقد تغيرت بعض الأمور منذ ذلك الحين. ظلت أغلب النقاشات السياسية، التي ورد ذكرها في النص، تتمتع بالأهمية. غير أن كثيرًا من الأمور قد تطورت بصورة تختلف عما كان متخيلًا. وتغيرت نظرة الناس لبعض الأشياء. سياقات تحوَّلت ووجهات نظر تبدلت؛ وهذا بالضبط هو موضوع الرواية: أي خبرات الأفراد بين التوقع والتذكر وبين المعايشات الشخصية والمعلومات المنقولة عبر وسائل الإعلام.

وموضوعها أيضًا هو الأدب. صحيح أن الراوية لا تؤلف نصوصًا أدبية، لكنها تنشغل انشغالًا شديدًا بـ"جاك كيرواك"، حتى وإن كانت حياتها لا تشترك في جوانب كثيرة مع حياة ذلك الكاتب الأمريكي. فبالإضافة إلى "ألن جينسبرج" و"ويليام بوروز"، يعتبر "جاك كيرواك" (1922 – 1968) واحدًا من أشهر أدباء جيل ثقافة "البيت" Beat وهي ثقافة فرعية، تطورت سريعًا لتصبح أحد أكثر الاتجاهات الأدبية تأثيرًا في الولايات المتحدة الأمريكية. احتفى جيل "البيت" بالعفوية والحرية وكسر الأعراف في الفن وكذلك في الحياة وأيضًا بالمبالغة والخبرة الذاتية وصولًا إلى تدمير الذات. وفي عملية الإبداع أيضًا، كانت هناك فترة نشوة الكتابة والتي تعد فترة مذهلة، تلك التي استمرت ثلاثة أسابيع وكتب فيها "جاك كيرواك" روايته الشهيرة "على الطريق" On the Road. وقد علَّق الصحفي "ترومان كابوتي" على هذه السرعة قائلًا: «هذا يعد نسخًا وليس تأليفًا». إلا أن فترة نشأة كتاب

"على الطريق" امتدت في مجملها لمدة زمنية تزيد عن عشر سنوات. فحتى "الكتابة السريعة" Kickwriting العفوية التي عُرف بها تستلزم استعدادًا دقيقًا ومراجعة شديدة.

لقد افتتنت الراوية في المقام الأول بتناقضات "كيرواك". فحياتها الخاصة كادت أن تخلو من أي إبهار. ومقارنة حياتها مع الحياة القاسية لأفراد جيل "البيت" جعلها تسعى أيضًا للسخرية من إحساس جيل ما في غرب أوروبا بالحياة، وهو الجيل الذي نشأ في ظل حماية لم ينعم بها جيل آخر تقريبًا ولم يعرف الأخطار الوجودية والفقر والتوترات السياسية والنزاعات العنيفة سوى من وسائل الإعلام. لقد حصل هذا الجيل على معلومات عن الماضي على أكمل وجه وامتلأ بخطط للمستقبل ولكنه حارب أيضًا في سبيل تأكيد موقفه في التاريخ وإيجاد مكانته في العالم. وهو الأمر الذي ما زال يمثل للسيدات أنفسهن تحديًا خاصًا في ظل ظروف مريحة بصفة عامة.

وفي أثناء ذلك، اقتصرت مواجهة العالم على أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى حد كبير وذلك على الرغم من كل مظاهر العولمة. ومن هنا نشأ تفاعل وثيق بينهما. في حين عرف الناس أجزاء أخرى من العالم – من الناحية السياحية المجردة – بوصفها وجهات لقضاء عطلات يحلمون بها أو أيضًا بوصفها بؤرًا محتملة لنشوب صراعات. فأصبحوا يطلعون على التطورات السياسية من مسافة بعيدة وأصبح أي حوار لا ينشأ إلا بصورة سطحية. ولهذا يعتريني الشعور بالسعادة أكثر فأكثر أن تُقدِّم الترجمة العربية لروايتي إسهامًا بعض الشيء في عملية التفاعل بين الثقافات.

ألموت تينا شميدت
فيينا 2019

1

"علينا أن نُنجز مهمة ما، لا بد أن نُنجزها بسُرعة. أي تأجيل للمهمة قد يكون له عواقبُ وخيمة. تُنادينا أهم أزمة نمُرُّ بها في حياتنا - مثلما يُنادينا البوق - لكي نتدخَّل سريعًا لنقوم بشيءٍ ما. نحن مُستعِدُّون. يشتعل فينا الحماس، لنبدأ العمل. نستمتع بالتفكير في الهدف المُتلألئ، الذي نسعى للوصول إليه. يجب - بل ينبغي - أن نشرع في هذه المَهمَّة اليوم، ومع ذلك فإننا نُؤجِّلها إلى الغد. لماذا؟ ليس لدينا إجابة، بل مُجرَّد شُعور بالخروج عن المألوف. [...] يبدأ اليوم التالي، ويبدأ معه سعي مُفزع وأكثر إلحاحًا بأن نُؤَدِّي واجبنا. غير أنه مع تصاعُد شعورنا هذا بالفزع، تتولَّد لدينا أيضًا رغبة مجهولة [...] شديدة في المُماطلة. تزداد قُوَّة هذه الرَّغبة، بينما

يمُرُّ الوقت سريعًا. تقترب الساعة الأخيرة، التي قد يكون من الممكن فيها إنقاذ أي شيء. نزداد خوفًا من قُوَّة ما بداخلنا من صراعٍ. [...]، لكننا [...] نُكافح بلا جدوى. يدُقُّ الجرس الذي يُعلن موت حياتنا الطيبة. وفي الوقت ذاته، يضع حدًّا لهذا الشَّبَح. هذه الروح الشريرة، التي أصابتنا لوقتٍ طويلٍ جدًّا بالشلل. إنها ترتفع بعيدًا. تختفي؛ فنصبح أحرارًا. تعود قُوَّة عزيمتنا إلى سابق عهدها. الآن سوف نعمل. لكن، آه، لقد فات الأوان!".

"إدجار آلان بو" - "مارد الخروج عن المألوف"

كُنتُ على كل حال سأتأخَّر جدًّا، ولذلك كان بإمكاني أن أُبطئ. أمام محطة البنزين، كانت هناك خرائط للطريق رخيصة الثمن، وموضوعة في صندوق بضائع. اشتريتُ آيس كريم. يوصي "جاك كيرواك" في روايته "على الطريق" On the Road بتناول كعكة التفاح والآيس كريم قائلًا:

"هذا كل ما تناولته حقًّا طوال الطريق الذي قطعته في البلد. وكُنتُ أعرف أنه كان طعامًا مُغَذِّيًا، وكذلك لذيذًا بالطبع".

كانت الخرائط قديمة وبالية؛ أما "الجي بي إس" في السيارة (GPS) فكان حديثًا للغاية. ومع ذلك فقد أضعت بعض دقائق من عصر ذلك اليوم الدافئ المُشرِق في النظر إلى الخرائط: "**ماينتال السفلية**"، و"**فريزيلاند الشمالية**"، و"**زيجرلاند**"، و"**زاورلاند**"، و"**شرق وستفاليا**".

في الليلة السابقة، كُنتُ قد أحرزتُ أخيرًا تقدُّمًا في عملي؛ فقد انكفأتُ على مكتبي لشهورٍ طويلة، ولم أكن أنام سوى قليل. نادرًا ما كُنتُ أرى الشمس أو أي أشخاص آخرين. ومع ذلك، كُنتُ أنجز القليل بالكاد، حتى خلَّصني من هذه الحالة خطاب ورد إليَّ. جاء فيه أن لجنة الامتحانات قبلت الشهادة المرضية التي تُفيد بإصابتي بآلام في الظهر!

وقد مدَّت مهلة تسليمي لرسالة الماجستير أربعة أسابيع. أربعة أسابيع أظفر بها. أربعة أسابيع أخرى من ضغط الوقت واضطرابات النوم. ومن القهوة، وشوربة البسلة، ومن العرق المُتَصَبِّب بغزارة. ومن الوحدة والتَّقلُّصات العصبية اللا إرادية. أربعة أسابيع أخرى من آلام الظهر. تنفَّستُ الصَّعداء.

صحيح، إنني كُنتُ قد خطَّطتُ - منذ وقتٍ طويل - للبدء في تدريبٍ عملي في الأسابيع الأربعة نفسها، ولكن على كل حال، لم يكن الأرشيف يُثير

اهتمامي كثيرًا (وهو ما سوف أندم عليه بعدها بسنوات). لقد كسبت وقتًا، ولم أخسر شيئًا.

حاولتُ أن أُرجئ التدريب العملي في آخر لحظة؛ فالعمل في الأرشيف لا يُسبِّب كثيرًا من السعادة. غير أنني سأُفكِّر طويلًا في موعد بديل؛ حيث ينبغي أن أعاود تسجيل اسمي مرَّةً أخرى. اتَّصلت بـ"آنَّا" و"ميريت" ووالديَّ (اللذين لن يعترفا إلا بعد ذلك بوقتٍ طويل بأن هذه المُكالمة التليفونية لم تُهدِّئهما بأي حالٍ من الأحوال، بل إنها أثارت همومًا أكبر لديهما. تلك الهموم، التي سأجدها لاحقًا مُثيرةً للسُّخرية أكثر من همومي).

مارستُ كل تمرين من تمريناتي البدنية الخاصة بالعمود الفقري، وسمعت في نشرة الأخبار كيف تأهَّبت الأحزاب لخوض صراع انتخابات البرلمان الاتحادي. ألقيتُ نظرة في كومٍ من الرسائل البريدية المتروكة في مكانها. ومددتُ مهلة إرجاع جميع الكتب التي استعرتها من المكتبة.

ذهبتُ إلى التَّسوُّق، وطهوتُ خضرواتٍ طازجة، وأرسلت إيميل إلى "ميلاني" أُخبرها بأنني أستطيع الآن حضور حفل زفافها (وهي الرسالة التي لن تقرأها في حينها؛ لأنها بدأت بالفعل في إتمام إجراءات الزواج، وبالتالي في مراسم "تكسير الصُّحُون" الألمانية).

قضيتُ المساء في إنهاء استعدادات السفر، وحزمتُ أهم أمتعتي سريعًا. أقرضني "فينسنت" سيارته و"الجي بي إس". فكَّرت، هل كان ينبغي أن آخذ معي "اللاب توب". كُنتُ أدرك أنني لن أجد وقتًا كافيًا للعمل في أثناء الرحلة. وعلى الرغم من ذلك، لم أستطع أن أترك بسهولة "اللاب توب" الخاص بي.

اعتقدتُ أنني ربما أجد فُرصةً لأن أُدَوِّن هذه الملاحظة، أو تلك، في الوقت الضائع بين إعلان العروسين مُوافقتهما على الزواج، وأداءهما رقصة التانجو. في النهاية، كل ما أُصبتُ به من تعثُّرٍ في الكتابة حتى اليوم لم يكن سوى وهم. أصابني هذا الوهم حقًّا بإحباط يوميٍّ؛ لكنه مع ذلك كان يبعثني على الهدوء. لا يمكن التخلص ببساطة من الاعتياد على مثل تلك الأمور.

فتحتُ "اللاب توب" لألقي نظرة أخرى على النص الذي كتبته. عادت الكلمات تحدق فيَّ على نحوٍ غير مشجع. لم يكن هناك سبيل للنفاذ إلى النص، بما فيه من جملٍ جانبية متكدسة بتركيبات اسمية ضخمة، وتركيبات إضافة، تضاف فيها ثلاثة أسماء لبعضها البعض. تعرَّفتُ من جديد إلى هذه الكلمات الضخمة جميعًا، التي بدت كالوحوش. وتذكَّرت كيف بحثت عن كل وحشٍ لغوي ضخم منفردًا وانتقيته بعناية.

غير أن هذه الوحوش لم تُبيِّن لي سوى أن ما بذلته من جهدٍ – من أجل أن أراعي بدقة كل جوانب البحث الثانوية بما فيها الجوانب الأقل أهمية – كان متكلفًا، وبلا جدوى أيضًا. (كُنتُ أعرف أن هذه الجوانب لن تثير اهتمامي أنا نفسي قريبًا. سيمضي هذا الوقت. ليس عليَّ سوى ألا أتركه ينقضي دون أن أستغله بسبب شعوري بحالةٍ من الصدمة. وعندئذٍ سوف ينتهي هذا البحث أيضًا).

أجريتُ تغييراتٍ طفيفة في محاولة لإنقاذ ما قد يمكن إنقاذه، نظرًا لتأجيل موعد تسليم البحث. جزَّأتُ في هذا الموضع مجموعة من الكلمات المُركَّبة والطويلة لتصبح نصف جملة، وشطبت في ذاك الموضع صفة كُنتُ قد كتبتها. غير أن النص الذي كتبته ظل بمثابة كتلة من جملٍ مُكتظَّة

رافضةً هذه التغييرات. حتى بدأت أختزل الجمل أكثر فأكثر وأشطب فقرةً تلو الأخرى، في تبرُّمٍ وإنهاك.

وقبل أن أوشك على إلقاء البحث كاملًا في سلَّة المهملات (كما لو أن الوقت قد حان لكتابة كل شيء من جديد)، توقَّفت وأعدت من جديد كتابة الفقرات، التي مسحتها مؤخرًا، وعدت إلى ترميم النص بصورةٍ تفصيلية.

كان غياب إحدى الفصلات يلفت انتباهي إلى أصغر تفصيلة في البحث. فراجعت علامات الترقيم وصيغ الاحتمال وتشكَّكت في استخدامي حروف الجر. وابتعدت قدر استطاعتي عن إلقاء نظرة مؤلمة على هذا العمل الصعب ككل. واصطدمت بهوامش سُفلية غير مكتملة؛ فأكملت ما ينقصها من أرقام الصفحات وتواريخ صدور المراجع، وأضفت إلى البحث استشهادات. كما نقلت بعض الكلمات الأشبه بالوحوش اللغوية، ووزَّعتها بين الاستشهادات. وعلى هذا النحو، أصبحت تسبب لي إزعاجًا أقل، إلا أنها تكاثرت. كانت تلك الكلمات تصرخ فيَّ بشكل فظٍّ، لأضيف إليها نعوتًا تُعدِّل منها وأنا أنتقل من جملةٍ إلى أخرى نقلاتٍ مُميِّزة. وبهذا نشأت وحوش جديدة تحت أصابعي. وكوَّنت بالفعل جملًا. فتحوَّلت تعليقاتٌ قصيرة إلى فقرات، ثم إلى نصف فصل. وفي كل مرَّة – عندما كُنتُ لا أعرف كيف أواصل العمل في البحث – كُنتُ أنقذ نفسي باللجوء إلى تصحيحها. فكُنتُ أراجع علامات الترقيم في الجمل، حتى إنه لم يَعُد بمقدوري أن أواصل العمل على الإطلاق.

تهتزُّ جفوني (فقد كان ينبغي عليَّ أن أنام منذ وقتٍ طويل). تؤلمني مؤخرة عنقي بشكلٍ خطير. تعلن أصابع يدي الإضراب. يحدث شيء آخر فجأةً. تقول لي الجمل التي كتبتها شيئًا ما. لا أفكر ثانية في الفصلات

وصيغ الاحتمال، ولا حتى في الحد من كمية الصفات وطول الكلمات. انتابني شعورٌ بالدهشة، كيف تشكَّلت كلماتي البلهاء لتصبح أفكارًا. أفكار جلبت أفكارًا جديدة، وجلبت بذلك أيضًا عبارات.

أخذت أكتب وأكتب بيقظةٍ وانتباهٍ فائقين، حتى دون أن أشرب قهوة. نما النص تحت أصابعي، وأصبحت الجمل ذات معنى، تنامى معناها أكثر فأكثر. صارت تشق فجواتٍ كبيرة في أغوار جميع الجمل الواردة لتوضحها. بينما تراجعت الصيغ البديلة الخادعة. وبرزت اتجاهاتي في كتابة الحجج، وبدت كأنها تواصل الكتابة من تلقاء نفسها. امتثل كل شيء لي، بينما كُنتُ أكتب.

لم أُبالِ بآلام ظهري. لم أُبالِ بالإعياء الذي أصابني. لم أُبالِ بزفاف "ميلاني". بعثني شعوري بالطمأنينة على أن أتشكَّك بدرجةٍ كبيرة، هل كان من الأفضل أن أخلد إلى النوم؟ لم يحدث هذا إلا عندما بدأت أشعر بالأسف من أنني تسرَّعت في تأجيل التدريب العملي؛ لأنني بالتأكيد سوف أنتهي من العمل في رسالة الماجستير في الفترة الزمنية المحددة في الأصل... (سيثبت لي فيما بعد بالطبع أن شعوري بأن وحوش الكلمات الجديدة أكثر رشاقة وأناقة من القديمة كان شعورًا مُضلِّلًا).

في ضُحى اليوم التالي، أضعت كثيرًا من الوقت في النوم. وفي النهاية، أصبح لديَّ وقت. وددتُ أن أستقل السيارة في ارتياح. أسفل الدُّش، دارت أفكاري حول الأمثلة التي ضربتها رواية "على الطريق" لقلة المهارة في قيادة السيارات. لم أنظر ثانية في النص الذي كتبته؛ فلم أكن أريد أن أفسد على نفسي الاستمتاع بالرحلة.

دلَّني "الجي بي إس" على الطريق وعلى الوقت المحتمل لوصولي (مرَّةً أخرى هناك ميعاد لن أستطيع الالتزام به). لقد استهنت بالمرور في ظهيرة يوم الجمعة. وكانت تنقصني الخبرة واليقظة لتفادي التكدس المروري. في طفولتي، كُنتُ كثيرًا ما أستمع للنشرة المرورية. لكنني لم أعد أسمعها إلا نادرًا منذ أن أصبحت أستطيع قيادة السيارة بنفسي.

كانت السيارات تدفع بعضها إلى الأمام في حالة من الشلل المروري. تشبَّثت بعجلة القيادة في السيارة. وأصيب ظهري بالألم. كُنتُ قد أخذت للمرَّة الأولى منذ أسابيع قسطًا كافيًا من النوم وبذلك أصبحت بصورةٍ استثنائية أشعر بالتعب بشكلٍ مقبول.

كُنتُ أقلل من سرعتي عند القيادة تارة بصورةٍ أكبر، وتارة بصورةٍ أقل، وذلك تبعًا للمرور من حولي... **"هكذا يكون الشعور، عندما يكون لدى الإنسان وقت، عندما يكون لدى الإنسان وقت، عندما يكون لدى الإنسان وقت"**. أخذت أغنيها بيني وبين نفسي لكي أبقى يقظة... (وكُنتُ أعرف أنني بعد ذلك بأسابيع قليلة، لن أعتقد ثانيةً أنني كان لديَّ وقت في هذا اليوم. وسأعتقد أنه كان من المفترض أن أنتهز كل دقيقة وأبقى في المنزل وأواصل العمل في النص).

"**زاورلاند**".. "**زيجرلاند**". بدأ الآيس كريم الذي أتناوله يذوب على هيئة قطرات. أخذت أتناوله بشكلٍ أسرع، وأخذت خريطتين. لم أكن أحتاج إليهما (وهما ما سيكونان هدية زفاف سيئة). وذهبت مرَّة أخرى إلى محطة البنزين الصغيرة. كان هناك طابور انتظار طويل أمام "الكاشير"؛ فهناك رجل لديه مشكلة ما في بطاقته الائتمانية.

عندما حكت لي "ميلاني" للمرَّة الأولى عن نيتها في الزواج، بدا لي موعد زفافها مناسبًا. ونويت أن أسلِّم رسالة الماجستير قبل موعد التسليم بأسبوعين، وأن أذهب بعد ذلك إلى زفاف "ميلاني" ببالٍ مرتاح.

وعندما وصلت إليَّ بطاقة الدعوة من "ميلاني" و"أوليفر"، كُنتُ ما زلت أخطط للانتهاء على الأقل من المسودة الأولى من البحث، والذهاب إلى الحفلة، وتنقيح النص في الأيام التالية، وتسليمه في الموعد المحدد للتسليم بالضبط؛ لكنني اعتذرت لــ"ميلاني" عن عدم الحضور، عندما لم يعد من الممكن على الإطلاق أن أنكر معرفتي بأن الوقت المتاح حتى موعد زفافها لا يكفي حتى لإنجاز مسودة الرسالة. وفي نهاية المطاف، طلبت من الطبيب المعالج لي شهادةً مرضية.

لم يكن يهمني كثيرًا أمر زفاف "ميلاني". غير أنها سبق وأن أكدَّت عديدة مرَّات كم ستشعر بسعادةٍ بالغة لو أتيتُ. كما أنني لم أتمكَّن من حضور حفل تخرُّجها (حينها تداخل تعثري في الكتابة - الذي مررت به للمرَّة قبل الأخيرة - مع إنهاء علاقتي بــ"فابيان". أو أن الأمرين قد تسبَّبا في حدوث بعضهما البعض).

والآن أصبحتُ أقف في محطة البنزين هذه. وطابور الانتظار الطويل لا يتحرَّك. أخذت إحدى السيدات تبحث عن مسَّاحات لزجاج السيارة، والتي

كانت لتشتريها من أي متجر لبيع الإكسسوارات بسعرٍ أرخص، وبشكلٍ أسرع. كان لدى تلك السيدة أيضًا مشكلة في محفظتها النقدية. لاحظتُ كيف فقدت التحكم في أصابع يدي المصابة بالتشنجات (خرائط الطريق المُنثنية في يدي سوف تصبح هدية زواج أكثر بؤسًا). وكذلك فقدت التحكم في صوتي الذي صرت أسمعه فجأةً يحدث صريرًا عاليًا أكثر مما ينبغي ومتوترًا وتمثيليًّا أكثر مما ينبغي عندما قلت:

– أنا متعجلة. معذرة.

كُنتُ أتأخر دائمًا لوقتٍ طويل أكثر مما ينبغي. وما إن توقف والداي عن توصيلي بالسيارة إلى روضة الأطفال والمدرسة والملاهي والسباحة وطبيب الأسنان، حتى بدأت في خوض سباق مع عقارب الساعة.

والداي دقيقان في مواعيدهما، حتى ولو أصبح العالم بأسره عالقًا في زحامٍ مروري. أما أنا فكُنتُ أستطيع أن أمضي كيفما أشاء، حتى لو كُنتُ في طريقٍ مستقيم، وحتى لو كُنتُ في الاتجاه الصحيح؛ ولكنني كُنتُ آتي متأخرةً أكثر مما ينبغي.

متأخرةً أكثر مما ينبغي عند الذهاب إلى السينما. متأخرةً أكثر مما ينبغي عند الذهاب إلى حفلةٍ موسيقية. متأخرةً أكثر مما ينبغي عند الذهاب إلى دورة تعليم التصوير الفوتوغرافي. متأخرةً أكثر مما ينبغي عند الذهاب لممارسة الرياضة. متأخرةً أكثر مما ينبغي عند الذهاب إلى أي مظاهرة. متأخرةً أكثر مما ينبغي على كل حال عند الذهاب إلى المظاهرات

الضخمة حقًّا. متأخرةً أكثر مما ينبغي عند المشاركة في مجلات الحائط، على الاعتصامات. متأخرةً أكثر مما ينبغي على المشاركة في الأحداث والتحركات المهمة. متأخرةً أكثر مما ينبغي لأن أؤمن في الأساس بوجود اتجاهات فكرية مختلفة. (حسبما بدا واضحًا على الأقل). متأخرةً أكثر مما ينبغي على إثارة مشاعر عظيمة عند رحيلي. ومتأخرةً أكثر مما ينبغي على أي حلم بالتراجع. ومع ذلك فإنني لم أخطط لهذا أبدًا.

أضعت مرَّات عديدة فرصة القبلة الأولى. وكِدت أيضًا أن أضيع موعد التقدم لبرنامج التبادل الطلابي، وكذلك موعد إجرائي لأول اختبار قيادة، وحفل التخرج في المدرسة الثانوية، وبروفة الحفل الراقص في المدرسة الثانوية، ومواعيد الاستشارات الدراسية والمهنية. فاتني الكثير والكثير من القطارات، وكان الباص يفوتني يوميًّا. وحتى عندما تعرضت لحادثة الدراجة أيضًا، كان الوقت ضيقًا للغاية. وبعد أن أفقت من البنج، استطعت بصعوبة أن أتذكر كيف صدمتني السيارة المستخدمة كمنزل متنقل قبل أن تنعطف من الشارع الرئيسي. وما علق بذاكرتي بخصوص كيف سحلتني السيارة بعدها كان أقل بكثير. رقدت في المستشفى لأسابيع عديدة. كان والداي ملتزمين بمواعيد الزيارة، وأعطا ذلك لي شعورًا بالتفاؤل. فقد اعتبرا أن عدم توفر سرير خالٍ لي في العناية المركزة يعتبر بشارة جيدة. ولوقتٍ طويل، لم أكن أستطيع الركض؛ لكنني عندما أصبحت قادرةً على أن أجُرَّ ساقيَّ وأذهب للفحص بالأشعة وللعلاج الطبيعي، كُنتُ أصل أيضًا متأخرةً أكثر مما ينبغي. كان لديَّ آلام وآلام ووقت. وقت للأفكار والخواطر والخطط (وللخوف اللاحق من الموت، الذي

اعتراني بعد أسبوع من شعوري بالفرحة بدرجةٍ كافية لأنني نجوت من الموت مرَّة أخرى. وهو الشعور الذي استوطن أحلامي لسنوات).
الشيء الوحيد الذي لم يفُتني في تلك الأسابيع هو الكثير جدًّا من المسلسلات التليفزيونية. تلك التي لم تنسَ المريضات – اللاتي كن يرقدن بصورة متعاقبة في السرير المجاور لي – أبدًا أن يفتحنها.

بدأتُ دراستي الجامعية بنية حسنة تمامًا، لا سيِّما أن تأخر مواعيد الدراسة عن الموعد المحدد **بمقدار ربع ساعة** كان متقاربًا مع إدراكي للوقت. حتى وإن لم يكن ذلك أيضًا كافيًا إلى حدٍّ بعيد. وعندما عثرت على شقة تقع بجوار الجامعة مباشرةً، لم أعد أذهب إلى الجامعة أيضًا في موعدي بالضبط. فقد أصبح الطريق المؤدي إلى قاعات المحاضرات قصيرًا جدًّا لا يستغرق وقتًا، لدرجة أنني لم أعد أضع الوقت في حسباني على الإطلاق. فكُنتُ لا أبدأ الانطلاق من المنزل إلا مع بدء فعاليات اليوم الدراسي.

عندما كان والداي يزورانني، كانا يخطراني بموعدٍ يسبق الموعد الذي كان مخططًا في الواقع. وعلى نحوٍ مشابه – وإن كان بالعكس – هكذا كانا يتصرفان مع جَدِّي وجَدَّتي اللذين يواظبان على الاستعداد في وقتٍ مبكر أكثر مما ينبغي. كان جَدِّي وجَدَّتي يتعمَّدان حقيقةً أن ينتظرا. فعندما كانا يسافران في رحلة، يجدان ما يدفعهما للذهاب إلى محطة القطار قبل موعد قيامه بوقتٍ طويل. ودائمًا ما كانا يبدآن التحرك في وقتٍ مبكرٍ. في

مرَّة واحدة فقط، غفل جَدِّي عن الوقت. ومنذ ذلك الحين أصبح والدي ووالدتي يشعران بالقلق عليه.

لم أكن أشعر بالقلق (عندئذ) على جَدِّي وجَدَّتي أو على والديَّ، ولم أكن أشعر بالقلق بالتأكيد على نفسي. كان المستقبل رهن إشارتي في تلك المرحلة. كُنتُ أضيع وقتي حينها في محاضرات تقدم فكرة عامة على العروض المقدمة للتدريب الوظيفي. وفي خطط السفر مع "فابيان"، الذي كان يضيع وقته خلافًا لذلك في الحلقات الدراسية **لخوض تجربة تعلم الموت**. أما "ميلاني" فكانت تضيع وقتها في دورات تعلم رقص التانجو، وفي بطولات الهُواة. وذلك على الرغم من أن الفرص المتاحة لها لكي تحقق نجاحًا رائعًا كراقصة محترفة كانت تتناقص مع مرور كل عام تدرس فيه اللغة الإنجليزية وآدابها، واللغة الألمانية وآدابها. وكان "فينسنت" يضيع وقته في الدراسة بالخارج وتقديم طلبات إقامة المشروعات. و"ساشا" يضيع وقته في فترات التدريب العملي في وسائل إعلام مختلفة. و"دانييلا" في العمل مُساعدة باحث. و"إليزابيث" في الدروس الخصوصية، و"جابرييلا" في البحث عن مسكن جماعي مثالي. أما "آنَّا" فكانت تقضي وقتها في دراسات تحقيق الكفاءة والحلقات الدراسية لتحفيز الآخرين.

لقد حاولتُ "آنَّا" حتى أن تحفزني أنا أيضًا. وهو الأمر الذي أعاقته "ميريت" التي كانت تضيع وقتها في سرد الحكايات عن أن الالتزام بدقة المواعيد يعد هَمًّا. فكانت تحكي عن الصديق الذي تعرَّض للدهس عندما سلك طريقًا مختصرًا، وعن إحدى معارف خالتها التي كانت تحضر في محطة الباص في الوقت المناسب، فمزَّقت القنبلة المتشظية جسدها إلى أشلاء، ووُضِعَت في صفيحة القمامة. وكذلك عن المدير الذي أصيب بنوبةٍ

قلبية فقط لأنه لم يعرف الموعد النهائي لتسليم العمل. وعن الصديقات، اللاتي سينجُونَ من الكوارث، إن فاتهن اللحاق بالطائرة أو بالقطار أو بفارس أحلامهن.

صدر من "الجي بي إس" صوت يدُلُّني على الطريق: "**اتجه الآن يسارًا**". غير أن الجزء المتفرع من الطريق كان قد فاتني بالفعل. مضيت بالسيارة ببطءٍ شديد، لأصل في الوقت الذي تنبأ به هذا الجهاز الأشبه باللعبة؛ ولكنني مضيت أيضًا بسرعةٍ شديدة كي أُلبِّي إرشاداته في اللحظة المناسبة.

إلا أن الجهاز تكيَّف برد فعلٍ سريع مع المكان، الذي كُنتُ به آنذاك في رحلتي الطويلة. فأخذ يقدم باستمرار اقتراحاتٍ لطرق بديلة وأماكن لتغيير اتجاه السيارة، لكي يخرجني من المسار الخاطئ. وذلك حتى عندما انعطفت من أجل أن آخذ فترة راحة للمرَّة الأخيرة في أحد أماكن انتظار السيارات. عندئذ، شربت قهوة في كشك لبيع الوجبات الخفيفة واشتريت دمية على هيئة حيوان له فراء ومعه قلب كبير للغاية وبه جهاز على هيئة دورة دموية خارجة منه.

عندما وصلت أخيرًا إلى حفل الزفاف، اتضح أنني كُنتُ الوحيدة التي سلكت مسلكًا مبتذلًا وعبثيًّا. فلم يكن معي حتى ورق لفِّ هدايا لأغطي به هذه الهدية التافهة المفتقرة للذوق. وحتى ديكور الفندق الصغير، الذي أقيم فيه حفل الزفاف والذي جمع بين الطراز الريفي وطراز الصيادين، كان أرقى من تصرفاتي الحمقاء. أودعت سريعًا الدمية وخرائط الطريق

على المنضدة الضخمة المخصصة لوضع الهدايا والموجودة بجوار المدخل. لم أتعرَّف من النظرة الأولى إلى أي شخص من الضيوف. ولوهلة، دار في رأسي أنني ربما أخطأت وذهبت إلى حفلٍ آخر. لكن على الأرجح كان هؤلاء جميعًا ببساطة أصدقاء "أوليفر" أو أقاربه.

لم يتوجَّه أحد لي بالحديث. تناولت كأسًا من الخمر، على الرغم من أنني كُنتُ قد انتويت أن أظل محتفظةً بلياقتي للقيادة. كان الكحول البراق يصطف في البوفيه صفًّا تلو صف في فخامة. لكن بدا أن أحدًا لم يرغب تقريبًا في شرب أي شيء. طفا كيس شاي بالبابونج في كوب، كان يشرب منه رجل نحيل الجسد. معظم النساء يحملن في أيديهن كؤوسًا من الشمبانيا بحكم المناسبة، كن يشربن منها بصورةٍ شكلية فقط وكأنهن حوامل.

لذا لم تبدُ العروسة وحدها كذلك، والتي ظهرت أخيرًا، ولم يكد يُلاحظ عليها شيء (ولم يكن من الملاحظ بكل تأكيد أنها حامل بتوأم). كانت "ميلاني" ترتدي فستان زفاف باللون الكريمي وطرحة بيضاء من قماش الـ"تول"، منفوشة على رأسها بشكلٍ مائل. ونصفها مكون من قُبَّعة، والنصف الآخر من طرحة.

بدت "ميلاني" أصغر عمرًا وفي الوقت ذاته أكبر سنًّا بأناقتها التي كانت تشبه أناقة أميرات الحكايات الخرافية. ملابسها غير محددة من الخصر، وخصلات شعرها مسترسلة ومصففة بمجفف الشعر، وخطواتها راقصة دون أن تصحبها موسيقى. وفي انفعالٍ شديد، أطلقت أصواتًا صغيرة لاهثة فيما يشبه إصابتها بشهقة سعادة. وبدت تُهيِّئ لنفسها بذلك مزاجًا معتدلًا. وحتى مع نظرتي لها، انفجرتْ تصرخ بحماس، ولم تلاحظ إلا حينها مَن يقف أمامها، وقالت بصورةٍ أقرب إلى الذهول:

- ظننتُ أنكِ منشغلة بكتابة بحث التخرُّج!

وكم كُنتُ أفضِّل في الواقع أن أكون جالسة في تلك اللحظة أمام "اللاب توب".

كانت "ميلاني" قد ألحَّت عليَّ بشكلٍ كافٍ لحضور حفل زفافها. وقالت إنها تريد الآن أن تحافظ على علاقات صداقتها؛ فالإنسان يحتاج إلى "قوة مضادة لحفظ التوازن". والآن أنا أقف هنا، بينما أتورط في سرد تفسيرات عن سبب إصابة فقرات عمودي الفقري بالإجهاد - أحد المضاعفات اللاحقة لحادثتي، ربما - وعن شكوكي في نفسي بسبب سعيي نحو الكمال، وكذلك عن حالات النشوة التي أمر بها عند الكتابة، مما يعطيني انطباعًا مريحًا. وبعد جمل قليلة، لم أعد أفهم ما الذي كُنتُ أحكيه، ولماذا كُنتُ آخذ هذا الكلام على محمل الأهمية هكذا. عندما لحقت بنا والدة "ميلاني" وشقيقها أيضًا، توَّقفتُ عن الحديث وغمغمتُ قائلةً:

- ومع ذلك لديَّ مُتَّسع من الوقت.

تساءلت "ميلاني":

- وستنجزين ذلك؟.. في هذا الوقت؟

أصابني الغضب؛ لأنها نسيت موضوع بحثي الذي أتحدث عنه بالفعل منذ سنوات. صاحت والدتها:

- آه لو كان المنتمون لثقافة "البيت" "Beat" قد عرفوا أنكِ سوف تكتبين أبحاثًا علمية عنهم في الوقت الحاضر!

نتيجةً لذلك، لم أستطع أن أكُفَّ عن ذكر الكميات الضخمة من المراجع التي اضطررت لأن أواصل البحث فيها بلا توقف. وكذلك أن أحصر مَن ألَّف أبحاث تخرُّج أكاديمية من بين جيل "البيت" "Beat". (وفي النهاية، يعد هذا طريقة فعالة بالنسبة لي - حتى لو كانت غير مثالية - لأن أحيا

حياةً غير صحية مثل جيل "البيت". وهو الأمر الذي لم أتوَصل إليه إلا في وقتٍ لاحق). وحتى "جاك كيرواك"، الذي ترك الدراسة الجامعية، حاول أن يفعل هذا عندما سلك طريقًا ثانيًا للتعليم. وهو الأمر الذي لا يعرفه في الحقيقة سوى أكثر معجبيه اهتمامًا به. جاء هذا على العكس من الحقيقة المعلومة للجميع أنه كتب رواية "على الطريق" في ثلاثة أسابيع؛ ولكنه فعل ذلك في الواقع في عشر سنوات.

– أجل. عشر سنوات؛ منذ كتابة الملاحظات الأولى، وحتى نشر الرواية.

هذا ما أوضحته لوالدة "ميلاني"، التي تأثرت قليلًا بهذا. وذلك على الرغم من أنها قد قرأت الرواية خلافًا لأبنائها، وزعمت أنها ما زالت تؤمن بالمُثُل العُليا لها. وكان رد فعلها على سؤالي لها بأي مُثُل عُليا تقصد إذًا أنها أصيبت بالاضطراب. فلم تكن تدرك أن معرفتها قليلة على هذا النحو. وفي النهاية، فإن هذا الأمر يدور في مجال تخصصي.. (في الواقع، خطرت ببالي – ولكن متأخرًا أكثر مما ينبغي ثانية – اللحظة الحاسمة التي بإمكاني أن أتجاوز بها غطرستها الجاهلة وبحكم خبرتي العلمية، بأن أعبر لها عن الشكوك الواردة في رواية "كيرواك" التي تتعارض مع المثل العليا للـ"بيت" Beat).

لكن عندئذ ظهر "أوليفر". مدَّت "ميلاني" ذراعيها وطوَّقت كتفيه، كأنها تحاول أن تعيد تمثيل دور امرأة متزوجة حديثًا في فيلم كوميدي من أفلام الخمسينيات. (بدا أنها قد منَّت نفسها حقًّا بأن يقع شيء ما في هذا اليوم). تمثَّلت نقطة الذروة عندما انفجرت ضاحكة ومقهقهة وهي تقول:

– ما زلت لا أستطيع أن أصدق أنني قد تزوجت حقًّا!

(يُقال إنها أصبحت مطلقةً بعد ذلك بأربع سنوات). تعذَّر عليَّ أن أؤيدها؛ فقد فاتني في النهاية حضور مراسم الزفاف. إلا أن "توبياس" شقيق "ميلاني" قد نقر على الكاميرا الخاصة به مطمئنًا لها؛ فكل شيء كان مخزنًا بها. كما كان معه شاهد حقيقي على الزواج.

قدمته لي "ميلاني" قائلةً:

- أجل. كل أصدقائي السابقين من الرجال موجودون هنا.

وأضافت:

- لم يعتبر "أوليفر" هذا أمرًا ظريفًا للغاية.

وكان "أوليفر" بدوره يرى الأمر على نحوٍ مختلف. (لكن "أوليفر" سوف يعتبر في وقتٍ لاحق أن سلوك "ميلاني" في التواصل يعتبر بشكلٍ إجمالي خطيرًا للغاية، لدرجة أنه كان من شأنه أن يضع هذه التفصيلة بالكاد في الحسبان).

هتفت لي "ميلاني":

- هل ستظلين هنا قليلًا؟

أصبحت وحيدة من جديد. كان الشاهد على الزواج وحده مَن يزال يقف بجواري. شربت كأسي عن آخرها، وحاولتُ أن أُجري مُحادثة صغيرة عن الأجواء في القاعة الصغيرة الخاصة. نظر إليَّ كأنه يسألني هل ينبغي عليه أن يعتبر هذا الكلام موجهًا إليه. اعتذرت بأنني لم أكن في كامل تركيزي حقًّا، وأوضحت له كيف أنني قد تعرضت للخديعة بأن وقعت في أزمة وجودية (لأنني افترضت أنه اشترك في متابعة حديثنا عن بحث "كيرواك"، وهو الأمر الذي ثبت أنه خطأ).

قلت له إنه في حقيقة الأمر لا توجد أي مشكلة. (لا توجد مشكلة؟! إن جَدِّي وجَدَّتي يكبران في السن أكثر فأكثر، وبدأ والدي في الإصابة بالسُّعال، ووالدتي كذلك صارت تذهب كثيرًا إلى الطبيب وتذهب أكثر إلى أخصائية التجميل. أما أنا فقد ظهرت في رأسي أول شعرة بيضاء). لا توجد مشكلة على الإطلاق. ولذلك كُنتُ مضطرة لأن أنتهي من بعض الأزمات، حتى بدت لي التحديات القليلة التافهة التي أواجهها في حياتي مثيرة للاهتمام بشكلٍ كافٍ. وذلك لكي أتجاوزها في النهاية. مثلما يحدث في فيلم أحداثه مثيرة ولا يتأتَّى أن يقع فيه أي حدث دون صراع مع الوقت. لكن على هذا النحو:

– سأشعر بالسعادة فقط إن وجدت في هذا الموقف طبيبًا يتعاطف معي!

أخذ ينظر لي عندئذٍ باهتمام. واصلت الحديث:

– على ما يبدو، أحتاج إلى هذا. مع أن هذا أمر خارج عن المألوف. أو على الأقل يسميه "إدجار آلان بو" "الخارج عن المألوف". هل تعرف هذا؟ أقصد قصته القصيرة "مارد الخروج عن المألوف". قد يقع الآن خلاف بشأن كيفية ترجمة هذا الاسم على أكمل وجه. ولكنه يبقى أمرًا خارجًا عن المألوف. وهذا ما أعطاني دفعة. أين يحصل الإنسان على هذه الدفعة ببساطة هكذا؟

صمتُّ، وبدأت أتساءل، هل من الممكن أن ما قلته من "طبيب" و"خارج عن المألوف" و"دفعة" قد تسبَّب في إصابته بالتشوش والحيرة (ولكنني لم أعرف إلا متأخرًا جدًّا أن أسلوبي المتكلف في نطق الاسم "بو" و"خارج عن المألوف" باللغة الإنجليزية كان في أغلب الظن ما جعله لا يتوقع في هذه اللحظة أننا سوف ننجب ابنًا بعد ذلك بخمس سنوات).

غمغم بشيءٍ ما عن إمكانية أن يركب مع أشخاص آخرين في سيارتهم. وهذا ما كان يشغل باله به. نظر - مرورًا بي - إلى الطرف الآخر للغرفة حيثما كانت "ميلاني" و"أوليفر" يتسامران مع زوجين أكبر سنًّا. أوضح قائلًا:

- دائمًا ما أهرب.

وأردف:

- صحيح، إنني لا أصل بعيدًا أبدًا، لكن يمكن للإنسان أن يحاول فعل ذلك. أن يخرج ذات مرَّة من هذا الفيلم الخاطئ.

ومضى. إلا أنه واصل الحديث. ولذلك فقد سرت خلفه. (ولم أكن أعرف، كم من فرصة ينبغي أن أجد لكي أفكر بعمق في الجمل التي قالها).

عندما انضممنا لـ"أوليفر" و"ميلاني"، كانا قد ودَّعا بالفعل مَن كانا يتحدثان معهما. سأل الشاهد على الزواج:

- هل هذان هما الشخصان اللذان يسافران في اتجاهي نفسه وما زال لديهما مكان شاغر في سيارتهما؟

أومأت "ميلاني" برأسها وقالت:

- ولكن ابقي هنا. أرجوكِ! نحن لم نتحدث بعد على الإطلاق!

وفرضت نفسها عليه قليلًا (كأنها تريد بذلك أن تمسك بقطعة صغيرة من حياتها السابقة).

- من المؤكد أن هناك شخصًا آخر.

ابتسم ابتسامة باهتة. وضحك "أوليفر" بتهكم. تنهَّدت "ميلاني". وتساءلتُ، لماذا لم أعرف، متى لعب هذا الشاهد دورًا في حياتها. (وغفلت في غضون ذلك عن أنني لم أكن أعرف حتى اسمه. أي إنني لم يكن بإمكاني على كل حال أن أنسب له حكايات من الماضي بها غرام أو غضب

أو عذاب). حاولتُ "ميلاني" أن تجعل تنهيدتها التالية ذات وقع أكثر حيوية. لقد وصلتْ لما كانت تريده. عليها الآن أن تتحدث.

- أجل..

هكذا بدأت حديثها في حرارة متدفقة ذات وقع مقنع وبهيج.

- كيف حالكم؟ هل النبيذ جيد؟ لا يجوز لي حقًّا أن أشرب الآن... أشعر بسعادة بالغة أنكم جميعًا هنا! أنكِ...

صار حديثها موجهًا لي:

- ... تمكنتِ من هذا! وأنكِ أتيتِ إلى هنا خصيصًا! يجب علينا فيما بعد حتمًا...

(وبدأت أدرك، أنني سوف أذهب في النهاية إلى المنزل دون أن أكون قد تبادلت معها أكثر من عشر جمل. حسنًا. من أجل هذا كانت هي العروس. من أجل أن تكون مسؤولة عن كل الضيوف. في كل مكان وفي الوقت ذاته).

- غدًا سنكون في مصر! أتتخيلون ذلك؟!

صاحت بها "ميلاني" وكانت عيناها تتجهان بالفعل إلى مكانٍ آخر. (في غضون أسابيع قليلة، وعبر التليفون، سأتفاهم مع "ميلاني" مرَّة أخرى على أكمل وجه. سوف تأخذ وقتها. كُنتُ متأكدة من ذلك). نظر صديقها السابق نحو الباب، حيثما اختفى بشكلٍ نهائي الزوجان الكبيران في السن (مما جعله لا يعرف أبدًا، ما الصدفة صعبة التصديق والمضحكة التي جعلت كليهما يتعرفان إلى بعضهما بعضًا آنذاك عند بحيرة "بودن زيه"، ولم يعرف شيئًا عن الجولة التي قاما بها بالدراجات عبر هولندا احتفالًا بالزواج ولا عن أحفادهما، الذين يعيشون منذ وقتٍ طويل في عالمهم الخاص. ولا عن الأسابيع، التي قضياها في المكسيك والسنوات التي قضياها

في ماليزيا. ولا عن إلقاء القبض عليهما بشكلٍ مفاجئ في "هونج كونج". ولم يعرف كذلك شيئًا عن القضايا التي وقعت بينهما وبين جيرانهما).

بدا أنه لم يكد يلاحظ كيف سارت "ميلاني" خلف زوجها المستقبلي – الذي انفصلت عنه فيما بعد – متجهين إلى البوفيه. فعلت ذلك دون أن تجود علينا بنظرة أخرى. (غير أنها سوف تزعم بعد ذلك بسنوات أنها لاحظت بدقة كيف تطوَّر بيني وبينه شعور ما). لقد تركته أنا أيضًا واقفًا، لأنني اكتشفت وجود "ساندرا". إنها "ساندرا" التي كانت معي في كاليفورنيا وانتهى بها الحال إلى هناك مرَّة أخرى حسبما عرفت. كانت "ساندرا" ترتدي الموديل نفسه من أحذية الكلية، مثلما كانت تفعل في السابق. كان قوامها ووقفتها ما زالا يذكرانني براقصة باليه لا تتدرَّب جيدًا.

– هل أتيتِ من أمريكا خصيصًا لحضور حفل الزفاف؟

سألتها وأنا أعرف أنها على كل حال في رحلة ترانزيت. كانت في الواقع دائمًا في رحلات ترانزيت. تارةً هنا، وتارةً هناك. كُنتُ مُعجبة بها لتكاسلها واسترخائها، حتى أدركت أنها حصلت على درجة الدكتوراه في "هايدلبرج" و"ستانفورد" في الوقت ذاته.

لم أذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية أبدًا منذ العام الدراسي الذي قضيته هناك. وذلك على الرغم من أن موضوع بحثي يقع في إطار الدراسات الأمريكية، وعلى الرغم من أن إتمامي دراستي في المدرسة التكميلية العُليا قد نقل لي لوقتٍ طويل التصور الكاذب بأن هناك فُرصًا لا حدود لها في الولايات المتحدة الأمريكية. كما لو أن لديَّ مستقبلًا ثانيًا في أمريكا، وكما لو أنني سأستطيع أن أواصل حياة "الأنا الثانية" هناك، وأن أجعلها تدرس هناك، بينما أكون قد عدت إلى ألمانيا لكي أعوِّض العام الذي

فاتني في المدرسة الثانوية. (وكان من الصائب حقًّا أن أضيع هذا العام الدراسي، وذلك حتى إن كان حصولي على رخصة القيادة بشكلٍ سابق لأوانه جعلني أتوهم لفترةٍ من الزمن أنني أتفوق بذلك على الآخرين). والآن أصبحت "ساندرا" تقف أمامي بكل ما تتمتع به من خفة حركة. لقد بثت "ساندرا" الحياة في "الأنا الثانية" الخاصة بها وسخرتها من أجل نفسها. حسنًا، وفي مقابل ذلك لم تتخلص من هذه "الأنا الثانية" أيضًا إلا بصعوبة.

– هذا غير ممكن بالطبع من دون التعرض لمشاكل في الوقت.

لا، لقد استخدمت "ساندرا" المصطلح "تحديات تنظيمية". لقد عاشت كلتا الحياتين وحققت في ذلك تقدمًا أسرع من التقدم الذي حققته أنا في دراستي للماجستير التي لم أنتهِ منه. أوضحتُ لها دون أن تسألني:

– أجل، أنا أعرف أنكِ أتممتِ دراسة الماجستير منذ وقتٍ طويل.

وثارت أعصابي عندما أخذتُ أستعرض مواعيد الانتهاء من الدراسة ولوائح الدراسة والامتحانات التي جرى العمل بها عند بدء دراستي.

– ربما يرجع السبب في هذا...

قلتها على نحوٍ لا داعي له، وأضفت:

– .. إلا أنني أعيش في الواقع في الحرم الجامعي. ما زلت موجودة هناك، حيث لم أعد أنتمي إليه منذ وقتٍ طويل. على ما يبدو، منعني هذا من إتمام دراستي بشكلٍ فعَّال. ومن ناحية أخرى، ما الفعالية؟ في نهاية الأمر، هي ليست سوى أمر يخص الأشخاص الذين ليس لديهم في الحقيقة مُتَّسع من الوقت.

إلا أنني كان لديَّ وفرة من الوقت لأقلق بشأن كل ما يفوتني لكن في الوقت ذاته لم يكن لديَّ أي وقت بسبب تأجيلي. في كل مكان، كان هناك

كثير من الأمور التي اضطررت لإضاعتها. وكثيرًا جدًّا ما كُنتُ أعرف ما هذه الأشياء ومتى وأين توجد.

قالت لي "ساندرا":

- وقعت لكِ حادثة.

أي إنها قد نما إلى علمها الكثير.

- من دون مضاعفات لاحقة.

قلتها لها مؤكدةً، وأضفت:

- لكن معي شهادة مرضية. لا داعي للقلق. معي شهادة مرضية. كل شيء على ما يُرام. أموري تسير على نحوٍ جيد. أموري تسير على نحوٍ جيد! لقد منحوني للتَّوِّ أربعة أسابيع. وقد دوَّن "جاك كيرواك" أهم مؤلفاته في ثلاثة أسابيع. إذًا، لا بد أن تكون الأسابيع الأربعة كافية!

بدت "ساندرا" كأنها تبذل جهدًا جادًّا كي تفهمني. لكن قبل أن أتمكَّن حتى من أن أوضح لها موقفي بشكلٍ أدق، أقبل والدا العروس نحونا. تأملنا والد "ميلاني" بِوُدٍّ، بينما أعلمته زوجته بعباراتٍ سريعة للغاية مَن نحن ومِن أين يجدر به حقًّا أن يعرفنا.

- أجل. لا يمكن أن تكون الأشياء غالية الثمن - كالجامعات الأمريكية - غير جيدة.

قالها وهو يغمز لـ"ساندرا" بعينيه، والتي بدأت نتيجةً لذلك في التفكير بشكلٍ ملحوظ جدًّا، لدرجة أنه طرق على كتفها بابتهاج. ارتجفت والدة "ميلاني". وأخذت "ساندرا" تبذل جهدًا أكبر في التفكير.

- أجل. لا يجوز أن يقول الإنسان هذا - يمكنكِ أن تعرفي هذا بشكل أفضل مني - إنه نوع من الثقافة. هذا كله نوع من الثقافة.

وتبعها والد "ميلاني" سريعًا بقوله:

- أعرف. أعرف. أعرف.

وددت لو تخطيت هذا المشهد بأكمله. فعلى كل حال، لم يكن الأمر يتعلق بي. كان بإمكاني أن أنسحب متسللةً، وأن أقف بجوار أي شخص يشرب الشمبانيا، وأبدأ حديثًا لا يستحق أن أواصل ذكره حول صلات قرابة، أو علاقات صداقة كل منَّا بالعروسين، وحول الطقس، والمرور، وحول أسلافنا، وحول مَن نعرفهم بشكلٍ شخصي من المشاهير - والذين يتم ذكرهم بشكلٍ عارض قدر الإمكان - وحول رحلات السفر في العطلات الكبرى، وأن أتحدث بشكلٍ موجز جدًّا جدًا عن الظروف التي جعلت من المستحيل أن أقضي في ذلك الصيف أي إجازة. لكنني فهمت بشكلٍ متأخر جدًّا ما كان بانتظاري. ولذا ظللتُ واقفةً. وكان عليَّ أن أتساءل هل اندفعت خطبة "ساندرا" الوعظية - والتي أخضعت بها والد "ميلاني" ليصبح تابعًا لها في افتتانها الساذج بأمريكا - بلا تفكير وبشكل جاف للغاية حقًّا، حسبما أظن أنني أتذكر في الوقت الحاضر؟ لقد أخذت "ساندرا" تأسف بصخب وبصورة بالغة من تضييع الوقت الذي يحدث في كل مكان، بسبب الدخول في دردشة مشبَّعة بالكراهية الشديدة. (على ما يبدو، كان لدى "ساندرا" أيضًا موضوعاتها الخاصة بها). قالت إن هذا ليس مجرد سطحية، بل "تقليل من شأن سياقات الأمور! وعدم اهتمام مزعج، يبديه مَن لا يعرفون الأمر بأكمله! هذا الحد من شأن الذات! دون ضرورة لذلك!". (لكن ماذا كانت تعرف بالفعل عندئذٍ؟).

- هذا الامتناع عن أي خوض مناقشة جادة تحت ستار التمتع بوعي نقدي أو على الأقل التمتع بوعي قوى الحجة!

وقفت بجوارها وأنا لا أعرف كيف وإلى أين ينبغي أن أوجه بصري.

أخذ والد "ميلاني" ينظر لـ"ساندرا" بودٍ متزايد:

- أقول هذا حقًّا. لا أقول سوى هذا حقًّا.

(قالها بدلًا من أن يحكي لنا على سبيل المثال عن تعاونه مع كندا. أو أيضًا عن دراسته الجامعية في ألمانيا وفرنسا والتي أتمها دون عناء أو مشقة، ولا يبقى في ذاكرته عنها سوى أنها كانت فترة عظيمة ليس بها ما قد شغله. أو أن يحكي عن خبراته المتناقضة، التي مرَّ بها عندما كان محاميًا تحت التمرين في مكتب مُحاماة خاصٍّ بـ"جماعة الجيش الأحمر"، وعن الفشل المُزمن لأول شركة استشارات أسَّسها في الثمانينيات، ومُساهماته في أول صناديق أُنشئت لتمويل إجراءات حماية البيئة، والتي درَّت ربحًا غير مُتوقَّع، وعمَّا قدَّمه من مُساعدات في عمليات الهدم والبناء في جمهورية ألمانيا الديمقراطية حديثة الزَّوال (DDR)، وحماسه المُتَّقد نحو التَّحوُّل للتقنية الرقمية. ولم يتحدَّث بالتأكيد عن عمله لفترة قصيرة جدًّا في حزب احتجاجي محلِّي. لقد أثار هذا الحزب في نفسه مشاعر غير مرغوب فيها).

عندما مرَّ بنا الزوجان في جولتهما التالية في الغرفة، تنفَّسنا الصَّعداء. حتى "ساندرا" نفسها بدت مرتاحة لأن ثورة انفعالها قد انتهت. غير أن "أوليفر" وجَّه الحديث بعد ذلك لحماه حول السياسة اليومية. لم يكن لدى أحد منَّا أي رغبة في خوض نقاش آخر. وقبل أن يصبح الصمت خانقًا، قلت لهم بهدوء قدر استطاعتي أنني أظن أن "جيرهارد شرودر" سوف يخطئ في حساباته. وأومأ الجميع برؤوسهم، وساد تناغم بشكلٍ خالص فيما يتعلق بالصراع الانتخابي. كانت "ميلاني" وحدها مَن لم

تدرك أي شيء على الإطلاق عن الانتخابات الجديدة المقبلة. لكن حسنًا. من أجل هذا كانت هي العروس. وعلى العكس من ذلك، فقد شخصت لي "ساندرا" (بصوتٍ أكثر ارتفاعًا، ولكنها تحوَّلت عندئذٍ إلى حالة مزاجية جيدة) الاستهلاك المفرط لوسائل الإعلام قائلةً بنبرة ساخرة:

– أنتِ على علم بذلك. وهكذا لن تنجحي أبدًا في إتمام دراستكِ الجامعية بانشغالكِ بالأخبار.

كُنتُ باقية بصعوبة على قيد الحياة في هذه الأشهر، لكنني قلت:

– ولكن الإنسان بحاجة لشيءٍ من الحقيقة!

أصبحت الأطعمة تُوضَع في البوفيه شيئًا فشيئًا، لكن من المفترض أيضًا أن يحدث شيءٌ ما. أوضحت "ميلاني" أن البعض "قد راجعوا أنفسهم" بشأن شيءٍ ما، وأنه ينبغي علينا جميعًا أن "نراجع أنفسنا" بشأن شيءٍ ما أيضًا. وبالفعل بدأ أحد أصدقاء "ميلاني" السابقين من الرجال في سرد نوادر عن موضوعات مثل "**ميلاني" وأظافر يدها**، و"**ميلاني" وارتباطها اللا إرادي الشديد بالتليفون** وكذلك "**ميلاني" وحذاؤها، الذي كانت تعامله معاملة ظالمة**. (وكانت "ميلاني" قد هجرت ذلك الصديق منذ ثلاث سنوات. ويُقال إن سبب هذا أن أعصابها كانت تثور بسبب خموله. حدث هذا قبل أشهر قليلة من عمله اللافت للأنظار في أحد الملاهي الليلية وقبل ظهوره أيضًا في التليفزيون وكتابته لعمود ثابت في عديد من الصحف).

لم تكد تلك الحكايات تذكرني بـ"ميلاني"، حسبما كُنتُ أعرفها على الأقل. إلا أن مثل تلك الحكايات كانت مألوفة للجميع. فكنا نعرف في أي موضع علينا أن نضحك وفي أي موضع علينا أن نصفق. كم وددنا أن نلحق به في ذلك (لكن مَن يود أيضًا في حفل زفاف أن يروي أحد تفاصيل حقيقية عن علاقاته).

بدأ والد "ميلاني" خطبته بالحديث عن مدى اللطف الذي حاولتُ "ميلاني" به أن تقنعه لكي يلتزم الصمت في حفلتها، لكنه قال إنه ينتظر بسرورٍ بالغ ولادة أحفاده، لدرجة اضطرته ببساطة إلى الحديث. لكن هنا فاتته اللحظة المناسبة ليختم خطابه ختامًا وقورًا، كان من الصعب أن يمنعه أحد.. وعندما انتبه إلى ذلك، حاول أن يتراجع في خطابه بأن قال عباراتٍ كثيرةً جدًّا لدرجة أنه في النهاية قلَّل بشكلٍ مفرط من أهمية ذلك الطقس المرتبط بذلك الحفل. وذلك فقط لأنه لم يستطع أن يتوقف عن الحديث في الوقت المناسب.

لقد قال إنه سواء تزوج الإنسان أم لم يتزوج، فإن كل الأمور سوف تسير على كل حال كما كانت من قبل. وبذلك وصل في النهاية إلى نقطة محددة (حتى وإن كان مخطئًا فيما تنبَّأ به. فمن المفترض أن تتزايد حدة التوقعات والتوترات والمخاوف والمواقف العدائية للمرَّة الأولى في ليلة الزفاف لدرجة تجعل العروسين يحكيان عنها عاجلًا وآجلًا).

لم يسمح أحد لهذه الخطبة، التي خرجت عن نطاق أي سيطرة، أن تشعره بالنفور. بل على الأرجح كان لهذا المشهد تأثير حرَّر الحاضرين من أي قيود. فأخذوا يشربون مزيدًا من الخمر، وأخذوا يتدافعون أكثر فأكثر إلى الحديث. وعندما أخذوا يستشهدون حتى بالشعر، نقَّبتُ أنا أيضًا في

ذاكرتي الشعرية، واستشهدت بالشاعر الألماني "هاينه" ("ولو لم يكن هذا قليلًا من الحب". كانت هذه هي القصيدة الوحيدة - بالإضافة إلى الجزء الأول من قصيدة "العواء" للشاعر الأمريكي "إلين جينسبرج" - التي تحضر في ذهني دون الاستعانة بكتاب من رف الكتب أو بالإنترنت). لقد خلَّفت هذه القصيدة انطباعًا معقولًا. وأبدت والدة "ميلاني" وحدها حماسًا بالغًا للقصيدة.

- لقد مسَّت مشاعري.

كادت أن تصيح قائلةً:

- لقد مسَّت مشاعري!

ذهبتُ إلى البوفيه. إن "جاك كيرواك" يوصي دائمًا بالدخول في حالة كافية من نشوة السُّكْر في كل مواقف الحياة. وبعد أن شربت الكأس الثالثة من الخمر، شعرت بأنني قد أصبحت ثملة. وذلك بعد شهور من عدم شربي الكحول.

أخذت أتناول مقبلات وساندويتشات صغيرة وأتأمل رؤوس الثعالب والخنازير البرية المُحنطة والمعلَّقة على الحائط وأتحدث مع أشخاص لا أستطيع أن أتذكرهم سوى بصعوبة؛ لأنهم لم يلعبوا أي دور آخر في حياتي، ولم يلعبوا بالتأكيد دورًا في هذه الحكاية. ذلك حتى وإن كانوا قد بدوا لي في هذا المساء مثيرين للاهتمام بشكلٍ كافٍ، لدرجة أن فاتتني بسببهم الرقصة الأولى. (كان من بينهم امرأة نحيلة الجسد ذات شعر أحمر أخذت تصنف أزمات الحياة، وشخص أشقر ذو فم واسع للغاية يمتلئ بأسنان ذات زوايا مربعة. كان ذلك الشخص يبث آراءه عن تمدد الزمن، وكان يريد بذلك أن يقول لي شيئًا ما). لم أذهب إلى الناحية الأخرى

إلا عندما أصبح صوت الموسيقى المنبعثة من الغرفة المجاورة أعلى. كان الضيوف متزاحمين في مدخل الباب. استغرق الأمر وقتًا حتى تمكُنتُ أن أرى من الخلف أي شيء ظهر من الأزواج الذين كانوا يلقون بأنفسهم هنا وهناك على إيقاع الموسيقى. إلا أنني أخذت بعد ذلك أحدق نحوهم بانبهار متزايد. كان هناك عريس وعروس يرقصان ويطوفان في الغرفة بخفة بطبيعة الحال. لقد أظهرا انسجامًا فيما بينهما مع كل رد فعل صغير لهما على حركات بعضهما بعضًا. كما أظهرا في الوقت ذاته مرونة لم يكونا ليستطيعا أن يصلا إليها أبدًا لو كانا قد رقصا وفقًا لخطوات الرقص النموذجية. لم يكن من الملاحظ تقريبًا أن "ميلاني" كانت قد ازدادت بضعة كيلو جرامات أكثر من وزنها المعتاد؛ فقد بدت أكثر نعومة في حركاتها. وبدا من السهل عليها للغاية أن تتغلب على أي وزن ثقيل. وكان من الكافي أن تستسلم للموسيقى.

لقد كانت المسافات بينهما وتوقيتهما مضبوطين. هنا كانت "ميلاني" في حالة نفسية جيدة جدًّا، وكذلك في وضعٍ جيد جدًّا مع زوجها. كما كانت في حالة توافق إيقاعي مع والديها (اللذين كانا قد تدرَّبا جيدًا كذلك).

– لقد كان "كيرواك" أبًا مثل الكارثة. لذلك فقد عاش طوال حياته تقريبًا عند والدته.

تساءل "توبياس" بجواري:

– نعم؟

لاحظتُ أنني قد تحدثت بصوتٍ عالٍ. على كل حال، لم يفهم "توبياس" شيئًا. لم تعد موسيقى التانجو تلعب بالداخل؛ بل كان هناك مزيج من

المقطوعات الموسيقية، ربما كانت تتيح للجميع أن يقفزوا وهم يستمعون إليها. وعلى الرغم من ذلك كان أغلبهم يقفون في أطراف القاعة الخاصة.

كم ودَّ "توبياس" لو كان قد رقص في حفل زفاف شقيقته. إلا أن الفقرة الراقصة الحالية ذكرته بالإحراج الذي كان يتعرض له في درس الرقص، والذي كان سيجعل أطرافه مربوطة كالعقدة لو خطا خطوة واحدة وعلى الفور. لم أصدق حرفًا مما قاله. ولكنني شعرت مع ذلك بالارتياح، أنه لم يكن يريد أن يخوض تلك المغامرة معي على الأقل. فقد شلني الشعور بعقدة النقص والحقد (فبعد الحادثة التي تعرضت لها، أقلعت عن الرقص. وبعد ذلك دخل "فابيان" حياتي، والذي كان راقصًا جيدًا جدًّا بالنسبة لي). أصغى شقيق "ميلاني" إلى الموسيقى في عصبية. وصاح في الفقرة الراقصة التالية:

- أوه، لا!

وأضاف:

- وهذا أيضًا! هذه الموسيقى تذكرني بما شعرت به نحو زملائي الجادين! مَن وضع تلك الموسيقى ضمن قوائم الأغاني؟

يمكنني أن أصنف المقطوعة الموسيقية أنها من فن الـ"مامبو". لم أكن أعرف الأغنية التالية على الإطلاق. لكن "توبياس" شعر بميل أكثر لها.

- أوه! لقد انتشرت هذه المقطوعة الموسيقية قبل عامين، لا قبل ثلاثة أعوام. ما زلت أعرفها بدقة كبيرة جدًّا. حسنًا. كان الأمر مجرد سوء تفاهم. لكن، أوه! وأنا السبب في سوء التفاهم ذلك. لم أفهم ذلك ببساطة.

انتفض.

– هذا هو الأمر البغيض في الموسيقى. الإنسان يظل يكبت ويكبت أشياء بداخله ويعتقد أنه نجح في النهاية في ذلك. ثم تنبعث بضع نغمات مثل تلك النغمات التي انبعثت آنذاك من راديو السيارة؛ فينطلق كل شيء من جديد. راديو السيارة هذا! إن الـ"دي جي" هذا...

قالها متنهدًا. (لم أنتبه إلا الآن إلى منصة الـ"دي جي"). وأضاف:

– ...تعرف كل إخفاقاتي! مَن تكون هي في الأساس؟ لم يسبق لي رؤيتها أبدًا. حسنًا. ربما كُنتُ أعرف ذلك. آه. النجدة. أغنية "**قلبي يزهر**". كم هو أمر مُربك! كم هو أمر مُربك!

استمعت إلى الأغنية للمرَّة الأولى وهززت رأسي على إيقاع الموسيقى بمزاجٍ متعكر. على ما يبدو فإن الأغاني، التي كانت تدور، هي الأغاني المفضلة للعروسين. هزَّ "توبياس" رأسه مستنكرًا لذوق شقيقته. لقد ابتهجت وشعرت كذلك بالاضطراب عند سماع أغنية "**أظن أنني أصبحت أمًا**"، والتي خرجت بشكلٍ كافٍ عن الإطار الذي يسمح لي بأن أسأل "توبياس" هل كان يربطه بهذه الأغنية أيضًا شعورٌ بغيض.

– ليس بشكلٍ مباشر هكذا. لكن المغنية "بي جاي هارفي" كانت مرتبطة لفترةٍ بالمطرب "نيك كايف". وهذا ما يذكرني به صوتها في كل مرَّة أسمعه فيها. و"نيك كايف"، حسنًا، إن هذا أمر مؤلم حقًّا لدرجة أنني لم يعد بإمكاني سماعه دون أن أفكر في الصيف الماضي. كل هذه الأوهام. أتعرفين، لقد كُنتُ أريد أيضًا أن أتزوج. لقد كدت أن أصبح بعيدًا جدًّا!

عندما دارت موسيقى ناعمة من جديد، بدا أن "توبياس" يشعر بعذابٍ أكبر. همس صوت نسائي: **"مَن بإمكانه أن يقول إلى أين يؤدي الطريق..."**.

كُنتُ أعرف هذه الأغنية من مصدرٍ ما. لكنني لم أكن أعرف إلى أي نوع موسيقي تنتمي. إلا أن "توبياس" أصبح في حالٍ أفضل وقال:

- **أغنيتنا**! كم من معانٍ فظيعة في عبارة عاطفية كهذه.

وفضلًا عن ذلك، أخذ يحدق في الـ"دي جي" (ولم أكن أعرف بعد أنه كان ينتظر حتى يقل انشغالها بعض الشيء). وبمجرد أن انتهت قائمة الموسيقى حتى انتقلوا لتشغيل ألبوم كامل لموسيقى التانجو، ركض بسرعة إلى المنصة نحوها. لم أعرف، هل ينبغي أن أشعر بالارتياح أم بالإهانة من أنه لم يشر بكلمة إلى شعور الانزعاج الذي جمع بيننا (بدا لي من المستحيل أن يكون قد نسي بالفعل القصة. لكن ربما لم تكن حينها هناك موسيقى تدور. في ذلك البار المجاور للسينما، حيثما التقينا عن طريق الصدفة. لم أستطع أنا على الأقل أن أتذكر هذا).

ولم أعرف، أي ذكريات أخرى قد يهبنا الشاهد على الزواج، الذي أصبحت أقف بجواره بعد مغادرة "توبياس". لم يبدُ أن صديق "ميلاني" السابق كان يلاحظ وجودي. لماذا لم يرقص هذا الرجل على الأقل؟ لقد بدا أنه قد استسلم للموسيقى بالفعل بأن أغمض عينيه نصف إغماضة وأخذ الجزء العلوى من جسمه يتأرجح تبعًا لإيقاع الموسيقى، كما أخذت يداه تهتزان. لكنه خرج عن الإيقاع بعد ذلك وتمتم قائلًا:

- هكذا يقف الإنسان وحده ويرى كيف تفلت الفرص من بين يديه.

كان لكلامه وقع، كأنه يتحدث مع نفسه. إلا أنه بدا مرتاحًا أنني أجبته، أو أنني تحدثت مع نفسي كذلك بصوتٍ عالٍ قائلةً:

- أنا لا أقف وحدي. أنا أركض خلف نفسي. ألهث وأنهج. دائمًا ما أحاول أن أمسك بنفسي وأن أوفق بين هذه اللحظة أو تلك وبين خططي الزمنية.

تساءل:

- وعندما تلحقين بنفسك، هل تنهاران معًا وتعانيان من الفشل؟

- أجل. حينها أشعر...

حاولتُ أن أضحك.

- لا. في مثل تلك اللحظات، يخطر ببالي أكثر، كيف أضعت حياتي الأخرى سُدى. في كل هذا اللهو. لا عجب أن يشعر الإنسان بشيءٍ من الشوق نحو الشعور بمشاعر مبالغ بها. إن والد "ميلاني" على حق؛ فمناسبة هذا الحفل عادية وتوقيتها لا مفر منه. لكن ما اتضح لي أن تحديد مثل ذلك الموعد ذات مرَّة والصياح بأن الإنسان على قيد الحياة بصوتٍ عالٍ قدر الإمكان - ومع بذل كثيرًا من المجهود قدر الإمكان أمام كثير من الشهود - هدفه أن يفطن الإنسان نفسه إلى هذا الأمر حقًّا ويستطيع في وقتٍ لاحق أن يضع الأمور مسبقًا في حسبانه. كلا. هذا ما اتضح لي.

- هل تريدين أيضًا أن تتزوجي؟

لكنني لم أكن أريد سوى أن أنصرف. أن أعود إلى المنزل من أجل أن أواصل الصراع مع الوقت. لا بد أن أجلس إلى مكتبي. أنا أنتمي إلى هناك. إلى الجمل التي أكتبها عن جمل "كيرواك". لا ينبغي أن أكون موجودةً في حفل الزفاف هذا. ولا أن أكون موجودةً على الإطلاق بين الناس، أو على أقل تقدير بجوار ذلك الرجل، الذي بدا فجأة يقظًا جدًّا، لدرجة أنني لاحظت كم كُنتُ منهكة القوى، وكم كُنتُ أبدو كذلك بالطبع.

كلما أصغى إليَّ ذلك الرجل باهتمامٍ متزايد، كان الكلام الذي أتفوَّه به له تأثير محرج بشكلٍ متزايد. وما زاد الأمر سوءًا أنني لم أكن ثملة بعد

بما يكفي لأن أتمكن من إنكار هذه العلاقة بين الأمرين. لا. أنا لم أصبح ثملة بما يكفي تمامًا لهذا الحفل ولهذه المحادثة. إلا أنني كُنتُ قد شربت كثيرًا جدًّا من الخمر. أكثر مما يجعلني أستطيع أن أجلس على عجلة القيادة. إذًا كان بإمكاني أن أحضر كأسًا أخرى. أردتُ أن أذهب إلى البوفيه، لكنني ظللت واقفة بجوار هذا الرجل كأنني مثبتة بمسمار. ذلك الرجل، الذي عاد لرغبته في الفرار قائلًا:

– لقد سألت الجميع بالفعل؛ لكن ليس بإمكان أحد أن يصطحبني معه. ربما كُنتُ أستطيع أن أطلب تاكسي، لو لم تكن تكلفته باهظة إلى هذا الحد.

ابتسم في أثناء ذلك. بدا أنه لا يتصرف على هذا النحو تمامًا، وهو ما بعثني على الهدوء بطريقة غريبة. وعلى الرغم من هذا، فقد أثار هذا الأمر أعصابي في الوقت ذاته. فقد كان صبره وإيمانه بالقضاء والقدر وبطؤه يستفزني. وشيئًا فشيئًا، لم أعد أطيق حتى حذاءه. كان يرتدي حذاءً رياضيًّا رخيصًا للغاية. لم يكن هذا الحذاء حتى باليًا بما يكفي لوجود أي سبب شخصي لارتدائه. كان باستطاعتي أن أركله. كم وددت أن أعضه، من أجل فقط أن أنهي حديثنا. (لكن علاقتنا لم تكن قد وصلت بعد إلى حدٍّ بعيد هكذا). لم أحتمل هذا طويلًا. فأطبقت يدي بحزم على حقيبة "اللاب توب" التي أعلقها على كتفي (والتي لم ألحظ إلا حينها أنني لم أخلعها عن كتفي لحظة).

تساءل:

– إلى أين ستذهبين؟

(وهو ما كان من الممكن تخمينه حينها).

كانت وجهتنا واحدة. أي أنني لست مضطرة على أقل تقدير للقيادة.

وبعد مشاهد وداع سريعة في وقتٍ لاحق (حيث لوَّحت بيدي في الغرفة شبه المظلمة بصورة عابرة لـ"ساندرا"، التي كانت ترقص مع نفسها بطريقة غير متقنة أسفل قرون الحيوانات المعلقة. لم أبحث حتى عن "توبياس". وهو الأمر الذي سوف يؤلمني أيضًا؛ ولكنه لن يغير شيئًا كذلك). وجَّه الرجل سيارة "فينسنت" للخروج من مخرج موقف السيارات وجعل "الجي بي إس" في السيارة يدله على الطريق إلى المدينة التي نشأ فيها، والتي غادرها - كما اتضح - قبل شهور قليلة من انتقالي إلي هناك للدراسة. (أي إننا لم نلحق ببعضنا بعضًا طوال حياتنا تقريبًا. أو أننا سنسعى لأن نرى الأمر هكذا فيما بعد).

قاد الرجل بالسيارة في تركيز، وليس باسترخاء ملحوظ مثلما كان "فابيان" يفعل (الذي لم يكن يريد أن يُظهِر بذلك أي شيء على الإطلاق، حتى وإن كُنتُ قد اتهمته بهذا لوقتٍ طويل). بدا لي من المثير للسُّخرية أن أفكر في "فابيان"؛ فقط لأنني كان بجواري هنا نسخة أخرى من فئة "الصديق السابق". ولم أكن أريد بأي حال من الأحوال أن أتحدث عن "فابيان".

غير أنني لم يخطر ببالي شيء آخر خلافًا لذلك (فيما عدا بعض الملاحظات عن "جاك كيرواك"، التي كُنتُ أريد بالتأكيد أن أمتنع عن ذكرها). كانت أعصابي ثائرة للغاية من أن أنظر للشارع بتركيز، وكذلك أن أتنحنح بين الحين والآخر. وهكذا أخذت أحكي عن صديقي السابق "فابيان"، وبصفة خاصة عن خياله العاطفي، الذي واجهني به ببراءة

(أثناء علاقتنا أيضًا). وأروي أنه كان يدخل بانتظام في مراحل من العشق المتزايد، الذي لا بد أن يصادفه الشخص مرَّة أخرى – بعد انتهاء العلاقة بوقتٍ طويل – في كل علاقات الصداقة والذكريات الرقيقة المتعلقة بالشعور بالاستثارة الجنسية (وبينما كُنتُ أتحدث أيضًا، بدا لي ما أقوله من هراء أمرًا غريبًا، وكذلك غادرًا بـ"فابيان" المسكين، والذي حاول – حسبما تخيلت منذ وقتٍ طويل – أن يبقى مسيطرًا على شهواته وحياته). غير أن الرجل قال لي بجدية تامة:

– أجل. دائمًا ما كُنتُ أتخيل أيضًا أن هذا أمر في غاية التوافق. لقاء من جديد على أساس مستقر، وليس في أرض مليئة بالألغام منذ زمن طويل.

– والآن؟

– حسنًا. ألاحظ بصفةٍ خاصة في مثل تلك المناسبات كيف أن كل الأمور قد وقعت منذ وقت طويل، وكيف يمكن أن تقل أهمية كل شخص بالنسبة للشخص الآخر.

نظرنا إلى الأمام مباشرةً. مضت السيارة سريعًا في الظلام. كانت الشوارع شبه خاوية.

– لا.

قالها وأفكاره ما زالت عالقة بالعروس، وأضاف:

– لم أبالغ أبدًا في تقدير هذا الأمر. لقد التقينا في مدينة "كانتربيري" قبل وقت قليل من بدء دراستها لمدة عام في إطار برنامج "إيراسموس". صحيح، إنني زرتها هناك ذات مرَّة؛ لكن في الأساس كانت علاقتنا عبارة عن اتفاقات نتواصل بها من مسافة بعيدة. كان الاتصال التليفوني آنذاك

ما زال باهظ التكلفة. حسنًا، وعندما عادت، كان هذا وقت الهروب بالنسبة لي.

(بطبيعة الحال، سوف تحكي لي "ميلاني" فيما بعد أنها هي مَن أنهت العلاقة).

قبل أن يستطيع الحديث باختصارٍ بالغ عن علاقته السابقة، اعترضت حديثه بقولي:

– لماذا لم تحتمل إذًا البقاء طويلًا في حفل زفافها؟

لكنه كان يريد فقط ألا تفوته رحلته بالطائرة؛ فقد كان ينبغي عليه السفر في اليوم التالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

– هكذا فقط.

قالها مؤكدًا (مع أنني كُنتُ أنا الثملة، وليس هو).

ابتسمت ناظرة نحو الأمام عبر الزجاج الأمامي للسيارة، وتنحنحت، وبذلت جهدًا لكي لا أقول شيئًا عن "كيرواك". صمت هو أيضًا وأضاء مصابيح السيارة وأطفأها من جديد. حاولتُ أن أجعل منظر صفوف أشجار الصنوبر الموجودة على حافة الطريق، والتي لامسها الضوء، ينطبع في ذاكرتي. كانت هذه لعبة ألعبها بين الحين والآخر مع نفسي؛ حيث كُنتُ أركز على الأشياء الثانوية وأعقد رهانًا مع نفسي هل سوف أتذكرها في أي وقت. لقد كان تدريبًا تافهًا عديم القيمة؛ فمن غير الممكن التدرب على التمتع بذاكرة فوتوغرافية. لم يبقَ في ذاكرتي من بين كل هذه المحاولات سوى الشعور العبثي اللحظي بالشغف، الذي لم أنجح عن عمد في استثماره، والذي حسمت به مرارًا وتكرارًا مقاطع عديمة الأهمية من الواقع الذي أحياه.

أرشده "الجي بي إس" في السيارة بصوتٍ حازم إلى حدود السرعة المسموح بها. ارتجف وقلَّل السرعة. وعند تغييره سرعة السيارة لمس ركبتي. (لكن علاقتنا لم تكن قد وصلت بعد إلى حدٍّ بعيد هكذا). اعتذر. عدلتُ وضع ساقيَّ. عندئذٍ أخذ "الجي بي إس" في السيارة يحسب من جديد توقيت وصولنا. فاختصر في البداية مدة الرحلة. لكنه أضاف إليها فيما بعد قرابة الساعة ليقترب في النهاية مرَّة أخرى ببطءٍ بالغ من النتيجة السابقة. تأمل الرجل بعصبية هذا التطور. لم أستطع أن أكتم القهقهة.

– في مثل هذا الوقت لا يوجد زحام مروري.

قلتها من أجل أن أبعث الهدوء في كلينا.

– إن "الجي بي إس" به مشكلة في ساعته الداخلية فقط.

(أثناء ذلك كانت ساعتي البيولوجية بالفعل في حالة سيئة. أخذتُ مرارًا وتكرارًا أحسب بالتقريب ما تبقى من وقت الرحلة وأفكر في وجهتي وأتخيل أنني أصبحت بالفعل في البيت وأنني أجلس إلى مكتبي الآمن وفي فراشي الهادئ). لكن عندما مضى الرجل من جديد بشكلٍ أسرع متحديًا كل اعتراضات "الجي بي إس" في السيارة، حاولتُ أن أكبح جماحه. لم أكن أريد أن أخاطر بالتعرض لحادث؛ فليس من المهم تلك الدقائق القليلة التي قد نوفرها بذلك. أضفت بطريقة سخيفة:

– ساعتي تشير على كل حال إلى أن تلك الدقائق قد مرَّت بالفعل.

وأوضحت أنني قد جعلت الوقت في ساعة يدي مقدمًا. إنها خدعة، كانت تحقق نجاحًا مما كان يُثير دهشتي. لم يجعلني هذا في أي وقت منضبطة في مواعيدي، لكنني كُنتُ أستعجل نفسي بذلك على الأقل. إن مشهد عقارب الساعة المقدمة لم يفقد تأثيره، فقد كُنتُ أنا أيضًا أريد أن

أعرف بدقة كم عدد الدقائق التي خدعتني العقارب بها. وكان بإمكاني أن أشعر في الوقت ذاته بالسرور من أنني أصبحت بذلك في موضع يسبق حقيقة الوقت، الذي أحياه؛ فبذلك التلاعب الصغير يصبح لديَّ دائمًا قليل من الوقت.

كان الرجل على دراية بمثل تلك الأساليب.

– لكن أليس هذا بالأمر المؤسف؟ أن نضطر للتظاهر بأن وقتنا قد مضى بالفعل، من أجل ألا يفوتنا كل شيء؟ لا أقصد بذلك عمرنا، بل الدقائق القليلة ذات الأهمية. الحاضر بأكمله!

– لكنني بحاجة لهذا القسط القليل من الوقت، الذي يبدو ميتًا.

قلتها، وأضفت:

– هذه الدقائق البائسة السِّت هي الوقت المتاح لي، من أجلها سأضحي بالحاضر.

عندئذٍ فاجأني الرجل بالاعتراف العاصف، بأنه تارةً ما كان يصبح ناضجًا ويسبق زمنه، وتارةً ما كان يتأخر في إدراك الأمور.

قلت له:

– ومَن منا ليس كذلك؟

أصرَّ على رأيه بقوله:

– لكنَّ لذلك أشكالًا مختلفة.

وأخذ يعدد المرَّات التي انحرف فيها عما يُفترَض أنه الأمر المعتاد. ووضع كل منها في علاقة متناقضة في مقابل بعضهما بعضًا؛ فمثلًا وضع قدرته الخاصة منذ نعومة أظافره على عزف البيانو في مقابل فهمه المتأخر لنوع الموسيقى المستقلة "إيندي روك"، وانخراطه في العالم عندما كان تلميذًا في مقابل خموله السياسي في أثناء دراسته الجامعية، ونجاحاته

السريعة في دراسته الأساسية في مقابل ارتباكه قبل خوض الاختبارات، وذهابه للمرَّة الأولى عندما كان في الخامسة من عمره لقضاء العطلة في أحد المعسكرات في مقابل بقائه المستمر في المنزل حتى فترة ما قبل حصوله على الدبلوم العالي، وأيضًا زيادة مصروف جيبه بالاستعانة بالدروس الخصوصية منذ أن بلغ اثني عشر عامًا في مقابل رفضه المستمر أن يبدأ يومًا ما في كسب المال بطريقة لائقة. حيث كان يضيع وقته في كتابة مقالات نقدية في مجلاتٍ علمية متخصصة ذات تصنيف منخفض، وذلك من دون أن يحصل على مقابل. وكان يضيع وقته أيضًا في وظائف مقابل أجور زهيدة (في توزيع التذاكر لدى منظمي فعاليات ثقافية مختلفة) وفي قضاء فترات تدريب عملي في مقابل أجور أقل أيضًا (وقال إنه تقدم للالتحاق بآخر تدريب عملي فقط لأن عملية اختيار الملتحقين به اعتمدت على تميزهم الأكيد؛ ولم يكن قبولهم بالأمر السهل. واستفزَّه هذا وحمله بطريقة غريبة على قضاء فترة التدريب العملي الممل بشكلٍ مُجهد). كما كان يضيع وقته إلى جانب ذلك في الحصول على مؤهلاتٍ إضافية (فحصل إلى جانب ذلك على عديد من دورات البرمجة، وبدأ تدريبًا كوسيط لتسوية المنازعات، ولم يجد سبيلًا للخروج منه)، وفي إعداد مشروع رسالة دكتوراه، والذي لم يكن يريد أن يبوح بكثير عنه (سوى أن موضوعه يدور بشكلٍ ما عن النزعة "التحريفية"، وأنه يأمل في الحصول بهذا المشروع على منحة)، وكان يقضي وقته كذلك في الشعور - الذي يشمل كل شيء - بعدم تحقيق أي تقدم في ظل وجود كثير جدًّا من الإمكانيات.

اعتبرتُ هذا كله أمرًا عاديًا تمامًا ولا بأس منه، وأنه ظاهرة عرضية تميز جيلنا، وأنه أيضًا نتيجة لفترتي طفولتنا وشبابنا، اللتين قضيناهما في ظل

رعاية، كانت كما ينبغي. لم يعارضني في ذلك (على الرغم من أنه كان بإمكانه أن يحكي أيضًا شيئًا آخر، وهو ما سيحكيه أيضًا في وقتٍ لاحق.

في غضون ذلك، سوف يتعنَّت في وصف والده، الذي لم يكن يعرفه، بأنه "أحد معارفه عن طريق الصدفة". وذلك ليلتزم بالقواعد اللغوية، التي وضعها جَدُّه وجَدَّته. كما سوف يصف والدته المدمنة بأنها "شخصية ثانوية كانت تظهر في طفولته على فترات متباعدة وأنها ليست بالشخصية القاسية". وسيقول إنه لم يدرك أنها والدته إلا عند تشييع جنازتها. وهكذا سوف يبلور الأمر، حيث كان على استعدادٍ دائم للنظر لصدماته النفسية بشكلٍ يخفف منها). ولم يذكر لي سوى أنه قد نشأ عند جَدِّه وجَدَّته وكيف أنهما قد بذلًا جهدًا من أجل من أن يظلا مواكبين لأحدث التطورات في التربية والثقافة الاستهلاكية.

قال:

– لكنني عندما كُنتُ في روضة الأطفال، كُنتُ أرغب أن أصبح من المواطنين الأصليين لأمريكا، أي أن أكون من الهنود الحمر. وحتى اليوم لم أسافر أبدًا إلى أمريكا.

وأضاف:

– في الوقت الحاضر، ربما يُثير جنوب شرقي آسيا وفيتنام وجمهورية "لاوس" اهتمامي بشكلٍ أكبر. غير أنني أشعر بالخوف من أن يكون هذا كثيرًا أكثر مما ينبغي، وبعيدًا أكثر مما ينبغي، وخطيرًا أكثر مما ينبغي بالنسبة لجَدِّي وجَدَّتي. في حين أنه بإمكانهما أن يتفهَّما سفري للولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد زارها جَدِّي نفسه ذات مرَّة. هذا أمر على ما يُرام.

(لقد أخفى - في حديثه معي، أو حتى أيضًا في وعيه - أن جَدَّه لم يسافر إلى الولايات المتحدة بصفته سائحًا على الإطلاق، وإنما لأنه كان أحد أوائل الطلاب الألمان الحاصلين على منحة تبادل علمي، وأنه بعد عودته لم يبقَ في البلاد إلا بسبب أسرته، التي أسسها في وقتٍ مبكر، وأن جَدَّه وجَدَّته كانا يعتبران بسبب ذلك أفضل منه هو وأفضل حتى مما هو معتاد. أدركا خطر أنه قد يصطدم في في أثناء طريقه بتحدياتٍ لا يمكن مقاومتها، وأنه قد يختفي من حياتهما بما فيها من مشقة متزايدة ورتابة متزايدة في الوقت ذاته).

اضطررتُ أن أتثاءب. رمقني بنظرة وتوقف عن الحديث. نظرنا إلى "الجي بي إس" في السيارة ونظرنا إلى الخارج حيث الظلام. توقعت لسببٍ ما أن تنطلق ضحكاتنا معًا بشكلٍ مفاجئ. لقد هيَّأت نفسي على الأقل على ذلك. حتى إنني ضحكت قليلًا بالفعل. (ولم أكن أعرف بعد على الإطلاق أنني سوف أتوهم فيما بعد أنني قد فكرت في هذه الرحلة الأولى لنا معًا بالسيارة في الفيلم الأمريكي "عندما التقى هاري بسالي"، وأنني فكرت حتى في أن أحدثه عن الفيلم. وهو أمر لم يكن ليصبح فكرةً جيدةً. ليس فقط لأن الرجل يشعر بالنفور من أفلام الممثلة "ميج رايان").

- حسنًا. من الأفضل أن أمضي.

قالها ونظر إلى الشارع. ربما كان من شأن حديثه أن يبدو مهذبًا، عندما أضاف بعد قليل:

- لا. أنا سعيد جدًّا بالفعل أنكِ اصطحبتني معكِ. هكذا سأدبر أمري أيضًا. إن ظل الإنسان لا يتزحزح عن مكانه، فعليه على الأقل أن يسافر في إجازة.

نظرتُ إلى حذائه الرياضي وإلى "الجي بي إس" في السيارة وفكرتُ في "كيرواك". وانطلقتُ في الحديث عن أمريكا. عن أشواقي ورحلاتي. عن النص والحياة وتحويل الحياة إلى نص. عن "كيرواك". فهذا كان موضوع بحثي. (على الرغم من أنني كُنتُ أعرف، أنني سوف أكره نفسي بسبب ذلك. كُنتُ أعرف حتى أن موعظتي ستبدو لي فيما بعد أكثر سخافةً، وأكثر انغلاقًا. ولم أكن أعرف أن هذا لن يكون له في نهاية الأمر أي تأثير مطلقًا).

حاولتُ أن أتجاوز الأمر سريعًا. فأخذت أثرثر دون توقف، كما لو أنه كان من الممكن تحضير روح هذا القديس المسؤول عن تدمير الذات على أكمل وجه بالدخول في حالة انفعالية شديدة قدر الإمكان. دارت تفسيراتي من جديد حول كيف كتب "كيرواك" مسودات رواية "على الطريق" على مدار سنوات طويلة، وكيف دوَّنها بعد عمليات بحث مكثفة (إن كان من الممكن تلخيص كل رحلاته وصداقاته وحياته بأكملها في هذه السنوات باستخدام هذا المفهوم) في نشوة كتابية منقطعة النظير، وكيف نقحها بعد ذلك من جديد بمشقة طوال سنوات، وكيف طوَّر فيما بعد نظريته "النثر التلقائي".

قلت:

– بحثي لا يدور بالطبع حول سؤال، إلى أي مدى استلزمت الأسابيع الثلاثة التي مر فيها بنشوة الكتابة، وجود عشر سنوات من الاستعدادات وعمليات التنقيح والعكس. وذلك فقط لأنني ليس لديَّ منهج يمكن الاستعانة به لتأويل ذلك. لا أود أن يكون بحثي من منظور السيرة الذاتية أو التعلق بالحسابات الزمنية على الإطلاق. حتى وإن كان النص يدعو

لذلك. فـ"نيل كاسادي"، والذي جسدته في الرواية شخصية "دين موريارتي" في رواية "على الطريق"، يريد أن يعيش كل شيء في وقتٍ واحد.

وبالمناسبة فهذا هو المنظور الوحيد الذي استطعت أن أدرك به سبب افتتان "كيرواك" بهذا الشخص. يرجع سبب عبقرية "موريارتي" إلى رفضه لأي إدارة رشيدة للوقت؛ حيث كان يحاول أن يتخطى الوقت. أي إن هذا لم يكن أداءً لعديد من المهام في الوقت ذاته. إنه جنون. لم يستمر "كاسادي" في منهجه هذا أيضًا لوقت طويل، حتى ولو كان النص قد انتهى قبل ذلك بالفعل.

وقبل وقتٍ طويل، كان "الجي بي إس" قد أعلن من جديد أننا مضينا في الطريق بسرعة بالغة، بينما ما زلت ألقي محاضرة في صخب عن استراتيجيات تأليف الأساطير بمفهوم "هانز بلومنبيرج":

– إذًا، لا يمكن معالجة هذا الكتاب بشكلٍ مستفيض للغاية.

بدا الرجل كأنه كان بالفعل منهكًا، وتساءل:

– عن ماذا يدور الموضوع في الأساس؟

(بدا متحيرًا بشكلٍ جاد. وهذا لم يثر دهشتي. إلا أن قدرتي على التخيل لم تستوعب أنه ربما لم يفطن إلى اسم "كيرواك" بشكلٍ صحيح).

– يدور حول تصوير وعرض السذاجة...

نظر إليَّ من الجانب.

– إذًا هذا هو موضوع بحثي.

قلت له إنني أعرف جيدًا أن هذا الموضوع سيختفي سريعًا من حياتي وأنني مضطرة إلى إنجازه وأنني أعرف أيضًا أن كل ما أشعر به من توتر أمر مبالغ به. فما الذي يجب عليَّ أن أخشاه (خلافًا لأن تفقد دراستي

الطويلة بأكملها فيما بعد قيمتها بسبب أنني لم أتمها. وربما أصاب بنوبة قلبية قبل حلول الموعد النهائي لتسليم البحث بقليل؛ ولكن حينها سوف يؤجلون لي مهلة تسليم البحث بالتأكيد). لا، أنا أعرف أن أكبر كارثة محتملة تنتظرني هي أن أحصل على درجة متوسطة. وهكذا أخذت أثرثر وأتحدث بصورةٍ أسرع وأسرع. وفي الختام، شغَّل الرجل "سي دي".

"هل سيعرفونني، يعرفونني، يعرفونني الآن-آن-آن-آن-آن"..

هكذا علا صوت أغنية الفنان الألماني "كلاوس نومي" مدويًا من السماعات. اضطررت أولًا أن أوضح له أن هذه ليست سيارتي. تفحَّصتُ الـ"سي دي" الأخرى الخاصة بـ"فينسنت" والموضوعة في تابلوه السيارة. كانت لفرقة "بت شوب بويز" ولـ"ساشا" ولـ"تيليمان".

تساءل:

- "تيليمان"؟

- و"هاندل".

حوَّل المؤشر ليفتح الراديو. تبدَّد شعوري بضيق الوقت الصغير والكبير أيضًا بسبب الهجمات الإرهابية التي ورد ذكرها في نشرة الأخبار في الراديو. (وكُنتُ أعرف، كيف سأتذكر هذه الرحلة الليلية. لقد وقع شيء ما، في مكانٍ آخر بطبيعة الحال. فالأشياء المهمة دائمًا ما تقع في مكانٍ آخر. نحن نعرف جيدًا أين كنا، عندما علمنا بانفجار "تشرنوبل" وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، والـ"تسونامي" الذي وقع في أحد أعياد الكريسماس. لم نكن أبدًا في قلب الحدث، بل كنا أمام إحدى وسائل الإعلام). ورد في نشرة الأخبار وجود عديد من السيارات المفخخة وقتلى

وجرحى كانوا موظفين في أحد الفنادق وسياحًا في مصر. وهنا طاف تاريخ العالم في الأفق الخاص بي.

تأرجحت السيارة واستدارت جانبًا. كدنا نلمس الحاجز المروري.

- أنت ما زلت تفكر فيها!

أفلتت الجملة من لساني. (اندهشت لأن علاقتنا لم تكن قد وصلت بعد إلى حدٍّ بعيد هكذا). خلصنا الصوت الحازم المنبعث من "الجي بي إس" في السيارة: **"رجاءً استدر بالسيارة! استدر في أقرب فرصة متاحة!"** من شعورنا بالفزع. تنفس بعمق وعاد يوجه السيارة في الحارة المرورية.

- المكان، الذي رحل إليه الإرهابيون ذات مرَّة، أكثر أمانًا الآن بالتأكيد.

قالها محاولًا أن يكثر من الحديث ليتجاوز شعوره بالذهول (لكن من المنتظر أن يقع بعد ذلك بأشهر قليلة الاعتداء القادم في المكان ذاته. لكن على كل حال سوف تغير "ميلاني" في آخر لحظة خطط سفرها في شهر العسل ولأجلٍ طويل لن ترغب ثانية أبدًا أن تسافر إلى مصر).

ثم جاء مخرج الطريق وبلغنا وجهتنا. (كان الأوان قد فات أكثر مما ينبغي لأن أسأله عن اسمه). نزل من السيارة أمام أحد البيوت المتلاصقة المتشابهة والواقع على حافة الطريق، حيثما كان جده وجَدَّته القلقان، وكذلك حقيبة سفره الموضوع بها أمتعته بانتظاره (وسيقول عن شعورهما المُريع بالخوف إنه تافه جدًّا لدرجة أنه قد يستطيع أن يصطحب ذلك الشعور معه في طائرته دون أن يلاحظه. وأن ذلك الشعور لن يتنامى من جديد إلا بمرور الطائرة فوق المحيط الأطلنطي، وسوف يعذبه حتى هبوط الطائرة بسلام).

أشرقت الشمس بالفعل. جلست إلى عجلة القيادة في السيارة وانطلقت بها. سألت نفسي بعد أن سرت بالسيارة أمتارًا عديدة، هل وضعتُ ناقل سرعات السيارة الصحيح. لكن لفت نظري بعد أن مضيت بالسيارة لأقل من مسافة كيلو متر أن الرجل كان قد جذب فرامل اليد من أجل أن يتوقف لوقتٍ قصير.

وصل إليَّ بعد ذلك بأسبوع إيميل من شخص يدعى "يان" في الساعة الثالثة صباحًا (كُنتُ في تلك الأثناء أعمل بالفعل). كانت الرسالة تحمل عنوان «تحيات من "على الطريق"». لم أستطع أن أعرف مَن يكون المُرسِل، وذلك على الرغم من أنني لم أنسه أو أنسى حذاءه الرياضي على الإطلاق. فكثيرًا ما كُنتُ أسترجع محادثاتنا وأحاول فيما بعد أن أغيِّر التفاصيل وأُرمِّمُها، لدرجة أن بدا لي في أثناء ذلك أن ثرثرتي بأكملها كانت بحاجة إلى التصحيح. ولذلك كان من الأفضل أن أركز انتباهي في النهاية، وأخيرًا على الحوار المجهد مع "كيرواك"، فلم يكن من الممكن على الأقل أن أجري فيه تعديلات إلا حتى موعد تسليم البحث. (وعلى الأقل، فإنني على كل حال كُنتُ في غنى عن الشعور بالانزعاج من أي شيء تجاه "كيرواك". حتى وإن كانت نصوصه قد أخذت تبدو أكثر فأكثر – بسبب ماضيها – موجهة لي مباشرةً. كان تصورًا واهمًا، أقدمت عليه بلا تردد، طالما أنه كان يسهل عليَّ العمل).

شعرت بالسرور – ولم أكن قد شعرت (بعد) بالابتهاج – عندما علمت أن "يان" قد حصل على إيميلي (إلا أنني توقعت بالفعل أن تبادلنا للإيميلات في البداية سوف يضيع عليَّ وقت العمل ويعزز بصعوبة قدرتي على التركيز). قال لي إنه قرأ في غضون ذلك لـ"كيرواك". (سوف يشرح في وقتٍ لاحق بشكل أدق أنه وجد رواية "على الطريق" بـالصدفة بين كتب الجيب غير الرائجة الموجودة في مكتبة بيع الكتب في المطار. وأنه لم يفهم إلا في هذه اللحظة ما الذي كُنتُ أتحدث عنه في الحقيقة. وعلى العكس من ذلك، فإن عديدًا من المسافرين معه قد اعتبروا للوهلة الأولى – بينما كان يجلس هناك وهو يحمل كتابه في يده متشنجًا – أنه نفسه قد بدا في نهاية الرحلة الطويلة مثل الشكل المعروف للمتشردين من "الهيبز" المتجسد في الكتاب).

بحثت في شبكة الإنترنت عن "يان موللر"، ووجدت نتائج كثيرة جدًّا أكثر مما يجعلني أعرف عنه أي معلومة. (لكنني اعتقدت أنني أتذكر أن "ميلاني" قد ذكرت اسم شخص يدعى "يان" قبل أو بعد الفترة التي قضتها في إنجلترا. حينها لم يثر هذا الشخص اهتمامي بشكلٍ كبير لدرجة أنني نسيته سريعًا). ولم أكن أعرف بالتأكيد أي شيء عن إنسانة تدعى "تينكا"، والتي كان "يان" يريد في الحقيقة أن يقابلها في "سان فرانسيسكو" (والتي لن يدور الحديث عنها أيضًا بعد ذلك إلا بشكلٍ عابر للغاية). ولم أكن أعرف حتى أن جده – حينما كان ملتحقًا بالمدرسة بالقرب من "نيويورك" – كان شاهدًا ساذجًا على فترة نشوة الكتابة التي مرَّ بها "كيرواك".

ومع ذلك فقد كان "يان" يتواءم بشكلٍ جيدٍ جدًّا مع ما اعتقدته من أوهام لمحاولة تفسير الظروف المحيطة بـ"كيرواك" (والذي لم أكن لأكتب

ربما سطرًا عنه أبدًا، لو كُنتُ قد صادفت رواية "على الطريق" في التوقيت الصحيح، أي عندما كان عمري ستة عشر عامًا في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال. حينئذٍ لم يكن ممكنًا أن يصيبني أي شيء بالإحباط بسرعةٍ هكذا. من المؤسف أن الكتاب لم يصل إلى يديَّ إلا بعد ذلك بسنوات، وذلك عندما أصبحت بالفعل أُمنِّي نفسي بكثير جدًّا من مُطالعة هذا النص، وعندما تطوَّر بشكلٍ بسيط - من ناحيةٍ أخرى - استعدادي لأن أعكس جيدًا ما توقعته. لكن في نهاية الأمر أصبح من الممكن أن ينشأ لديَّ شعور بالاضطراب بصورةٍ كافية لأن يكون لديَّ شيء أنجزه. وعندها أصبح الوقت متأخرًا أكثر مما ينبغي).

ولوقتٍ طويل أصبحت أرى "كيرواك" في كل مسافر يركب السيارات متطفلًا، وفي كل شخص مخمور على حافة الطريق. فكانت كل سيارة قديمة، وكل محل لبيع الآيس كريم يذكرني بـ"كيرواك"، وحتى كل المطاعم البوذية فـ"كيرواك" كان منشغلًا بالبوذية. وحتى عند تأمُّل الأجزاء النظرية - التي كُنتُ أستحضرها للاستشهاد بها من أجل أن أستبعد العلاقات المتكاثرة والموجودة في مملكة التناص بشكلٍ أقوى - كان من الممكن أن أوفق بدقة بينها وبين جوانب رواية "على الطريق". فقد بدت أنها تشير مباشرة إلى نص حياتي وقراءتي وكتابتي.

والآن سافر "يان" هذا في سيارة مُؤجَّرة عبر الولايات المتحدة الأمريكية مصطحبًا معه الكتاب ومتناولًا زبادي مُجمَّدًا و"دونتس" التفاح، بينما كُنتُ أكتب وأكتب وأكتب. وبينما يتنامى ويتنامى مسار ذلك الملف - الذي لم تستطع هوامش الصفحة أن توقفه - كأنني كُنتُ سأستطيع بذلك أن

ألحق بالأستاذ "كيرواك" في سباق ماراثوني للكتابة على لوحة المفاتيح.
لكنه تُوفِّي منذ وقت طويل.

2

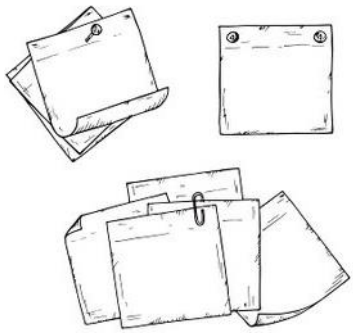

"أنت لا تتحرك. أنت لن تتحرك. شخص آخر شبيه لك، بديل لك كالشَّبح ضميره يقظ، يؤدي بدلًا منك الحركات التي ربما لم تعد تقوم بها. فينهض، ويَحْلِق، ويرتدي ملابسه، وينصرف. تجعله أنت يقفز في بئر السلم ويركض في الشوارع، ويلحق بالباص طائرًا، ويصل إلى باب القاعة في الوقت المحدد لاهثًا ومنتصرًا".

"جورج بيريك" - "الرجل النائم"

أعلن العمل في الأرشيف عن عودته من جديد. غير أنه لم يكن هناك في صندوق الوارد لإيميلي أي اقتراحات مواعيد، وإنما كان بداخله معلومة عن

خدمات الوجود لمُطالعة الكتب في قاعة القراءة. (فاتتني المُكالمة التليفونية في الصباح الباكر بسبب استغراقي في النوم). بحثتُ في الموقع الإلكتروني للأرشيف عن اسم مَن اتَّصلت بي. وفي أثناء ذلك، وجدت عن طريق الصدفة اسمي أنا؛ فقد أورد الموقع ذكري بالفعل بوصفي متدربة (وسوف أظل على الأقل لوقتٍ طويل هكذا في ذاكرة تخزين الموقع).

عاودتُ الاتصال بها. (وظننت في اللحظة الأولى أنني سأسمع في الطرف الآخر من الاتصال صوت "الأنا الثانية" لي، والتي أنهت هناك تدريبها العملي، وفقًا لما كان مخططًا). وعلى كل حال، فإن أحدًا لم يكن ينتظرني بعد في العمل. لم أتفاوض حول تحديد أي ميعاد جديد، وإنما اكتفيت بأن أوضح أنه لا ينبغي توقع حضوري في الوقت الحاضر. (كُنتُ أعرف بالفعل، أنه يجب عليَّ أن أعتذر عن هذا التدريب العملي؛ لكنني لم أكن أريد أن أزيد من عبء قدرة الأرشيف على استيعاب الرسائل التليفونية، أو أن أحمِّل قدرتي على اتخاذ القرارات أكثر من وُسعها).

على كل حال، كانت كل الأمور تفوق طاقتي بكثير. فقد أعلنت إدارة شئون المنزل عن وجود أعمال بناء في الدور الأرضي، والتمست إخلاء البدروم. دوَّنتُ هذا الموعد على الفور، وعلَّقتُ قصاصة الورق أعلى مكتبي.

وحملت قصاصة ورق أخرى شعوري بالقلق على جَدِّي وجدتي. حكى لي والدي ووالدتي ببراءة (وبمبالغة في الوصف لها تأثير أكبر) أنهما انتويا في الحقيقة ألا يرويا لي أي شيء عن حالة جدَّتي حتى أنتهي من بحثي. وبذلك لم أستطع حتى أن أظل في الأسابيع القليلة الهامة – أي ذلك الوقت الزائد على الحد قليلًا الذي أتيح لي – خالية من مشاغل الحياة.

ظللت طوال المساء – الذي كان وقته ثمينًا – غير قادرة على التركيز، فقد كُنتُ أشعر بالخوف على جَدِّي وجَدَّتي. ولكن عاودني بعدها على الفور الشعور بالخوف على بحثي. وبدلًا من أزور جَدِّي وجَدَّتي، أخذت في كل مرَّة أرفع فيها نظري عن "اللاب توب" أتطلع أمامي إلى صورة لجَدَّتي، وأصبحت عيناي تقرآن رقم تليفونها بصورة تلقائية هكذا لدرجة أن مخي كاد يحفظ الأرقام. وفي النهاية، أصبحت قصاصات الورق وأوراق أخرى تتزايد بالأعلى.

كتبت. أخذت أعد بانتظام نسخًا إضافية، وذلك قبل أي تعديل أقوم به. وبهذا النحو فقط استطعت أن أختصر الوقت. فكان يجب عليَّ أن أنسخ نسخًا احتياطية لكل ما كُنتُ أريد شطبه، أي حتى هذا الذي كُنتُ أريد شطبه. (وذلك في وسيط تخزين عتيق بالفعل وفي شكل تنسيقي لمعالجة النصوص، لن يعود بإمكاني بعد ذلك بسنين قليلة أن أدخل عليه). ولو لم أفعل ذلك، لما استطعت أن أمحو أي كلمة.

لم يُعلن العمل في الأرشيف عن عودته مرَّة أخرى؛ لكنني كُنتُ ما زلت أفكر أكثر في "الأنا الأخرى" لي، والتي تُعِدُّ – في عالمٍ مُوازٍ – ملفات وتُفهرسها وتتلقَّى تكليفات بإجراء عمليات بحث. وددت أيضًا لو أرسلت تلك "الأنا" إلى جَدَّتي. ولو جعلتها تفرغ محتويات بدرومي. ولو جعلتها تتصل بـ"ميلاني" تليفونيًّا ("ميلاني" التي لن أراها ثانيةً لوقتٍ طويل، حتى يتعين عليها فجأةً أن تنتقل للسكن عندي. بصحبة أبنائها، ولفترة من الزمن).

كانت "ميلاني" قد أرسلت لي بطاقة بريدية من "زاورلاند" (وسوف تحكي لي بعد فترة طويلة أن أحدًا قد نسي في حفلة زفافها خريطتي

طريق. وفي اللحظة الأولى لشعورهما بالصدمة من ذلك لم يخطر ببالهما - عند قضائهما لشهر العسل وفقًا للخطة البديلة - شيء آخر سوى أن في هذا إشارة لشيءٍ ما. ولم يتبقَ لــ"ميلاني" من مصر سوى ذكرى خططها للسفر إلى هناك وتخيل أن هناك ظلًا مخيفًا لها يمُرُّ بسرعة وبعصبية عبر الشوارع الضيقة التي تغمرها الشمس، ويصل إلى الشاطئ الهادئ الذي تُفرض عليه الحراسة، ولا يشعر بالأمان حتى في بوفيه الفندق. كان من الصعب أن يقع لهما هذا في "زاورلاند". ولن يغير الكشف عن الجماعة الإرهابية في منطقة "أوبرشلي دورن" من هذا الأمر شيئًا بعدها بعامين).

شيئًا فشيئًا، أصبح الحائط خلف مكتبي مكسُوًّا بالأوراق. نسيت أن أدفع فواتير. فاتتني أفلام وحفلات موسيقية. وفاتني العمل المسرحي لــ"ميريت" الذي رتَّبت نفسي له لوقتٍ طويل. كانت لحظات صادقة فريدة من المشاركة في عرضٍ فني، حظي بإشادة مقبولة. من حين لآخر، كُنتُ أتصل تليفونيًّا أيضًا بأصدقائي وأمنع "فينسنت" من أن يتهمني بأنني لا أريد في الحقيقة إنجاز أي شيء على الإطلاق، حتى تركت هذا الأمر أيضًا لــ"الأنا الثانية" لي. وتركت لشبيهة أخرى لي أداء الأعمال المنزلية وتمارين الظهر البدنية.

انقضت المهلات الأولى للتقدم للتدريب العملي والمنح. لعلَّ آخرين قد انتهوا من فترات تدريبي العملي وأدوا دورات اللغة المكثفة ومنح

الدراسات العُليا الخاصة بي. لقد بذلت قصارى جهدي لأصبح فخورة بكل فكرة لم أبددها في الانشغال بهذه الفرص المستحيلة.

ما زلت أتناول حصتي اليومية من شوربة البسلة، وما زلت أقرأ وأسمع الأخبار. صرفت تلك الجرعة اليومية من أخبار المحليات والكوارث والموت والدمار والرياضة والطقس انتباهي بكل تأكيد عن الأزمات التي مررت بها عند صياغة البحث، وقللتها بشكلٍ ملائم. ما زلت أسمح لنفسي بفترات توقف للاستراحة. ما كان عليَّ سوى أن أحترس من "أنا ثانية" مختلفة تمامًا ومسترخية بشكلٍ كبير جدًّا ولديها ميل لأن تتخطى الأسابيع المقبلة في كل لحظة، لا يراقبها فيها أحد، وتفكر بالفعل في الاحتفال. أجل، سوف أرتاح. سوف أرتاح. ولكن قد حان وقت أن أجتهد، وأن أتشكك – على الرغم من ذلك – كل يوم فيما خطَّطتُ له.

ما زلت أكتب إيميلات طويلة أرسلها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أصوغها الواحد بعناية أكثر من الآخر، وهو ما كان ينبغي ألا يكون ملاحظًا قدر الإمكان. وما زلت أضيع كثيرًا من الوقت في انتظار أن تصل إليَّ إيميلات من الولايات المتحدة الأمريكية. عندما كان يصل إليَّ إيميل، فإنه كان يستحق كل الوقت الذي انتظرته فيه. حتى وإن كان "يان" يزعم في كل مرَّة من جديد أنه لم يعايش شيئًا مميزًا (رغم أنه قال إنه "رأى من جديد منظرًا طبيعيًّا خاويًا للغاية، رائعًا بالتأكيد دون شك"). لكنه كان يكتب لي. وكُنتُ أكتب له ما لم أكتبه تمامًا. كتبت عن أمريكا: "من المحتمل أن يكون "كيرواك" قد مدَّ عملية العمل في رواية "على الطريق" – والتي كانت عملية طويلة بصورة مزعجة – بشكلٍ إضافي، عندما أدرك أنه سوف يقضي القليل المتبقي من حياته في الفشل في تحقيق

نجاح كبير في هذه الرواية. لكن بالطبع أيضًا فإنه ليس من الصائب أن يفشل الإنسان دائمًا ولا يحقق نجاحًا".

"وبالطبع" كتبتها (حتى وإن لم تكن علاقتنا قد وصلت بعد إلى حدٍّ بعيد هكذا. ولكن كان علينا أن نتحرك بشكلٍ أو آخر في هذا الاتجاه). وأضفت: "فإن رواية "على الطريق" تعد قصة عاطفية أيضًا. دون إضافات متأثرة بالآخرين" (هكذا كتبت). لم يكن تعظيم شأن صديقه الكاتب "نيل كاسادي" لينجح هنا، ولن أكتب هذا بهذه الطريقة طبعًا في بحثي.

ركزتُ انتباهي. وأطاعت وحوشي اللغوية أوامري على الفور. فتجمَّعت أكوام صغيرة من الرموز غير المتناسقة تمامًا؛ لكنها قابلة للاختراق. ودافعت عن حقها في أن تُفسَّر؛ ولكن دون أن يتزعزع معناها بشكل واضح.

ومع ذلك لم يكفِ الوقت أبدًا. فذات ليلة (كُنتُ قد عملت طوال أربع ساعات في نصف صفحة وتصببت عرقًا وأصبت بالغثيان من شرب كثير من القهوة) داهمتني الرغبة بأن أمنع الوقت من الحركة وأن أمسكه بشدة وأن أمدده؛ فأضيف على الأقل خمسة أيام إضافية إلى الأسبوع بحيث أحشر يومين خاليين بين الثلاثاء والأربعاء ويومًا بين الأربعاء والخميس، وأحشر من جديد يومين بين الخميس والجمعة. وبعد ذلك، يمكن أن تبدأ عطلة طويلة لنهاية الأسبوع. اقتنعت للحظة أن هذا أمر ممكن. وأنه لا بد أن يكون ممكنًا.

قبل ذلك بثلاثة أعوام، كُنتُ قد شاركت كضيفة متدربة في إنتاج عمل مسرحي موسيقي. وذلك لمدة شهرين نسيت فيهما أن الجامعة ما زالت تقع قبالة دار الأوبرا ولم تنتقل مطلقًا إلى عالمٍ آخر. كُنتُ أقضي أيامي في المسرح. وفي الليل فقط كُنتُ أستمع إلى جهاز المجيب الآلي الخاص بي وأقرأ الأخبار وأبحث في الثلاجة الخاوية دائمًا عن طعام. وفي صباح اليوم التالي على الفور، كُنتُ أسرع من جديد للبروفات. كُنتُ أتواصل مع "فابيان" كتابيًا. ولم نكن نرى بعضنا بعضًا إلا في عطلة نهاية الأسبوع.

كان ذلك بين الحين والآخر؛ لأن كل شيء في دار الأوبرا كان مهمًّا بلا منازع. كُنتُ هناك بوصفي مجرد بديلة لـ"ميريت" التي تركت موقعها في التدريب العملي لصالح ورشة عمل التمثيل. لم يكن لديَّ أيضًا مُتَّسع من الوقت، حيث كُنتُ أسعى حينها بالفعل أن أبدأ أخيرًا في رسالة الماجستير. إلا أنني كُنتُ عالقة في وظيفتين ووظيفة من دون أجر تسمي "مشروع ثقافي لمجموعة من أفراد الكومبارس".

على كل حال، كان هذا كثيرًا جدًّا بالنسبة لأي شخص. لم يكن الأمر متعلقًا بشكل أو آخر بشيءٍ من الضغط (هذا ما ظننته)، ولذلك شرعت في هذا العمل. فانغلقت المصيدة. (ورغم كل شيء، ساعدني هذا التدريب العملي على أن أنسحب من **المشروع؛** ولكنه جعلني أيضًا أفقد للأسف الوظيفة الأكثر جاذبية من بين كلتا وظيفتيَّ).

تمثل عملي في تدوين سير البروفات في محضر وتسجيل تتابع الخطوات والوقفات ومعاونة المخرج المساعد في الاتصال بفريق العمل من أبطال الأدوار الرئيسية والثانوية، وأن أكون باستمرار على استعداد لتدبير أو مناقشة أو إضافة أو إنجاز أي شيء، إذا كانت هناك حاجة لذلك (كثيرًا ما كان هذا الشيء يصبح في اليوم بعد التالي مهملًا).

أي إنني كُنتُ أَقضي أغلب الوقت في الاندماج في هذا الوضع وفي المساهمة في أداء أعمالنا المهمة حتى أُصاب بالإعياء. كُنتُ قبل ذلك أمرُّ يوميًّا على دار الأوبرا هذه؛ فقد كُنتُ أسكن قريبًا منها بدرجةٍ كافية لأن تهب عبر نافذتي – عندما يكون الطقس دافئًا – أصوات من غرف إجراء البروفات، لكنني لم أدرك أنه يوجد هنا أحد العوالم الرائعة. فقد قابلت هنا نجومًا مغمورين ودودين، كانوا يحضرون للبروفات في موعدٍ مضبوط، مرتدين بلوفرات منقوشة وجينز أو جونلات متوسطة الطول ويتفاهمون متبادلين اللغتين الإنجليزية والألمانية ولغاتٍ أخرى عديدة بمهارة ويوجهون السباب في غرفة تغيير الملابس و"الكانتين" تارةً للمايسترو، وتارةً للمخرج.

تلقيت منذ البداية تحذيرًا من مبالغات المخرج. ولم تهدأ تلك التحذيرات طوال فترة عملي بأكملها. في الحقيقة، كان هذا الرجل المتطرف يُجري بروفات بشغف على التوقيت المثالي لأداء الحركات، حتى بما في ذلك أصغرها (وكان لديه على كل حال مُتَّسع من الوقت وجعل الآن مسيرته المهنية الدولية تختتم على مسارح ألمانية ذات مكانة متوسطة). سمعت أيضًا في "الكانتين" أنه كان لا يثق سوى في دقة أداة ضبط الإيقاع الخاصة به وأنه كان يتشاجر حتمًا مع كل مايسترو.

حدث هذا عندما تسلَّلت إلى المسرح موسيقى أكثر هدوءًا لأداء البروفات، وعندما وجد مدير الموسيقى العامة منذ وقت طويل سبيلًا ليتجاهل باحترام كل ما يعوق سرعة الإيقاع. وعلى كل حال، عاد المخرج مرَّة أخرى ليتولى مقاليد الأمور؛ بدءًا من حفل الافتتاح، وبدءًا من العرض المسرحي الخامس - على أقصى تقدير - ستتحقق بشكلٍ تلقائي رغبة مَن يؤدون الأداء الحركي الراقص في تحقيق الكمال.

إلا أن السُّمعة المعروفة عن المخرج بأنه يستغل الآخرين لم تكن ظالمة له. ففي أثناء إحدى البروفات الأولى على خشبة المسرح ذات مساء قبل العرض المسرحي الأول بأسبوعين، لم يرُق له عمله كثيرًا لدرجة أنه طالب بمزيد من الوقت. فأسرع كبير المعالجين المسرحيين خارجًا من مقصورة المسرح وهو يهز رأسه مستنكرًا وعاد مع مديرة المسرح، والتي أظهرت ابتسامة في غاية الارتياح.

انتظر كلاهما في صبر، حتى أوقف المخرج البروفة ليختفي معهما في غرفة مجاورة. وقبل حتى أن يتمكن المطربون والعازف على البيانو ومنسق الأداء المسرحي والمساعدون والتقنيون وأمينات مخزن المسرح والملقنون والمتدربات من معرفة كيف يستطيعون الاستفادة من فترة الاستراحة غير المتوقعة، عادت إدارة المسرح والإخراج من الجلسة الطارئة في حالة انسجام. لكن مديرة المسرح جلست عندئذٍ في ساحة المسرح وابتسمت بتفاؤل في اتجاه خشبة المسرح. وأومأ المخرج برأسه في رضا. ولكن خطر بباله فجأة أن خطة مواعيده لن تسمح على الإطلاق بتأجيل موعد العرض المسرحي الأول.

- إممم، إذًا...

رفعت مديرة المسرح يديها.

لكن المخرج كان مُصرًّا على الوقت الإضافي الذي خاض مساومة من أجله. وبدلًا من أن يواصل النقاش، التفت نحو خشبة المسرح وجعل المشهد يُعاد بكل هدوء. حركةً تلو حركة، وخطوة تلو خطوة. ببطء نحو الأمام، ومن جديد نحو الخلف. ومرَّةً أخرى من الأمام، ومرَّةً أخرى من الخلف. وهكذا أربع وخمس وست مرَّات خلال المشهد التالي.

أخذ الوقت يمُرُّ أكثر فأكثر حتى آخر الليل. اجتهد المطربون وبذلوا أقصى ما في وُسعهم من إعادة لأخرى، من أجل أن يصبح مسموحًا لهم في النهاية بالذهاب إلى المنزل. غير أن ما حسبوه لم يتحقق. حاول بعضهم تحقيق ذلك بالامتناع عن أداء العمل وبدؤوا - ليس فقط في التقليل من شأن ما يؤدونه من غناء - ولكن أيضًا بالاكتفاء بالإشارة فقط إلى الحركات. قطب المخرج جبينه ورفع ذراعيه. لكن، لا، ما من نهاية، بل إعادة أخرى. تأوه المطربون عندئذٍ باستياءٍ صريح.

وبابتسامة طلبت منه مديرة المسرح فترة استراحة. ردَّ لها المخرج الابتسامة.

أصبحت ابتسامتها أكثر صرامة، وفقدت شيئًا فشيئًا أي حميمية. وفي النهاية نهضت مديرة المسرح وتوجهت إلى التقنيين والمطربين - مرورًا بالإخراج - وأعلنت أن البروفة قد انتهت.

ظل المخرج جالسًا، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا، وتحدث بإلحاح إلى مُساعده، والذي جرؤ لمرَّة واحدة فقط على أن يرفع بصره في حيرة. ثم كرَّر تعليمات المخرج للمطربين. فما دام ضوء العمل موجودًا فوق خشبة المسرح وصالة المتفرجين، فإن منتصف الليل لم يحل بالنسبة للمخرج.

كان المطربون مترددين. رفع العازف الجالس إلى البيانو يديه وأبقاهما في الهواء أعلى أزرار البيانو وحوَّل بصره من الإخراج إلى إدارة المسرح. هزَّت مديرة المسرح رأسها في استياء. غير أن أصابع العازف الجالس إلى البيانو لم تنسحب بسهولة هكذا. لقد اقتربت جدًّا بالفعل من أزرار البيانو. توافق في النغمات الموسيقية، سرعان ما توقف وانفجر المخرج.

لم ينظر إلى مديرة المسرح، وأخذ يوجه السباب - بشكلٍ عام تمامًا - للمعتقدات الألمانية بشأن الوقت. هذه الدقة المفرطة التي تحصر كل شيء وتجعله مستحيلًا وتدمره. وتدمر نفسها في النهاية أيضًا. إنه يصنع على العكس من ذلك عملًا مسرحيًّا!! والتفت من جديد نحو خشبة المسرح، وأصدر الأوامر بالاستمرار في العمل وعدم التوقف ومواصلة العمل وإجراء البروفات بمحاربة الوقت، كما لو أنه من الممكن أن يتوقف الوقت. كما لو أنه من الممكن أن تمتد الليلة إلى ما لا نهاية، لمجرد أنه كان يواصل إجراء البروفات فقط. يواصل دون انقطاع. يواصل إجراء البروفات دائمًا:

- ومرَّةً أخرى من الأمام!

لم أعاود تناول أي طعام منذ ساعات كثيرة. ومن فرط التعب، أخذت أنزلق شيئًا فشيئًا من المقعد. وعلى الرغم من ذلك فقد أبهرني ما تمتع به المخرج من عزم في هذا الصراع عديم الجدوى، وكذلك ثقته في قُوَّة إرادته وجرأة حججه. وكُنتُ مذهولة كيف أنه سرعان ما استسلم مع ذلك في النهاية (في الواقع، كان الوقت يمُرُّ في ألمانيا سريعًا أكثر مما ينبغي. يومًا تلو يوم. ولم يكن أحد يتمرَّد على ذلك).

وفي النهاية، لم يكد الإنتاج يلاحظ وقت البروفات الضائع. قبل العرض المسرحي الأول، احتضنتُ المطربين بما ارتدوه من أزياء ضخمة، وما

وضعوه من زينة وجه مُبالغ بها. وبعد ذلك بقليل رأيتهم يقفون على خشبة المسرح. جلستُ بالأسفل مع الجمهور، مثلما كُنتُ أفعل في بروفات كثيرة.

وفي أثناء ذلك، كُنتُ أعرف كل نغمة وكل خطوة. ولاحظت كل خطأ، ورأيت الخطأ التالي مقبلًا. إلا أن أداء الأوركسترا كان متكلفًا. وكانت الأصوات أعلى منها، وأصبحت بارزة بكل قوة. تملَّكت منِّي النغمات. قُوَّة جذب تتمتع بالحيوية والثبات. فشعرت بأن الغناء والموسيقى يرتقيان بي ويأسرانني ويحملانني. حتى وإن كُنتُ قد سمعت ورأيت هذا كله بالفعل كثيرًا جدًّا. وحتى إن كُنتُ أعرف مَن كان يقف هناك في الوضع المطلوب منه ويؤدي الحركات التي تدرب عليها في البروفات بدقة متناهية وهو يضع مساحيق التجميل. وذلك بعد أي عدد من المرَّات الكثيرة التي أعاد فيها أداء هذه الحركات وفي مقابل أي عدد من المرَّات التي شعر فيها بمقاومة بداخله لذلك. وفجأة شعرت - على نحوٍ لم يسبق له مثيل - بعناصر الشد والجذب بين الأشخاص على خشبة المسرح. امتلأت المسافات المحسوبة بدقة - بين أماكن وقوف الشخصيات على خشبة المسرح ومرَّات التأخير الصغيرة في تتابُعات حركاتهم - بكل ما لم يُقل عن تلك القصة التي أثارت حماسي، على نحو غير متزامن عن عمد مع الموسيقى. كأنني أسمعها، وكأنني أراها للمرَّة الأولى. ذلك على الرغم من أنني كُنتُ أعرف الخدع جميعًا، أو ربما كان هذا هو السبب. وربما كان السبب فقط أنني لم أعد مضطرة لأن أُدَوِّن ملاحظات. لقد بدأت فجأة في التصفيق والاستحسان بشدة (والذي كُنتُ أصفق به لنفسي أنا أيضًا، وللشهرين اللذين كرَّستهما للعمل. بحماسٍ بالغ).

وبعد أسابيع قليلة نسيت أنني كُنتُ أريد أن أُكرِّس ما تبقَّى من حياتي للعمل في الأوبرا. لم ألتقِ ثانية في أي وقت بأي من الأشخاص الذين تعلَّقت بهم في تلك الفترة، على الرغم من أن المسرح كان يقع قريبًا جدًّا منِّي. غير أن مدخل خشبة المسرح كان يقع في مكان مُستتر بشكلٍ جيد. وما زلت لا أفكر كثيرًا سوى في إخفاق تعرَّض له المخرج ذات مرَّة، وفي الحسم الذي طلب به وقتًا حاول أن يزيح به في هذه الليلة ساعات أخرى - إن لم تكن أيامًا أخرى - لإجراء البروفات وأن يغالط بذلك. لقد خلَّف هذا المشهد في نفسي انطباعًا أكثر من ذكرياته الطريفة عن الكاتب "ويليام بوروز" (والتي انغلقت بها واحدة من دوائر الصدفة هذه في حياتي. تلك الدوائر، التي ظلت مع ذلك مفتوحة بشكل دائم).

ما من وقت إضافي لي. ما من "أنا ثانية" تُواصِل الكتابة، بينما أنام أنا. فبدلًا من ذلك كُنتُ مضطرة لأن أنتبه إلى ألا تتحرك "أناتي الثانية" كثيرًا قدر الإمكان، وألا تُشتِّت انتباهي، وأن تبقى محفوظة بأمان في بروفات العمل والشهادات وكتيبات البرامج القديمة. لم يكن بإمكاني أن أعتني بها كلها. ففي النهاية اتخذت ذات مرَّة قرارًا ضدها. (وبمرور الوقت سوف تلاحقني بشكلٍ نادر الحدوث، وبشجن عنيف وقوي).

على كل حال، فإن شبيهتي التي أسندت لها مسؤولية مواعيدي في الوقت الراهن، كانت تعمل في سكون وصدق. أخذت قصاصات الورق الموجودة أعلى مكتبي تتكاثر من تلقاء نفسها. لم أعد أُسجِّل ما فاتني كله.

كان البدروم وحده ما يسبب لي الإزعاج. رتَّبتُ كل الصناديق إلى أعلى وأنا شاردة الذهن. وكوَّمتها بين السرير والمكتب فوصلت على الأقل إلى السقف. وبدأتُ في الفرز.

وفي النهاية أجرتُ سيارة لتوصيل البضائع وذهبتُ في بادئ الأمر إلى والدي ووالدتي، وبعدها على الفور إلى جَدِّي وجَدَّتي. وهناك أضعتُ أيضًا نصف يوم آخر، ولم أفكر في المستقبل. ذات مرَّة، استيقظتُ مفزوعة بسبب العمل في وقت متأخر من الليل، وركضتُ إلى أسفل. بدا الأمر بالأسفل كما هو كالمعتاد. فبدا الضوء كاشفًا في الممر الأوسط. وفي الأركان والزوايا كان كثير من الغبار الذي لم يمسه أحد والظلام ينزويان. لا، لم تكن هناك سوى خطواتي فقط. ولا شيء خلافًا لذلك.

لم أعد على الفور إلى النص الذي كُنتُ أكتبه. هبَّت بالخارج ريح خفيفة. ركضتُ عبر الشوارع الساكنة (خطواتي فقط). انبعثت أصوات من إحدى البارات. وبين حين وآخر، يمضي تاكسي. أشارت لوحة إعلان عن إحدى الصيدليات بأن الساعة أصبحت الثانية. التفتُّ. "اللاب توب" الخاص بي ينتظر في المنزل. وسريري. مضيتُ ببطء في المدينة النائمة. ضوء هنا وهناك في إحدى النوافذ. إنه وميض منبعث من إحدى الشاشات. كان عليَّ أن أعود. إلا أن ساقيَّ كانتا متمهلتين. بَرَّدَ الهواء رأسي. وببطء شديد، أخذ ظلي ينمو بعد المرور على كل مصباح جديد من مصابيح الشارع.

أشارت الساعة المُكَعَّبة الموجودة أعلى تقاطع الترام المهجور إلى الساعة الرابعة وعشر دقائق. أصابني الذعر. استطعتُ بالكاد أن أركض ببطء هكذا، لكنني رأيتُ بعد ذلك الجانب الآخر من المكعب. أشارت ميناء الساعة في هذا الجانب إلى الساعة الثانية عشر إلا ثلاث دقائق. ركضتُ في

وسط الشارع الخاوي. حول عمود الساعة. وأخذت أنظر إلى التوقيتات الأربعة الموجودة على جوانب الساعة، حتى سمعت صوت سيارة قادمة. في المنزل، قررت أن أقوم بنزهاتٍ ليلية بشكلٍ متزايد. لكنني كُنتُ أعرف بالفعل أن هذا لن يحدث سوى في قصاصة ورق مكتوبة وموضوعة أعلى مكتبي. في صباح اليوم التالي، أخذت قسطًا كافيًا من النوم. للمرَّة الأخيرة لمدة أسابيع.

بينما أخذ وقتي يمُرُّ وينقضي، كان "يان" دائمًا ما يجد فرصًا أكثر ليكتب لي رسائل. لم أجعل شيئًا يُثنيني (بعد) عن انتظار الرسائل الواردة منه. وخلافًا لذلك لم أكن لأمنح نفسي أي تسلية أخرى. وهكذا كُنتُ أشعر بسعادة من كل انتظار جديد. كُنتُ مرارًا وتكرارًا أحسب فرق التوقيت بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، لكي أتمكن من الانتظار خصيصًا. وأُسجِّل الأوقات التي كان "يان" يفضل الكتابة فيها وأتتبَّع مسار سفره (دون أن أُعلِّق في كل مرَّة كيف أن "يان" استعان في ذلك بوضوح برواية "على الطريق") وأضع تخمينات عن وضع الاتصال بشبكة الإنترنت في الأماكن التي يقيم بها.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كُنتُ أنتظره بغير تردد، كلما كُنتُ أرغب في ذلك، ولكنني كُنتُ أترك لنفسي من مرَّة لأخرى مزيدًا من الوقت للرد عليه. بدا أن "يان" كان يأخذ هذا على محمل شخصي ويعتذر أنه ليس "كيرواك". (في الإيميل نفسه، اشتكى "يان" لي، لي أنا بالذات - لكن في النهاية لم تكن

علاقتنا قد وصلت إلى حدٍّ بعيدٍ هكذا - من أنه يفتقر إلى شجاعة هدم الجسور، وأن يترك كل شيء من خلفه، وأن يبدأ الحياة الصحيحة.

ظلت هذه الرسالة مُخزَّنةً في صندوق الوارد، حيثما سيكون باستطاعتي أن أرجع إليها لمدة طويلة جدًّا وبشكلٍ متكرر للغاية. إلا أن هذا الأمر لم يكد يشغلني بشكلٍ مؤقت). كتبت له الرد بأنني لا أنتظر من "كيرواك" أي إيميلات. (وهو ما لم يكن مطابقًا للحقيقة بشكلٍ تام؛ ففي بعض اللحظات لم أكن لأتفاجأ من وجود اسم "كيرواك" في صندوق الوارد). أرسلت هذه الرسالة حوالي الساعة الرابعة صباحًا. وهو ما دفعه إلى أن يحسب ويسألني السؤال التالي: "متى تنامين بالضبط؟".

رددت عليه بإيميل عاطفي بالإنجليزية: "لقد أضعت وقتًا، والآن هذا الوقت يضيعني".

وتمنَّى "يان" لي "كتابة سريعة" جيدة مثل "كيرواك". وبعد ذلك لم أعد أسمع عنه شيئًا. (ولوقتٍ طويل سأحمل "كيرواك" مسؤولية ذلك. وسأحمل حتى "شكسبير" كذلك المسؤولية بعض الشيء).

في اليوم التالي، أَخَذَتْ طائرة قبرصية تُحلِّق لساعات متعاقبة أعلى اليونان. وبعد مشاكل مع عملية إحداث ضبط الضغط في الطائرة، أصبحت الطائرة تدير حلقة انتظار تلو الأخرى بواسطة طيار آلي، حتى نفد الوقود. كان من المتوقع أن تقع الطائرة، ولكن لم يكن بإمكان أحد من الخارج تقديم مساعدة (ولن يكون باستطاعة أحد بعد ذلك أن يؤكد

بما يكفي كيف كان طاقم الطائرة والركاب فاقدين الوعي في الحقيقة). قررت ألا أسمع مزيدًا من الأخبار (وكان هذا السبب في أنني ما زلت أتذكر هذا الخبر. احتل هذا الخبر مكانًا في التسلسل الزمني للأحداث الخاصة بي. فقد وقع قبل ثمانية عشر يومًا من التاريخ المحدد لتسليم بحثي).

كُنتُ أتصبَّب عرقًا ليلًا ونهارًا؛ لكنني كدت أقول بصعوبة هل الطقس ما زال صيفًا (فلوقتٍ طويل، لم يعد يرد عليَّ أي مساء. وكان الظلام يحل كل نهار في وقتٍ مبكر للغاية). جفَّت شفتاي. وكُنتُ مضطرة مرارًا وتكرارًا إلى دهنهما من ثمَّ بالكريم. اعتدت على آلام ظهري. كُنتُ لا آخذ فترات راحة قصيرة إلا عندما يتصلب كتفاي وأشعر أن حلقي أصبح ضيقًا جدًّا عند البلع.

من وقت لآخر، كان "اللاب توب" الخاص بي يعرض "رسالة تحذير من كفاءة أداء الجهاز". صحيح، إنني اتضح لي أن هذا لا علاقة له بسرعتي في الكتابة، وإنما ببرامج الكمبيوتر التي كانت تعمل في الخلفية بشكل أسرع من أي إنسان. لكن حينها لم تكن اللحظة المناسبة لترتيب وحدة التخزين الرئيسية في "اللاب توب".

أخذت أُخزِّن نصِّي بصورة متكررة. كان عليَّ أن أتخذ قرارًا. كلمة تلو كلمة. كلما قلَّت المدة، التي يُساورني فيها شك، كان من الأسهل أن أُصنِّف مادتي البحثية. شيئًا فشيئًا، بدا أن الكلمات ذاتها تعرف إلى أين تريد أن تتجه. فبمجرد أن كُنتُ أضع إصبعًا واحدة فقط على أزرار "اللاب توب"، كانت وحوشي اللغوية تنتفخ وترتب ما يلحق بها. ومع ذلك، فقد أخذت تشكل أمام عينيَّ المُندهشتين سلاسل أفكار منطقية (حتى ولو بدا من

حين لآخر أمام العينين المُندهشتين نفسيهما على حدٍّ سواء أن أي إمكانية للفهم – انطلاقًا من مجموعات الرموز نفسها – لم تعد موجودة).

في هذه المرحلة، لم أكن أفكر سوى في المعايير العلمية، وفي الكثافة المناسبة للاستشهادات، وفي قائمة المراجع التي يتعيَّن إضافتها. إلا أن هذا كله لم ينتزعني من التفكير في "كيرواك". فكان اعتقال " لوسيان كار" يرد في أحلامي. وكُنتُ أشعر بخوفٍ كبير، وإن كان غامضًا، من أن أتورط في أي شيء (وفي كل الأحوال من أن أعرف أكثر مما ينبغي). عرفت عن "ويليام س. بوروز" أنه عندما أبعد ابنه عنه بمسافة كافية، أخبره أنه عندما يصبح رجلًا كبيرًا، سيصبح أكثر جاذبية في الصور المُلتقطة له. وقابلت "كيرواك" (كان على غير المتوقع جذابًا بالمقارنة برجل، كُنتُ أظن أنني أعرفه منذ وقتٍ طويل بالفعل). لقد صافحني لكي نلغي علاقة الكاتب والقارئ بيننا، ولم يدهشني سوى أنه كان يتحدث الألمانية بشكلٍ جيد جدًّا.

لم يظهر "يان". شعرت بالإثارة والغضب بقدر ما أبديت من اهتمام. شعرت بالأسف أنني لم يعد لديَّ مَن يمكنني أن أكتب له عن النقاط التي لا تتوافق مع بحثي؛ مثل أن "كيرواك" لا بد أن يكون قد أبقى على لفَّة أوراقه الكبيرة وعلى بنيتها والثلاثة أسابيع التي مرَّ فيها بنشوة الكتابة. وهذا التعثر الباعث على التحرر (والذي من شأنه فقط أن يفتح الباب للتعثر القادم) من أجل عمل فني عظيم بحجم رواية "على الطريق".

ولأنني لم أستطع ببساطة أن أرسل هذه الفكرة إلى أمريكا، فقد اضطررت أن أركض (أنا بنفسي، وليس عن طريق بديل لي يساعدني) إلى المكتبة (أجل. لقد حلَّ الصيف. رأيت "فينسنت" يرتدي بنطلونًا قصيرًا، و"فيرونيك" ترتدي فستانًا صغيرًا فضفاضًا خفيفًا)، وذلك من أجل أن أحمل معي إلى المنزل مراجعَ عن موضوع "فعل الكتابة بوصفه عملًا فنيًّا" كما هو الحال مع "كيرواك" (وهي المراجع، التي لم يعد باستطاعتي أن أستعين بها في التطبيق في البحث).

لم أهتم كثيرًا بما لم يكتبه لي "يان" في ذلك الوقت، على الرغم من أنني كُنتُ منذ ذلك الوقت فصاعدًا ألقي نظرة بانتظام على صندوق الوارد. غير أن هذا لم يكن سوى عادة. فقد كُنتُ أعرف أن أمر الانتظار قد ولَّى وانتهى.

كان بحثي ينمو وينمو ويتقلص من جديد بشكل معتدل، بينما كان الوقت ينقضي، وبينما أصبحت أنام لمدة تقل باستمرار. وبينما كُنتُ لا أتغذى سوى على القهوة وعلى أحرف أقلام ترطيب الشفاه (في تلك الأثناء أخذ منِّي أحد الأشباح الطعام وأربعة كيلو جرامات من وزني بالكامل. وكان من شأني ألا ألاحظ وجود هذا الشبح إلا عندما اندفع نحوي ثانية بعد الانتهاء من أداء العمل). وبينما لم تتوفَ جَدَّتي (فالإصابة بالسكتة، التي أعلنت عن نفسها بتعرض جَدَّتي لنوبات إغماء وحالات تشوش، سوف تتأخر وتترك جَدَّتي بانتظارها لسنوات أخرى)، ولم أدرك كيف انتقلت عاصفة من جزر البهاما إلى خليج المكسيك. وهي العاصفة التي

كان مسارها ودرجة خطورتها تتغير كل ساعة تقريبًا في توقعات الطقس والمُذاعة في الوقت الحالي على جميع القنوات الإخبارية.

لجأتُ إلى استخدام سدادات الأذن، عندما بدأت ضوضاء صاخبة تهز المنزل، وأصبح كل يوم يبدأ بصوت الحفر والدق. ومع ذلك كانت الدقات والاهتزازات تتسلل إلى أعضائي عبر الأرضية وكرسي المكتب. لم يلاحظ جسدي المُنهك هذا إلا بوصفه زيادة منتظمة في التزامن بين رغبتي في التركيز وشعوري بالإعياء بشكلٍ صاخب. ولم يتضح لي إلا بعد أيام أن أعمال البناء في البدروم بدأت. لم يسعفني أي شيء في ألا أعاود التفكير في ذلك.

ما من كلمة من "يان" (ما من كلمة وصلت إليَّ منه على الأقل)، وذلك حتى بعد أن أرسلت له أخطره بنجاحي (وهو الإخطار الذي سبق أن صاغته في كثير من الأحيان "أنا" أخرى متفائلة، وكان له بسبب ذلك وقع خيالي دائمًا). كُنتُ قد انتهيت من رسالة الماجستير الخاصة بي، وبدأت أعتقد شيئًا فشيئًا - بدءًا من المُكالمة الثانية عشرة التي تحدثت فيها عن هذا الانتصار - أنني سلمت رسالة الماجستير بالفعل. حتى وإن لم يكن بمقدوري أن أتذكر سوى أنا بديلة أكثر شحوبًا منِّي، كان يوجد في لجنة الامتحانات، لم يعثر على الباب الصحيح لها إلا في ثالث محاولة. بينما كانت هناك "أنا" أخرى أكثر شحوبًا تجلس إلى "اللاب توب" الخاص بي وتتصارع مع ما به من وحوش، وتتجاوز أيضًا المهلة الأخيرة. وهي على ثقة من حصولها في نهاية المطاف على وقت إضافي بدلًا من الضائع.

ومن أجل أن أطرد جميع الأرواح، أخذت أرقص في إرهاق وبخفة في شقَّتي طوال ساعتين على أنغام أغنية "**اسلك طريقك يا جاك**" (**ولا تأتي ثانية**). كُنتُ سعيدة من أنني لن أضطر ثانيةً أبدًا أن أنشغل

بـ"كيرواك" (ولم أكن أعرف كم سأشعر بالسعادة، كما لو أن الفرصة لذلك قد تُتاح في النهاية مرَّة أخرى. حتى وإن كان ذلك سيؤدي في النهاية إلى ضغط وضيق وقت من جديد).

ثم توجهت إلى البدروم.

أُزيل كل شيء. لم يعد هناك حتى ممر أوسط، وإنما مجرد مساحة خاوية بها أرضية نظيفة مُستوية، وبضعة أسوار قليلة ظهرت مثل النتوء في منتصف الغرفة. كُنتُ أقف أنا (ولا أحد سواي) في هذا البدروم الكبير (الذي أصبح فيه مكان كافٍ في النهاية لجميع الدراجات. وسيصبح به بعد مرحلة إعادة البناء التالية مكان أيضًا لغرف بدروم جديدة مساحتها أصغر). توقعت أنني سأبكي بصوتٍ عالٍ. في وقتٍ لاحق، سوف أعد قائمة (والتي لن تعيد لي أي شيء) بكل الأشياء التي كُنتُ قد خزَّنتها في هذا البدروم (مجلات، وعلب مليئة بالصور، ونيجاتيف أفلام، وكذلك أيضًا نيجاتيف الصور التي تقدمت بها فيما مضى لدى عديد من أكاديميات الفنون، وأيضًا الصور الخاصة بمجلة "أكتسيون أنتيرليفانتس" Aktion Antirelevanz، وهي المجلة التي وددت أن أؤسسها بالاشتراك مع "فابيان" و"فينسنت" و"نيكه" و"ساشا" و"أنَّا" و"جابرييلا" (والتي انسحبت منها بالفعل بعد الاجتماع الثاني لهيئة التحرير) و"زيمونه" (التي كُنتُ أختلف معها أنا و"فابيان" خلافاتٍ عميقة جدًّا لدرجة أن عملها في جريدة كبيرة للغاية فيما بعد ما زال يشعرني بالاندهاش والغيظ

حتى بعد مرور سنوات على ذلك). (ولم تنتهِ النسخة المبدئية، "وليست الدقيقة فحسب" لهذه المجلة أبدًا).

كما خزَّنت في البدروم نُسخًا ووثائق أخرى لـ"المشروع الثقافي لمجموعة أفراد الكومبارس". وخزَّنت كذلك صناديق مليئة بالسيديهات والنصوص المدونة لمحاضرات الفصول الدراسية الأولى ومراجع لكتاب "اجعل حياتك بسيطة" Simplify your life، والتي لم أكن أريد أن أعرضها في رف كتبي، ورسومات لأطفال رسموها في أول وآخر تدريب عملي أؤديه في إحدى المدارس، وهدايا من العرض المسرحي الأول الذي شاركت فيه كمتدربة.

هناك أيضًا زلاجات لمسافات طويلة، وأحذية "باتيناج" تالفة، ومضارب تنس يصعب إصلاحها. والإطار القديم لرسمة مرسومة على الحرير وفرشاة رسم ولون أصبح جافًا للغاية. علبة كرتونية صغيرة بها مواد إعلامية لجمعية "أتاك". مقشات وجرادل عديدة. وكرسيان تالفان. وعكازان وجبيرتي الأخيرة. كيسان ممتلئان بالملابس التي ربما أصبحت ملائمة للموضة في وقت من الأوقات. علم "جمهورية ألمانيا الديمقراطية" الخاص بـ"فابيان". أسطوانات تسجيل.

كل أسطوانات التسجيل الخاصة بوالدي ووالدتي، التي تغيَّرت بشكل نهائي لتصبح "سيديهات"، في حين أنني كُنتُ أريد أن أشتري مجددًا مُشغِّل أسطوانات التسجيل). هذا كله و(ما لم أتذكره) قد ضاع. وربما كُنتُ أستطيع أن أنقذ هذا كله، لو كُنتُ فقط قد فكرت في ذلك في اللحظة المناسبة. افتقدت حتى ما كُنتُ أريد منذ وقتٍ طويل أن أتخلص منه.

افتقدت المرور بأزمات اتخاذ القرار عند فرز الأشياء وشعوري بالحيرة بسبب الأجزاء الصغيرة التي لم يكن من السهل تصنيفها؛ لكنها ربما كانت مهمة. وافتقدت الشعور بالتعب عند إفراغ المحتويات ومشاكل نقلها. افتقدت القمامة والقذارة الموجودة في الأركان وكل ذرة صغيرة منفردة من الغبار، والتي لم أعد مضطرة لأن أشغل بالي بها.

لم أدرك إلا حينئذٍ أنني أنجزت الأمر. هكذا، بالضبط هكذا يجب أن يكون شعور الإنسان بالانتصار على نفسه.

الآن حان وقت زيارة أقاربي، والاتصال تليفونيًّا بـ"ميلاني"، والالتقاء بـ"ميريت"، والحديث مع "أنَّا" عن سنوات الدراسة التكميلية والمؤهلات الإضافية، والحديث مع "جابرييلا" عن فترات التدريب العملي وإزالة طبقات قصاصات الأوراق الموجودة أعلى مكتبي. الآن حان وقت تقديم الطلبات ووقت الخطط المستقبلية والذكريات (ليست ذكريات وحوش الكلمات الخاصة بي. فقد منعت نفسي عن التشكك في النص فيما بعد. ونجحت في ذلك نجاحًا متفاوتًا). الآن حان وقت النوم وتناول الطعام والتنظيف والترتيب. الآن حان وقت مشاهدة نشرات الأخبار والاستغراق في الإنترنت والذهاب للسباحة والذهاب إلى المسرح والحفلات الموسيقية. الآن ربما كان وقت أن أذهب من جديد إلى الأرشيف (وبدأت شيئًا فشيئًا أشعر إلى أي مدى سيسعدني جدًّا الشعور بضغط الوقت قبل الامتحانات الشفهية).

ربما تمكَّن "يان" من أن يرسل لي رسائل من جديد... (كانت "الأنا الثانية" لي وحدها التي لم تخرج بعد من مدينة " نيو أورلينز" المغمورة بالفيضان. في حين أنني لم أشعر حتى إن النسخة الحقيقية من هذه "الأنا الثانية" كانت بالفعل في طريقها إلى المنزل).

3

"لكننا لا نسبق غيرنا".
"صمويل بيكيت" - "في انتظار جودو"

إن لم تخُنِّي الذاكرة، فإنني لم أشك على الإطلاق في طفولتي أن والدي ووالدتي قد اتفقا على إنجابي. وهذا ما أضفى تشويقًا على حكاياتهما؛ أول لقاء بينهما ومدى سوء التفاهم الذي حدث بينهما وأدَّى إلى انفصالهما –

(بسبب قُبَّعة وعصا ومظلة) والمصادفات التي أنقذتهما – (بسبب قُبَّعة وعصا ومظلة)، وذلك على الرغم من النهاية السعيدة الحتمية بزواجهما.

في كل مرَّة تزداد الحكاية تشويقًا. كانت هذه هي أكثر حكاية أحببتها في طفولتي. وقد ظلَّ تأثيرها مستمرًا؛ بسبب أنهما توقفا عن حكايتها لي عندما أصبحت في فترة المراهقة (أي عندما اقتربا منِّي أكثر. ذلك الوقت عندما كانا يلعبان دور عاشقين شابين بكل ما مرَّا به من فترات ارتباك وقلق وانكسار، ولكنهما ابتعدا عنِّي في الوقت ذاته).

و(قد تفاجآ بعد ذلك بوقتٍ كبير أنني ما زلت أتذكر هذه الحكاية، حتى بما فيها من ثغراتٍ لا يمكن تجنبها، حتى وإن لم أعرف أبدًا الحكاية بأكملها، فأنا لم أكن أجعلهما يُنهيانها في كل مرَّة بدلًا من أن يروياها في نسختها المكتملة). ولذا ظللت محتفظة بما رسمته في حكايتي تلك. حكاية كانت تدور حول كل شيء؛ حول الأشخاص المناسبين، الذين يستسلمون في لحظةٍ مناسبة لضرورة التكاثر.

عندما كُنتُ لا أزال في روضة الأطفال، لم أبالغ في تقدير أهمية التكوين الأساسي لجيناتي، ولن أشكو كثيرًا أيضًا من صور ظهوره... ولكنني انشغلت بحقيقة أنه لو كان هناك أحدٌ آخر في مكاني نفسه، بالجينات نفسها، فلن يفكر في غير ما أفكر فيه. وعندما أوضحت لي حصة الأحياء – بعد كثير من التدقيق والحذلقة – كروموسومات تتشكل على هيئة حروف غامضة، بدا لي أن تلك الكروموسومات لها إمكانيات هائلة للتنوع والتوفيق فيما بينها، لذا زاد افتتاني بتكوين جيناتي بشكل أكبر.

(على العكس من ذلك، جاءت معرفة والدي ووالدتي بعلم الوراثة عبر تفسيرات غامضة ومتحفظة إلى أبعد حدٍّ ممكن من ناحية. ومن ناحية

أخرى، كان الأمر بالنسبة لهما إنذارًا عنصريًّا يحذر من الإصابة بـ"أمراضٍ وراثية". وحتى المدرسون في فترتهم تلك، كانت لهم وجهات نظر مرتبطة بالماضي. وعلى كل حال، كان الاهتمام كله ينصبُّ على البيئة المحيطة بالفرد وما يمُرُّ به من تجارب في وقت ولادتي، وهما الأمران اللذان من المفترض أن يتغيرا).

لم أكن أعرف أن الأمر يتعلق بإنجاب طفل، عندما كُنتُ أتصبَّب عرقًا أمام "اللاب توب" الخاص بي وعندما لم يعد "يان" يرسل لي أي رسائل. لم أكن أفكر في أي طفل على الإطلاق (حتى وإن كان قد ساورني أحيانًا في الأيام الأخيرة المرهقة للغاية نوع من شغف الولادة. وسأستطيع أن أشعر أيضًا كم كانت هذه المقارنة بين ما تخيلته وما عايشته مضللة). وحتى عندما أرسلت لي "ميلاني" و"أوليفر" في نهاية العام صورًا لتوأمهما المولودين حديثًا، فإنها لم تكن سوى رسالة من عالمٍ مختلف تمامًا. وهي الرسالة التي أرغمتني على الذهاب في جولة إلى "الجحيم الرائع"، والبعيد كذلك؛ جحيم متاجر ألعاب الأطفال. حيثما كنا نحن الكبار نشتري الدمى، التي تتخذ شكل حيوانات والمصنوعة من الفراء نضعها على أرائكنا وعلى حقائب ظهرنا وسلاسل مفاتيحنا التي نشتريها من محلات الهدايا ومتاجر الأثاث.

كانت المرَّة الأولى التي فكرت فيها في إنجاب طفل عندما ضللت الطريق أنا و"يان" معًا. كنا قد بدأنا الرحلة في وقتٍ متأخر أكثر مما ينبغي، ولم نقرر إلا بعد الظهيرة أن نتسلق هضبة بالقرب من منزلنا الصغير الذي نقضي فيه الإجازات. وهي الهضبة التي بدت في بادئ الأمر تبتعد أكثر فأكثر في أثناء تجوالنا، ثم بدت أكثر ارتفاعًا. عندما وصلنا أخيرًا إلى القمَّة، بدأت الشمس تتراجع. ما من شيء حولنا سوى أرض كثيرة الأحجار والشجيرات والأدغال.

كان من الممكن بوضوح رؤية الجزيرة التي كنا نقضي عليها هذه الإجازة. فبها بعض المساكن المتفرقة، وشوارع قليلة، والجزيرة التالية لها تمتد على مسافة بعيدة جدًّا. لم يكن معنا في حقائب ظهرنا كشَّاف يد، وإنما كان معنا فقط زجاجات مياه، وسترات للوقاية من المطر (وبطبيعة الحال تليفونات محمولة وكاميرات وكروت ذاكرة احتياطية).

لم يهددنا خطر وجود منحدرات شاقة؛ حيث كانت الهضبة منحدرة بشكل متناسق بسيط، وقد تشكلت بفعل البراكين. غير أنها كانت وعرة بشكلٍ كافٍ لأن تجعلنا ننزلق ونسقط وننحدر في الظلام. فكرنا في الاستعداد لقضاء ليلة في الخلاء. كُنتُ بالفعل أشعر ببردٍ شديد، على الرغم من أن الجو لم يكن باردًا. شعرت بافتقاد فرشاة الأسنان والغطاء والخيمة وشعرت في الوقت ذاته بغضبٍ شديد أن أتحمَّل كل هذه الأمور غير المريحة – التي من الممكن أن يكون بها بعض المغريات أو بها على الأقل ما يستحق أن نجربه – بشكلٍ سيئ هكذا (وهذا حتى قبل أن تبدأ هذه الأمور السيئة). وشعرت بغضبٍ أكبر عندما بدأنا في الشجار وفي أن يُحمِّل كل منَّا الآخر المسؤولية عن هذه النزهة الطائشة.

ولكن فجأة، أصبح هذا الطفل موجودًا هنا. إنه الطفل الذي ربما سأفضِّل أن أحكي له حكاية إنجابه بعدها بسنوات (الحكاية التي لا تناسب الأطفال كثيرًا). لم نكن مخططين لهذا الإنجاب، حدث ذلك في ليلة مرهقة وفريدة، في الهواء الطلق. إلا أن "يان" لا ينبغي أن يعرف أي شيء عن هذه الفكرة العفوية. شعرنا بالخوف في وقتٍ مبكر للغاية وكانت الشمس متمهلة، فأخذنا نسرع في هبوط المنحدر إلى أسفل.

عند وصولنا لمنتصف مسافة المنحدر، كانت الكلاب تنبح خلف أحد الأسوار. وبوصولنا إلى الشارع بما فيه من مصابيح، كان ما تبقى من أشعة غروب الشمس متعددة الألوان للغاية يتمدد أعلى منظر طبيعي. وبشكلٍ متزايد، أصبح المنظر الطبيعي يتلون لحظتها بلونٍ واحد.

وبعد ذلك، عندما أصبحت في السرير الوثير والباعث على الشعور بالأمان والدفء، لم أعد أفكر في إنجاب طفل. وعلى كل حال، فإن الطفل كان يستحق أن تكون حكاية إنجابه أفضل من حكاية نزهة كادت أن تفشل. وهي النزهة التي كان لا بد أن تقع فيها مشاحنات بين والديه لتفريغ شعورهما بالغضب... (لن نتوقف عن استخدام وسائل منع الحمل إلا عندما سأبحث في الإنترنت عن العلامات المبكرة للحمل وأنتبه من ذلك إلى أي مدى أصبحت رغبتي في إنجاب طفل رغبة هائلة، وذلك على الرغم من كل وسائل منع الإنجاب التي كنا نتناولها، ودون وجود لحظة معينة تدعوني لأن أتشكك في وجود حمل).

إلا أن هذا كان يقع في المستقبل البعيد. فما زلنا في الخريف، وما زلت منشغلة في تكديس موادِّي البحثية الخاصة بـ"كيرواك" بالأعلى في رفِّ الكتب (لم أعد أريد – في الوقت الحاضر – أن أخزن شيئًا آخر في البدروم).

وما زلت أقضى وقتي في قراءة أحدث أخبار الأسابيع الماضية. شعرت بالتأثر لأنني فاتتني متابعة إعصار "كاترينا"، تلك الكارثة بمعنى الكلمة.

لكن على الرغم من أنه لم يتم على الإطلاق إدراك وتسجيل أعداد الضحايا وحجم الخسائر بأكمله والتقديرات الخاطئة وما وقع من إهمال، فإن هذه الأخبار افتقرت بالفعل للحرارة المرتبطة بالأحداث الجارية. كما تغير ما بها من جوٍ عام. فبعد كثير من التعليقات والتقارير، التي دارت عن خلفية ما حدث، لم يتبقَ سوى شعورٌ غائم بفقدان الصواب، لم يتبدد شيئًا فشيئًا إلا بسبب شعور غريب بالرضا والسعادة لكون هذه الكارثة قد تتسبب فيها بشكلٍ أو آخر إدارة "بوش". في غضون ذلك، لم أفكر في "يان".

ما زلنا في الخريف. اتَّصلت بجَدِّي وجَدَّتي (عندما ضغطت على أزرار التليفون، بدا لي رقم التليفون غريبًا، كما لو أنه تحوَّل قليلًا ليصبح رقم تليفون "كيرواك". كان طلب الرقم على التليفون غير معتادٍ؛ لكنه كان مألوفًا أيضًا). لقد استعادت جَدَّتي وعيها وإدراكها وبدت أكثر نشاطًا، كما لو أن شيئًا لم يحدث. شعرتُ بارتياح لدرجة أن ضميري المُعذَّب أخذ يتنسَّم الهواء في تشوُّش، وبدأ في البحث عن مُذنبين آخرين غيري؛ فألقيت بسبب ذلك بعبء الهموم – التي عذبت بها نفسي بشكلٍ لا داعي له – على أقاربي وتخلصت من الشعور بها بعدها بأسابيع.

إلا أن جَدَّتي بدت بعد ذلك شاحبة بعض الشيء. وفي بعض الأحيان، كانت تبدو غير متأكدة؛ هل كانت لا تشعر ببردٍ شديد بعد ارتداء ثلاث

طبقات من الملابس الخارجية ذات الأكمام القصيرة؟ كانت تنظر لي في ابتهاج تارة، وتكف لفترات تارة أخرى من أجل الراحة وتركت الرد لجَدِّي. استفسر جَدِّي بإلحاحٍ بالغ عن حالتي وعن ظهري؛ ففي سنِّي هذه **أنا لا أزال بحاجة إلى ظهري**. غير أن الآلام لم تعد تشكل أمرًا فارقًا بالنسبة لي، منذ أن أصبحت لا أجلس ليلًا ونهارًا إلى "اللاب توب".

ومع ذلك، لم يُنهِ جَدِّي وجَدَّتي ببساطةٍ هكذا حديثهما عما شعرا به من قلق، وهو ما بدا في غير محله بشكل يفوق نوبات اهتمام والدي ووالدتي بي قبل ذلك بعشرة أيام (واللذين كانا يأملان في الحقيقة أن أساعدهما بخصوص مشغل أسطوانات الدي في دي DVD الجديد الخاص بهما، وذلك على الرغم من أن توصيل أسلاك أجهزة الاستقبال والتسجيل والتشغيل، التي كانا يملكانها فيما سبق، يجهدني بشكلٍ لا أقوى عليه).

كان هذا بالتالي أمرًا يُثير المشاعر من جديد؛ فبعد عقودٍ كثيرة، ليس بإمكان والدي ووالدتي سوى أن يهتما بي (أو أنهما كانا لا يريدان سوى أن يتمكنا من ذلك. وفي النهاية انتقلا لتوِّهما إلى منطقةٍ سكنية خاصة بالأشخاص المحتاجين إلى الرعاية).

قدَّم جَدِّي وجَدَّتي الطعام لي، ذلك الذي كُنتُ أتناوله في أثناء إقامتي لديهما لمدة أسبوع مرَّتين في السنة؛ لأن والدي ووالدتي كانا بحاجة لوقتٍ يخصهما وحدهما. وهو ما لم أكن أقبله أبدًا. لهذا السبب، لم أكن أشعر أبدًا بالراحة لدى جَدِّي وجَدَّتي على النحو الذي يمكن لأي إنسان أن يشعر فيه بالراحة لدى جده وجَدَّته.

كُنتُ أتخيل طفلة بين أثاثهما المنجد والملون بألوان كثيرة هادئة وبما به من نقوشات فوضوية بشكلٍ معتاد. تلك الطفلة التي كانت تتناول

الحلوى المخصصة لمرضى السكر حتى تمتلئ معدتها عن آخرها. تشككتُ في الوقت ذاته في هذه الذكرى.

أراد جَدِّي أن يعرف إن كُنتُ أستطيع بالفعل أن أستخدم الكاميرا الديچيتال لالتقاط الصور الفوتوغرافية. وأضاف – دون أن ينتظر الإجابة – أن معاناة خريجي الجامعة من البطالة تعد أمرًا سيئًا حقًّا.

لكن جَدَّتي لم تكن تريد أن تسمع هذا الأمر على الإطلاق. كان رأيها أنه لا ينبغي على جَدِّي أن يصيبني بالخوف. وعندئذٍ، تخلَّت عن خجلها وسألتني عن الوظائف التي أتمنى أن أعمل بها، والمدن التي أفضل زيارتها وخططي في السفر. وعندما سألتني كذلك عن "فابيان"، أخذ جَدِّي ينظر لي في ارتباك. وقد منح نفسه وقتًا لاستدراك الأمر، مما أضفى على اعتراضه حدة، اجتهد في التغلب عليها بنبرة صوته.

احمرَّ وجه جَدَّتي (والتي كانت في الماضي تتعامل باستهتار مع أخطائها غير المقصودة بشكلٍ مثير للاستياء، وبشكلٍ كان حتى متعمدًا، وكانت تشعر بالسرور من كل شعورٍ يكشف عن ارتباكها) بطريقةٍ لم أتوقع أن أراها أبدًا في وجهها الحاد وعنقها النحيل هذا. اعتذرتُ فيما بعد بصمت عن كل ما اتهمتها به من نيَّات جارحة، عندما أخذت تتجاهل المسافة الآمنة الموجودة بين الأجيال أو لأنها سعت بالأحرى – حسب ما أظن الآن – لأن تتخطاها.

كان الأمر مُربكًا جدًّا لي، لدرجة أن هذه النقطة التي لم تعد مؤلمة على الإطلاق بدت تستحق أن تؤخذ في الاعتبار بشكلٍ قاسٍ هكذا. تنفس جَدِّي بصعوبة. نهضت جَدَّتي وذهبت إلى المطبخ وحدقنا فيها من الخلف. تنحنح جَدِّي ثلاث مرَّات واعتذر لي بصوتٍ هادئ مكتوم أنها ليست في

كامل تركيزها. غمغمتُ بصوتٍ منخفض قدر الإمكان ودون أن أتفوه بشيءٍ على الإطلاق. ونظر كلانا من ثمَّ عبر الباب نصف المفتوح نحو الممر.

عادت جَدَّتي مبتسمة بحزم. لم تقل كلمة وجلست وفتحت سوستة الصديري المبطن الذي كانت ترتديه، وخلعته وارتدته على الفور من جديد. وددتُ كثيرًا لو أنني واسيتها (أو واسيت نفسي، ففي نهاية الأمر لم يكن هذا سوى واقع نتج عن هفوة أصابت ذاكرتها، وهو ما كانت تشعر بالخجل منه) بأن أحكي لها مستجدات علاقاتي العاطفية... (لكنني لم أكن أعرف أن "يان" لم يعد بعيدًا. ولم أكن أدرك إلا بشكلٍ أقل أيضًا أن طفلنا سيجلس بعد تسع سنوات في حوض الاستحمام وسيجمع رغوة الصابون على سطح الماء، تارةً هنا، وتارةً هناك، ويبعثرها من جديد، وسيُغنِّي بينه وبين نفسه: "الوقت هنا. الوقت يمضي. الوقت هنا. الوقت يمضي. الوقت هنا – هنا – هنا. لقد مضى بالفعل").

ما زلنا في الشتاء. أخذت أذاكر من أجل الامتحانات الشفهية. شعرت بأنني قد عدت إلى الفترة السهلة ما قبل امتحانات منتصف الفصل الدراسي. ما تبع ذلك، أردت أن يكون ما أتعلمه أصعب وأعمق؛ ذو فروقات مميزة وتفاصيل كثيرة وسياقات معقدة، لذا نسيت ما تعلمته عن طريقة إدخال المعرفة إلى الرأس بشكلٍ مختصر ومفيد. ومن أجل بحثي الذي أجريته عن "كيرواك"، كُنتُ قد استخلصت من المراجع ما يمكن أن

يرتبط بأفكاري التي صغتُها. وبشكلٍ ما، كانت أفكاري تجد دائمًا ما تستند إليه. لكنني أصبحت الآن مستسلمة للنصوص.

تارة كُنتُ أمرُّ بعيني مرورًا سريعًا على النصوص، وعندئذٍ كُنتُ أظن أنني انتبهت إلى كل شيء على الفور، لألاحظ عند مطالعة النصوص للمرَّة الثانية؛ أي بعض مواضع الكلمات المعقدة قد أفلتت منِّي، والتي تفسر النص في اتجاهات شتى. وتارة كُنتُ أتتبع تركيبات الجمل، متقدمة ببطء. لدرجة أن نظري كان يلتفت إلى كل فرق طفيف وأقل تناقضًا في الحجج والبراهين. ويلاحظ كذلك أبسط عبارة غير دقيقة عند الانتقال من واحدة لأخرى؛ فكُنتُ أصبح في النهاية غير قادرة على تلخيص فصل قرأته للتَّوِّ.

غير أنه لم يكن هناك وقت مُتبقٍّ لقراءة النصوص قراءة عامة وموجزة؛ حيث كان يجب عليَّ أن أقرأ أشياء أخرى كثيرة جدًّا. وفي كل مكان، كُنتُ أصطدم بإشارات من نصوص أخرى وبأسماء أخرى وعناوين كتب ونظريات كاملة لم أسمع عنها من قبل أبدًا، والتي بدت مع ذلك ذات أهمية. في النهاية، أصبح الوقت ضيقًا من جديد، لدرجة أنني لم أجد وقتًا حتى لأن أصاب بالرهبة التي تحدث عند مواجهة المواقف المهمة. بينما كُنتُ أدرك بالفعل أنني سوف أتعلم فيما بعد كثير جدًّا جدًّا؛ ولكن ما تعلمته كان في الوقت ذاته قليلًا مما جعلني أستطيع أن أراجع كل الأسئلة في رأسي مرارًا وتكرارًا بعد انتهاء الامتحانات، ولأن أستطيع بعد ذلك بأيام أيضًا أن أتوصل لإجابات كاملة ودقيقة وثرية. وإن كان هذا أيضًا متأخرًا أكثر مما ينبغي، بل متأخرًا جدًّا أكثر مما ينبغي.

وهكذا، عقب ذلك، تسلل ما تبقى من الخوف من الامتحانات وامتزج في خليط غير مقنع، خليط من الشعور بالابتهاج والإحباط بعد انتهاء

الامتحانات. فقد مضت كل الأمور على نحوٍ طيب، حتى وإن لم يمضِ أي شيءٍ على نحوٍ طيب على الإطلاق. لم أفوت فرصتي، لكنني لم أنتهزها أيضًا بالشكل الكافي. وهكذا أخذت أشعر بشكلٍ متزايد بالأسف من أجل الوقت. صحيح، إن مرحلة الاستعداد بأكملها بدت – وفقًا لذاكرتي – مكثفة بشكلٍ غريب، إلا أنني لم أعد أشعر بالتوتر الذي شعرت به طوال أشهر، والذي جعل قيمة كل شيءٍ آخر أقل.

بدا لي كل ما بذلته من جهد بمثابة إهدار كبير للوقت وللطاقة وللقوة وللأعصاب وللكفاءة. فما هذا الذي أصبح ممكنًا فجأة في الأسابيع الأخيرة قبل موعد تسليم البحث وقبل الامتحانات الشفهية؟ ولماذا لم يصبح ممكنًا إلا في هذا الوقت؟ والآن، لم يبقَ لي سوى الشعور بالارتياح؛ فكل شيء مضى وولَّى. وعلى الأقل، لم يفُتني موعد أحد الامتحانات بسبب استغراقي في النوم مثلما رأيت في كثير جدًّا من أحلامي السابقة واللاحقة.

ما زلنا في الشتاء. أهدرت وقتي في التدريب العملي في مشروع بأحد المتاحف، والذي كان يجعل مجموعات من الأطفال يشهدون فترة مبكرة من حياة أحد الأشخاص البدائيين ويشهدون فترة متأخرة من حياة إحدى وريثات العرش. تحملت فوق طاقتي، وشعرت بالإجهاد بسبب الفصول المدرسية، التي كان يصل تلاميذها في الوقت المضبوط، والتي كان قادة تلاميذها يظنون أنهم يعرفون بدقة كَمَّ الوحشية التي من الممكن أن تسير بها الأمور في العصر الحجري.

كان هؤلاء التلاميذ يدفعون بعضهم بعضًا تجاه النار الافتراضية التي أشعلناها. شعرت أيضًا بالإجهاد بسبب الطالبات الأميرات المحتفلات بأعياد ميلادهن، اللاتي كن يرتدين تيجانًا ومشابك شعر، وكن يحكين لصديقاتهن ما يليق فعله وما لا يليق فعله بالتأكيد. ولكنهن كن يصمتن على الفور بمجرد أن يجعلهن أي شخص يصنعن أي عمل فني يدوي... (كان شعوري بالإجهاد حينئذٍ يزداد أكثر فأكثر، عندما توهمت – بعد محاولاتي الهزيلة أيضًا للتدريس في مدرسة – أنني أستطيع أن أتعامل مع الأطفال، أو على الأقل أن أحبهم بشكلٍ تلقائي).

حاولتُ – في استسلام منِّي للقدر – أن أجتاز الوقت مع مجموعات الأطفال بشكلٍ أو بآخر. كُنتُ أشعر بالإعجاب بأخصائيات علم التربية في المتحف، اللاتي ابتكرن مشاريع التدريب هذه، بسبب ما تمتعن به من رزانة وقدرة على التعبير عن وجهات نظرهن (والتي كن يمارسنها في أوقاتٍ نادرة للغاية. لكن ربما كان هذا سر نجاحهن).

ومع ذلك فقد تقدمت لفترات تدريب عملي أخرى، كأنني لم أدرك أنني قد أتممت دراستي، وأنني أبحث عن عمل؛ أي عن وظيفة مناسبة. حتى إنني كُنتُ أفكر في بعض الأحيان أيضًا في الأرشيف... (بالإضافة إلى أنني لم أفهم إلا بعد أيام أن "فابيان" هجرني. ولم أفهم إلا بعد شهور أن الأمر قد انتهى للأبد).

حكت لي "ميلاني" في التليفون عن عملية ولادتها القيصرية ورأيت هذا أمرًا مثيرًا للاهتمام حقًّا (حتى وإن كُنتُ لم أعرف ما شأني بهذا الأمر)، وللأسف فقد غيَّرت "ميلاني" الموضوع سريعًا لتتحدث عن الأنظمة الغذائية لفقدان الوزن (وهو ما لم أكن أستطيع أن أتصور عنه الكثير، وأنه من الممكن أن يُثير اهتمامي بشدة في وقتٍ ما).

كانت "ميريت" تضيع وقتها في طلب المساعدة، منِّي أنا بالذات، كي تتخذ قرارات تخص مستقبلها.

– قولي ببساطة أي رأي. فكلما قلَّ ما تعرفينه، كان هذا أفضل.

وقالت لي زاعمةً:

– على كل حال، لقد كُنتُ تتمتعين بالحدس السليم فيما يتعلق بهذا العرض الموسيقي، الذي يدور حول القيام برحلات عبر الزمن. كان إنتاجًا رائعًا. كان الأجدر بي أن أقبل بهذا العرض الموسيقي. فبدلًا من أن أقبله، أصبحت غارقة في أمور غير حاسمة. بكل ما كُنتُ أؤديه.

اعترضتُ قائلةً:

– لكنني لم أشاهد حتى مسرحيتكِ الأخيرة.

– ربما كان هذا أفضل قرار.

إلا أنها سلَّمتني في الوقت ذاته تسجيلًا لهذا الحدث الضخم (الذي بدا أنه يتكوَّن في المقام الأول من فترات استراحة طويلة للغاية، وشعور بالارتباك بين الجمهور الكومبارس تم تصويره بتحفظٍ بالغ. وذلك على الرغم من أن "ميريت" فعلت كل ما في وسعها حقًّا؛ فقد غنَّت بصوتٍ صاخب، وأعطت تعليمات واضحة للكومبارس، بعض المارَّة ورُوَّاد المقهى على حدَّة، بقولها: "الآن عليكم أن تُصَفِّقوا. والآن عليكم أن تهتفوا قائلين

"برافو". لكن الآن عليكم أن تقولوا: ماذا تفعل السيدة هناك إذًا؟ قولوا الآن بالفعل: ماذا تفعل السيدة هناك؟ هل هذا فن؟ وبعدها عليكم أن تقولوا: أم أنها لم تعد في كامل قواها العقلية؟ والآن عليكم أن تتخيلوا شيئًا ما". وهكذا بشكلٍ متجاوز جدًّا إلى حد أن "هذا الأمر فتح من جديد الباب لشيءٍ آخر"، مثلما ستقول "ميريت" في لقائنا التالي، وستبوح في الوقت نفسه بأن هذه الحوارات مستوحاة من طريقة ابنة صديقها ذات الأعوام الأربعة في التواصل، والتي كان ينبغي أن تفقد سيطرتها المأمولة تمامًا على ألعابها نتيجة لتصرفات "ميريت"، حتى وإن لم تدرك ذلك).

كان "فينسنت" يضيع وقته في إلقاء كل ما يمكن إلقاؤه. وكانت "جابرييلا" تضيع وقتها في العمل متطوعة في غرفة أخبار محلية، تقع في مسقط رأسها. وكانت "أيشا" و"أولريكا" تضيعان وقتهما في العمل في مكتب رحلات. و"آن كاترين" كانت تضيع وقتها في الشعور بلوعة الحب. كُنتُ أشعر أن هذا الموضوع لا يعنيني، على الرغم من أنني ما زلت أترقب وصول رسائل بريدية من "يان".

وحتى آنذاك، بدأ "ساشا" المسكين في قضاء كثير من الوقت في محاولات التغزل بي، وهو ما لم أتوقف كثيرًا عن التفكير فيه أيضًا. وكانت "أنالينا" تضيع وقتها في محاولات تبرير نمط معيشتها البطيء جدًّا. وعندئذٍ، بدأنا جميعًا في إضاعة كثير من الوقت على الإنترنت (دون أن يفكر أي منا بماذا كنا نملأ الفضاء الافتراضي اللا نهائي. وعلى كل حال، فإننا لن ننشغل إلا بعد ذلك بسنوات بأن وسيط التخزين الأعظم قد استوعب كل استفساراتنا البحثية وأنماطنا الاستهلاكية، وحتى إيميلاتنا).

كانت "آنا" تضيع وقتها في أن تشرح لمجموعة الأفراد المقربين لها كيف أصبح كل شيء في حياتها خاضعًا لها، منذ أن أصبح لها صديق يتقبلها كما هي. أما "إليزابيث" فقد أثبتت بكثير من نسب الهرمونات لديها أنها أضاعت بالفعل فرصتها في الإنجاب. وكانت "ساندرا" تضيع وقتها في التقاط صور لنبات الصبار وفي وصفات عمل اليخني. و"توبياس" كان يضيع وقته في التغطية الإعلامية الحصرية للإنجازات الرياضية المتميزة. أما "نايكي" فكانت تضيع وقتها في إعلان أنها سوف تشارك في شركة استشارات. وعلاوة على ذلك، لن يعود لديها وقت على الإطلاق (ولهذا السبب لن ينبغي لي ثانيةً أن أعرف شيئًا عن نجاحاتها في بادئ الأمر والخبرات الدولية والإيرادات الهائلة والفشل الكبير للشركة بأكملها والعلاج المدهش الذي سوف تكرس مسيرتها المهنية التالية من أجل التسويق له. وبناءً على ذلك، لن أستطيع أيضًا أن أحكي شيئًا عن هذا).

حلَّ الربيع، وتغيَّرت حياتي، لكن كان من الصعب ملاحظة ذلك. فكل لقاء **يتأخر موعده لمدة ربع ساعة**. وكل مرَّة أتسوق فيها، كُنتُ أفعل هذا قبل موعد إغلاق المتاجر بقليل. وكل طلب توظيف كُنتُ أتقدم به في آخر دقيقة، وكل مقابلة للتقدم لوظيفة كُنتُ أستعد لها في أقل وقت ممكن. وفضلًا عن ذلك، فقد كُنتُ أحضر متأخرة أكثر مما ينبغي إلى المشاهد المسرحية الكبرى.

قابلت "فابيان" بالصدفة، أبدى اندهاشًا ملحوظًا من أنني نجحت في إتمام دراستي (ولذلك لم يكن أي طفل - قد يأتي من المستقبل ليلقي نظرة على هذا المشهد - بحاجة لأن يشعر بالخوف على تركيبته الجينية المختلطة؛ فقد انتهت علاقتنا). لكن ربما لم أكن (ما زلت لم) أثق في نفسي بشكلٍ تام (وفي الواقع، فإنني عندما أكون غير منتبهة وبمجرد أن كُنتُ أنظر في رسالة الماجستير الخاصة بي، كُنتُ أبدأ من جديد في إجراء تعديلات بها وتكملتها وتصحيحها). قَلَّ هذا الشعور للغاية، في اللحظة التي حلَّت فيها "أنا قديمة" محلي بما لها من ردود فعل معروفة، كان من الممكن التنبؤ بها. وهي الأنا التي ابتسمت لـ"فابيان" في تعالٍ، وتوهَّمت في يأس أنها لم تكن تقصد الإهانة والعناد، بل كانت تقصد السخرية بشكلٍ أو آخر. وذلك على الرغم من أن "فابيان" كان يتقن هذا النوع من السخرية بصورةٍ أفضل بكثير. كُنتُ أعرف للأسف أن هذه السخرية كانت تليق به. وكُنتُ أتوقع بالفعل ما الذي سوف يحدث فيما بعد. غير أن هذا لم يفِدني، بل إنه لم يجعل الأمر إلا أكثر سوءًا. وهو ما كُنتُ أعرفه أيضًا بشكلٍ جيد جدًّا.

نجح "فابيان" منذ زمنٍ سحيق في اعتباري ظاهرة استثنائية. وعلى الأقل كُنتُ أرى نفسي هكذا، عندما كُنتُ أسمعه يتحدث. وللأسف، كانت النسخة الأقدم منِّي قليلًا هي ما كان يعتبرها "فابيان" فيما مضى مثيرة للاهتمام وجذابة ومرغوبًا فيها، والتي كانت ما زالت تروق لي حتمًا أكثر من أي انعكاس آخر لي. وبمرور السنين، لم يرَني "فابيان" بصورة أكثر جمالًا. وهكذا صرت أرى نفسي أحارب بالفعل، بصورةٍ دائمًا ما تزداد عنادًا، ودائمًا ما تزداد فشلًا. وكانت أمام عيني كل وجهات النظر وكل

هذه الاحتمالات غير المحدودة لأن أفشل كخريجة جامعية. وهي الاحتمالات التي ظلت مفتوحة أمامي عندئذٍ.

لم يكن لديَّ أدنى فرصة لأقاومه ولأقاوم نظرته، التي كانت (ما زالت) تفعل بي ما تشاء. ومع ذلك فإنني لو كُنتُ قد سألته عن أحواله المعيشية، لكان قد تحاشى الإجابة منتقلًا بحماس للحديث عن أي أسئلة تفصيلية تخص مشروعات تبدو رائعة جدًّا. لدرجة أنه لم يكن من المهم الحديث عن فرص نجاحها. كُنتُ أعرف هذا. كُنتُ أعلم هذا. لن نتخطى هذا الأمر. هكذا ظننت، حتى ثبَّتُ نظري عليه من جديد ولاحظت – بدلًا من ابتسامة التهكم المغرورة (والتي ربما كُنتُ أتخيَّل وجودها بالفعل) – تعبيرًا عن الانكسار مرتسمًا على وجهه وسمعت اعتذاره وتهنئته.

وفجأة، لم يعد يقف أمامي سوى رجل ودود نحيف، يرتدي سُترة خفيفة للغاية. شاب سبقني في تخطي مرحلة دراسته النظامية (هذا إن كُنتُ قد حسبت الأمر بشكلٍ صحيح. لقد كان يبدو شابًّا للغاية. كسابق عهده). أصبحت ابتسامتي على الفور أكثر استرخاءً، وخطر ببالي من جديد كل ما كان يُثير إعجابي بـ"فابيان" في أي وقتٍ من الأوقات. للأسف، أصبحت لا أعرف إلا القليل عما ينبغي أن أقوله له الآن. وفي النهاية، كتمت سعالًا جافًا (بينما ظننت أنني لمحت في نظرته قلقًا أكيدًا). وبنبرة صوت باكية، لم أعد أسمعها منذ وقتٍ طويل، عبَّرت له عن ندمي وقلت إنني يؤسفني أن أشعر بالتوتر لأنني لا أعرف، كيف ينبغي عليَّ أن أشرح له أمرًا ما حدث لعلم جمهورية ألمانيا الديمقراطية الخاص به.

بعد أن سمع الحكاية (المختصرة والمُعدَّلة) لإخلائي للبدروم، ضحك بصوتٍ عالٍ (بارتياح أيضًا)، وأكد أنه لم يفتقد عَلَمَه أبدًا (وعلى الأرجح،

فإنه نفسه لم يدرك أنه بدأ في اللحظة ذاتها في افتقاده، وسرعان ما صار عليه أن يشتري عبر الإنترنت مجموعة كاملة من الأعلام والرايات. وهو ما سيؤدي في الختام إلى إعادة بثِّ الحياة في **المشروع الثقافي لمجموعة أفراد الكومبارس**، حتى وإن تم هذا من دوني ومن دون بدرومي).

حلَّ الصيف بالفعل. أصبحت أعمل في مكتبة لبيع الكتب القديمة، تقع بالقرب منِّي. وقد عثرت هناك عن طريق الصدفة على ما دوَّنه "نيل كاسادي" من مذكرات عن قصة نشأته. في المذكرات، بدت حياة والده وحياة والدته (بقدر ما استطاع أن يعرف من حكاياتهما فقط) مستقرة، وتكاد تكون هانئة. وذلك حتى التقى الاثنان ببعضهما بعضًا وأنجبا أولادهما وبدأت دوامة من الإدمان والعدوانية والتنقل بشكل مفاجئ من مكان لآخر وكذلك الفقر والتشرد والعنف. وهي الدوامة التي لم يكن من الممكن إيقافها حتى بانفصالهما عن بعضهما. في اللحظات الهادئة، كُنتُ أقرأ الكتاب وأنا في مقعدي خلف الخزينة. وكُنتُ أكتب طلبات للتقدم لوظائف، وأجمِّع الردود عليها بالرفض. أضيع وقتي في شكوكٍ ومخاوف؛ لأنني لم أكن أعرف بعد كيف سأجد في النهاية وظيفة أحلامي من دون مشاكل، وأن هذه الشهور الثمانية لن تصبح فيما بعد مدة طويلة. كم أشعر الآن أيضًا بأن هذه الشهور كانت بلا نهاية. ويا لها من خسارة أن ضاعت كل فرصة من هذه الفرص – والتي راودتني فيها الخيالات مرَّة تلو الأخرى – كي أتقدم من جديد لوظيفة على سبيل التجربة. أنهكني هذا الأمل وحده، الذي كُنتُ أستجمعه في كل مرَّة عند التقدم لوظيفة. كما أنهكني أن شيئًا لم يمُرُّ – على الرغم من ذلك – حسبما تخيَّلت. كُنتُ

أعرف أن هناك آفاقًا ستنفتح في المستقبل – آجلًا أم عاجلًا – بل لا بد أن تنفتح. لكنها انغلقت أمامي الآن، واحدة تلو الأخرى.

كان "ساشا" الوحيد الذي يتصل بي تليفونيًّا بانتظام في تلك الفترة. لكن بمجرد أن يرنَّ التليفون، كُنتُ أفكر أولًا في طلبات الالتحاق بالوظائف التي تقدمت بها. لم أكن أفكر في جَدَّتي إلا عند رنين التليفون في الصباح الباكر فقط، وفي "يان" عند رنين التليفون في الليل. وذلك على الرغم من أنه لم يُبدِ منذ وقتٍ طويل ثمَّة اهتمام؛ أي اهتمام يبدو كافيًا، ولم يتواصل معي أبدًا بهذه الطريقة على الإطلاق. وضعتُ "ساشا" في دائرة انتظار تمتلئ بالتأملات الكثيرة لكل ما لا يخصنا بشكلٍ شخصي (كُنتُ أجيد في هذه الفترة أن أكبت مشاعره).

تقبَّلته بكل تأكيد، وهو ما استطعت أن أستنتجه من إلحاحه. ومنحته كثيرًا من الاهتمام، فظل مثابرًا على ذلك. وعلى كل حال، كنا نستطيع أن نتسامر بشكلٍ ممتاز حول اتجاهات علم النفس الجسدي في المجتمع. ولم يكن من المستبعد تمامًا (في بعض الأحيان كُنتُ حتى أتمنى) أن أنجح بمرور الوقت في أن أقع في حبه. وفي الختام، استغرق الأمر أيضًا وقتًا (عرفته لفترة أطول من فترة معرفتي بـ"فابيان". منذ الفصل الدراسي الأول) حتى اشتعل بداخلي العشق. من الممكن أن يكون العشق (لم أكن أريد أن أعرف هذا) قد التهب أيضًا بداخله بشكلٍ غير قوي، وأنه كان يقدِّر صداقتنا لأنها لم تكن تهدده أبدًا بأن تصبح أكثر من ذلك، ولكنها تظاهرت على الرغم من هذا بوجود أمل في المستقبل، يمكن أن تظل باقية دون صعوبات أو مجهود أو حتى أي تغيير.

بعد أن قضيتُ ليلة مع "ساشا"، حلمت بـ"يان". وللمرَّة الأولى، شعرت بالقلق عليه، ورأيته في الحلم يحافظ على توازنه على حافة جرف في أثناء هروبه من أفراد عصابات ورجال شرطة. وذلك على الرغم من أنه كان – في الوقت نفسه – قد مات منذ زمنٍ طويل. ذلك حتى وإن كُنتُ أنا السبب – في الحلم بلا شك – أنني لم أعد أسمع عنه شيئًا وهو في قبره.

– تواصلي معه.

قالها "فينسنت" (الذي ورَّطني في حديث شخصي للغاية في وسط مكتبة بيع الكتب القديمة)، وأضاف:

– ضعي نهاية لهذا الأمر.

وسيزعم فيما بعد أنه أنقذ علاقتنا. وهو ما لن يختلف معه الكثير أيضًا فيما بعد.

لم أكن أعرف هل كُنتُ أريد أن أكتب لـ"يان" أم أنني أخذت نصيحة "فينسنت" على محمل الجد، فقط لأنني كُنتُ سعيدة أن محادثتنا قد انتهت بذلك. لم يكن في المتجر سوى زبائن قليلين؛ لكنهم كانوا دائمًا ما يرفعون بصرهم أكثر فأكثر عن الكتب. كما كان المدير يرمقني بنظراتٍ غير متحفظة ولطيفة بشكلٍ مثير للدهشة. لم أكن أعرف ماذا ينبغي عليَّ أن أكتب، وأخذت أُرجئ هذا الأمر لأيام عديدة متوالية، أصبحت أسبوعين؛ ولكنني كتبت في النهاية كي أنهي شيئًا لم يكن موجودًا.

كتبت للرجل، الذي خمنت – خلافًا لكل الاحتمالات – أنه ما زال في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي ظل عالقًا في ذهني؛ لأنه كتب لي لآخر مرَّة من مدينة "دنفر" إيميل يودع فيه أوهامي (ما دامت تتعلق به). إلا أنني لم أصِغ هذا (بعد كتابة كثير من المسودات والتعديلات والتصحيحات) بشكلٍ واضح تمامًا، كما توهمت أنني نويت أن أفعل.

بمجرد أن أرسلت الرسالة، ألقيتُ نظرة في بريد الـ"إيميلات" الواردة. كُنتُ أعرف أن "يان" لن يرسل رسائل من جديد أبدًا، ولن يرسل رسائل بأي حال من الأحوال بسرعةٍ هكذا. ومع ذلك فقد ضغطت من جديد على الفور على "الوارد". وضغطت عليه بعد دقائق قليلة مرَّة أخرى. ومرَّةً أخرى. عندئذٍ جاء رده. بعد تسع دقائق ونصف الدقيقة. قال إنه يشعر بالسعادة. وإنه يريد أن يزور جده وجَدَّته. (وبضميرٍ متقلب فكرتُ في جَدِّي وجَدَّتي، اللذين لم أعد أراهما منذ حفلة تخرجي من الجامعة، والتي سافرا من أجلها خصيصًا). أي إننا ربما نستطيع أن نلتقي.

ما كُنتُ سأرفض أن أرسل "أنا ثانية" لهذا اللقاء مع "يان". فلم أكن أنتظر شيئًا من مقابلتنا. كُنتُ أعرف أنه لا يجوز لي أن أنتظر شيئًا، وأنني سأفسد كل شيء بتوقعاتي المستقبلية، والتي تكون أكثر تركيزًا لا سبيل لفهمها في كل اللحظات الصادقة. كُنتُ أعرف أن ما من برق سيصعق، ولا مؤثرات صوتية مسرحية تشبه صوت الرعد ستحدث، وما من آلات كَمَان سيعلو صوتها كالعواء، وأن الزمن لن يتوقف في اللحظة التي سوف آتي

فيها (متأخرة، بكل الحب) مسرعةً إلى الميدان الصغير الواقع أمام مبنى المحكمة وسأراه واقفًا هناك. إنه صديقي بالمراسلة لفترة مؤقتة، وحبيب "ميلاني" السابق، ومحل اشتياقي، الذي كدَّره الانتظار (أجل، بالتأكيد سنقضي وقتًا لطيفًا في فترة ما بعد الظهيرة، وسننجح دون تكلف في أن نودع بعضنا بعضًا بأدب، وسنذكر – في مقابلات لاحقة نادرة عن طريق الصدفة – البيرة، التي دائمًا ما كنا نريد أن نتفق على موعد لنشربها فيما سبق). وبالفعل كُنتُ أشعر مسبقًا بأنني مُرهقة عاطفيًّا، عندما كُنتُ أفكر في هذا. كُنتُ أريد أن أخلف كل شيء وراء ظهري؛ الشعور التام بالإحباط وإبطال مفعول السحر هذا وزوال كل الانفعالات المتراكمة طويلًا بصورة باهتة والواقعة في مسافات آمنة (هكذا بدا الأمر فجأة).

فبمجرد أن نواجه بعضنا بعضًا، سيمضي كل شيء. ذلك الوخز المنعش، الذي يصيب بالشلل في الوقت ذاته، والذي ينضغط ليصبح لا شيء (كُنتُ أعرف هذا فعلًا). أخذت أكثر فأكثر أجرب هذا الاحتمال الآخر بأنه لن يظهر على الإطلاق. ومع ذلك فقد أخذت أستعد بتعبيرات، أرسمها على وجهي. فبحثت عن استراتيجيات (مضحكة وغير مفيدة وغير ضرورية) كي أستعد للحظات المزعجة والصمت المحرج والقهقهة الواضحة والابتسامة العريضة السعيدة. تمنيت لو أنني قد عبرت عن نفسي في إيميلي بوضوح تام، ثم انطلقت راكضة.

لقد تخيَّلت هذه المقابلة كثيرًا جدًّا لدرجة أن هذا المشهد أصبح يبدو لي بالفعل كأنه ذكرى؛ كيف سآتي راكضة وحينها سأقف، كما لو أن ليس هناك شيء (بعد تعارف عابر هكذا، وبعد إيميلات كثيرة كهذه، في وقتٍ

قصير كهذا، وبعد فترة توقف طويلة كهذه، وبعد إيضاح قليل كهذا)، وبعد ذلك سيكون متروكًا لكلينا أن يقرر هل ستكون هناك علاقة ما بيننا.

لم يكن موجودًا هناك (وهو ما توقعته، ولكن هذا كان في خيالي فقط). ركضت حول الميدان، وألقيت نظرة نحو كل زاوية، وكل ركن، وكل مدخل منزل. نظرت إلى الساعة في اضطراب. لقد أتيت متأخرة لمدة عشر دقائق، وفي أثناء ذلك أصبحت حوالي عشرين دقيقة. لا بد أنني قد فات عليَّ لقاؤه. ولم يكن معي حتى رقم تليفونه المحمول.

نويت أن أصبح منذ ذلك الوقت دقيقة في مواعيدي. لم يجعل هذا أي رجل يعود إليَّ؛ لكن بهذا القرار (أنا مَن قررت) ربما يصبح لهذه الحكاية الغبية على الأقل أثر مفيد بعد ذلك. (**لم** أتذكر بشكلٍ صريح – في هذه المناسبة – النيَّات الطيبة الكثيرة لحياتي).

كُنتُ أشك دائمًا أنه ربما يكون هناك مَن لا يلتزم بمواعيده أكثر منِّي. حتى وإن كُنتُ أعرف بطبيعة الحال أن هذه الإمكانية قائمة. وحتى أعطي له أو لنا فُرصةً أخرى، لم أعد على الفور إلى المنزل متوجهة إلى "اللاب توب" الخاص بي (على الرغم من أن الـ"إيميلات" كانت سبيلي الوحيد للوصول إليه، حتى وإن كان هذا لا يحدث ربما على الفور)، وإنما ظللت في الميدان الصغير، الذي كانت تعبره من حين لآخر سيارة توزيع بضائع وسيارات قادمة من موقف السيارات القريب. كأنني كُنتُ سأستطيع بوقت الانتظار الإضافي هذا أن أسترد شيئًا من الوقت الذي تأخرته.

أصبحت أتمنى بقوة متزايدة لو كُنتُ دقيقة في مواعيدي. وحينها كُنتُ سأعرف على الأقل هل كان موجودًا هناك حقًّا، ولكنه مضى من جديد في إحباط، قبل وصولي بوقتٍ قصير للغاية.

وفي النهاية، جاء راكضًا ومتأخرًا عنِّي بأربعين دقيقة (كُنتُ أعرف أنه لا يجوز لي أن أنتظر شيئًا. لم يكن باستطاعتي عندئذ سوى أن أتركه يفاجئني). أقبل نحوي راكضًا باندفاع كبير. تراجعت. مد كلتا ذراعيه كي يبطئ من سرعته ويمد يده نحو يدي ويعتذر فيما بعد عما به من عرق، وعن التأخير. كان هو قد انتظر أيضًا في الميدان الخاطئ وأمام مبنى قضائي تاريخي آخر... (ولأننا كنا موجودين في مدينته مسقط رأسه، فإن هذا لم يجعلني وحدي أعتقد، وإنما جعله يعتقد كذلك، بأنه من غير الممكن أن نكون قد عرفنا بعضنا بعضًا معرفة جيدة).

عندئذٍ، حان وقت أن نتنسَّم الهواء وأن نريح أجسادنا. وقت أن نحدق في بعضنا بعضًا. لقد بدا بعد كل هذه الشهور وفي ضوء النهار غير مألوف لي بشكلٍ كبير وأكبر جسدًا عما كان في ذاكرتي. كان وجهه أكثر نحافة وشعره أفتح لونًا وعيناه أدكن لونًا. لم تكن أسنانه المائلة إلى الاصفرار قد لفتت انتباهي قبل ذلك أبدًا. لو كُنتُ رأيته بين مجموعة من الأشخاص، لكُنتُ استطعت بصعوبة أن أتعرَّف إليه. لم يكن يرتدي حذاءً رياضيًّا. لكنني تعرفت إلى الرجل القادم من أمريكا ونظرت إليه في وجهه، حتى اضطر إلى أن يبتسم في تكلف وارتباك، وابتسم في النهاية بحيرة وخجل،

وشيئًا فشيئًا بشكلٍ أكثر سيطرة (تساءلت بالفعل هل أفسدت كل شيء). وعندئذٍ، اعتبر هذا الأمر كاللعبة (حسبما سيزعم في وقتٍ لاحق) وتراجع خطوة (ورأيت حدَّة ملامحه وأدركت منها أنه اتخذ القرار بألا يهرب على الفور ولكن بأن ينتقل بشكلٍ منظم للغاية نحو البدء في الحديث، ويتمكن من العودة لوقتٍ طويل طويل طويل إلى حالته الطبيعية الآمنة، وأن يدفع نحو الأمام وسيطًا مهذبًا لبقًا – لم يشارك في علاقتنا – وأن يختبئ خلفه. لم يكن معي بديل مناسب لذاتي بسبب استعجالي؛ فقد كُنتُ أريد حينها أن أجعل الأمر سريعًا. كُنتُ أريد أن أستعجل الأحداث، وهو ما لم يكن من الممكن أن ينجح. اهتززت. والآن أصبحت أنا مَن تمد ذراعيها. كان علينا أن نتشبَّث ببعضنا بعضًا. رجفة خارجة عن السيطرة. شعور بالفزع. اعتذارات غير جادة تمامًا. اعترضنا حديث بعضنا بعضًا. مرَّت بنا سيارة مضت خارجة من موقف السيارات. لم يعد من الممكن إنقاذ التوقيت المحدد). ولذلك سيبدو كل شيء فيما بعد كأنه حب هيستيري عظيم جدًّا من النظرة الأولى تقريبًا (قصة، يمكن حكايتها بشكلٍ مبسط وبشكلٍ متصاعد، ويمكن حكايتها أيضًا لطفل. لكننا لم تكن لدينا أي معرفة بمضمون هذه القصة في الحقيقة).

حلَّ الصيف. وعد "يان" جده أن يشاهد معه مباراة كرة القدم. ذهبت وحدي إلى المنزل. حتى المباراة المُذاعة في التليفزيون أصبحت فجأة مثيرة في ذلك المساء.

لم يخطر ببالي إلا بعد أيام أنني لم أستفسر بكلمةٍ واحدة عن رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية (والتي لم تكن قد انتهت بعد وفقًا لما فهمته). وعندما اعتذرت عن ذلك في لقائنا التالي، لوَّح لي بيده نفيًا لذلك. وقال إنه لا توجد مشكلة. وبذلك انتهى هذا الموضوع. كان من شأني أن أتساءل بعد ذلك بكثير، هل كان ينبغي عليَّ أن أقاطعه وأعيد سؤاله مرَّة أخرى. لكن يبدو أنني اكتفيت من الماضي بما أشركني فيه هو من تلقاء نفسه. وفضلت أن أدع الباقي يمضي. سيزور جده وجَدَّته كثيرًا في الفترة التالية.

كانت جَدَّتي تشعر بأنها في حالة سيئة؛ فكانت تتناول أدوية مضادة لتجلُّط الدم، ومن أجل أن تساعدها على التركيز في الزمان والمكان. وكانت تتناول أيضًا دواءً ما للتغلب على الشعور بالخوف. عانت والدتي معها؛ فكان عليها – مع أشقائها الرجال – أن تعتني بوالدها ووالدتها... (أن تعتني بهما، وليس أن ترعاهما. فقد كان في دار المسنين مشرفات بعددٍ كافٍ مستعدات لرعايتهما. يا ليت جَدِّي وجَدَّتي قد تأقلما على الشقة الجديدة، ويا ليت أعمالهما المنزلية المكدسة قد انتهت، ويا ليتهما قد انتقلا في النهاية إلى مكان آخر، وليته قد اتضح على الأقل مَن سيدبر أمر أي جزء من أجزاء عملية تغيير محل السكن). لم تكن والدتي تذهب كثيرًا إلى والديها؛ لكن يبدو أنها كانت منشغلة بهما بلا انقطاع. وعندما كانت تقول إنها تحتاج **إلى وقت لنفسها**، كانت تحاول أن تستغلني.

كُنتُ أظن أن لديها وقتًا أقل بكثير وأمور أكثر أهمية بكثير في رأسها. ولكن لأن هذا الأمر كان يرضيني جدًّا، فإنه كان من الصعب عليَّ أن أمتنع عنه. وهكذا أخذت أزور جَدِّي وجَدَّتي من وقتٍ لآخر، وكُنتُ أجعلهما يطهوان لي الطعام ويزودانني بمصروف جيب. حاولتُ جَدَّتي أن تثبت حقها في الرعاية المتزايدة المحيطة بها؛ فأخذت تتحدث كثيرًا عن الزمن، وبالتالي عن الموت. بدت تشعر أن أجلها قد اقترب أكثر وفقًا لحسبانها (لكن هذا لم يكن يُثير اهتمامي بالفعل). كما بدت تتحدث عن كل شيء بصيغة "لن يدوم طويلًا".

لم أكن أريد أن أسمع هذا. وحاولتُ أن أصرف انتباهها عن همومها وآلامها، بدلًا من أن أُولي انتباهًا لها، (أنا أو شبيهة لي ودودة وشاردة الفكر ببرود. غير ناضجة. محملة بما لا تطيق ولا تستطيع التعامل مع هذا، أو أنها ببساطة كسولة وغير مستعدة أن تجعل شيئًا يعكر صفو هذا الصيف. لا شيء على الإطلاق. استطعت أن أشعر بكلا البديلين بداخلي. يتعايشان ويتعاونان مع بعضهما بعضًا بشكلٍ جيد كأنهما شبحان).

كُنتُ دائمًا ما أسأل جَدَّتي الأسئلة نفسها لكي أوجه انتباهها إلى ما تبقى من ذكريات قليلة، كانت كثيرًا ما تثير أعصابي في السنوات السابقة. والآن أصبحت أستطيع أن أسمع بلا كلل أو ملل حكاياتها الروتينية عن طفولة والدتي، وعن أشقائها الرجال في فترةٍ عصيبة، وعن لقائها جَدِّي في فترةٍ قاسية (وكُنتُ حتى أتوهم في بعض الأحيان أنني أحافظ بذلك على أن يظل حبها له مستمرًا للأبد هكذا).

بدأت أضيع وقتي في البحث عن موضوع لرسالة الدكتوراه. فقد حصل "يان" أيضًا على درجة الدكتوراه، ولم أكن أعرف بعد أن وظيفة أحلامي تنتظرني بالفعل (وبالتأكيد لم أكن أعرف أن العمل في مكتب مواقع التصوير السينمائية لن يصبح بعد عام وظيفة أحلامي. إلا أنني شعرت بالابتهاج بعد أن تم قبولي للعمل بشكلٍ مفاجئ (وعند بحثي عن عمل في المرة التالية سيبدأ شعوري بالقلق – بسبب تعرضي للرفض كثيرًا – في الظهور من جديد). كما شعرت بالارتياح أنني غير مضطرة للبحث طويلًا، ولا للانتقال من وظيفة لأخرى. وشعرت بالسعادة لأنني وجدت سبيلًا للخروج من ركني الصغير المتعلق بالأدب المقارن، والتاريخ، والعلوم السياسية إلى شيءٍ مثير هكذا مثل عالم الأفلام. وهذا حتى لو بقيت في قطاعاتها الخارجية فقط لأنني ظللت في مكاني حيثما كنت. اكتشفت القليل عن عالم الفيلم في مكان دراستي وامتلأت بالحماس من رؤية المدينة والمنطقة بأعيُن جديدة ومن التنقيب للبحث عن أماكن للتصوير ومن العثور على الأماكن القليلة المميزة – ولم تكن سوى أماكن نموذجية مميزة – في المنطقة المحيطة بي. كُنتُ أريد كثيرًا أن آخذها مأخذ الجد: مدينتي الصغيرة).

أصبحنا في الخريف، ثم في الشتاء. ومن جديد في الربيع. وأصبحت أنا و"يان" نلتقي في كل عطلة نهاية أسبوع. في مدينته وفي مدينتي بالتناوب.

تحدثنا كثيرًا عن السفر معًا في العطلة، لكن الخريف عاد من جديد، ثم أتى الربيع.

أصبحت نادرًا ما أرى أقاربي. وفي الوقت نفسه أخذت أهتم أكثر فأكثر بخلفية نشأة "يان"، التي كان بها خلل، إلى حد أنني كُنتُ أقضي – أحيانًا حتى من دونه – بعض الأمسيات في شقة جده وجَدَّته المُرتَّبة، وأتناول معجنات دسمة، وأتساءل أين تكمن المشكلة في أسلوب تواصلهما الذي يبدو فيه الاهتمام والانتباه بشكلٍ غير معتاد تمامًا.

ومع ذلك، فعندما كانت جَدَّتي تجد الفرصة لتعلن لي بشكلٍ مسبق أنها ستموت، فإنني كُنتُ أخالفها باختصار في الرأي. كان ذلك زورًا وبهتانًا، فصحيح أنني لم أصدق شعورها الانهزامي بشكلٍ تفصيلي؛ ولكنها ستصبح محقة بطبيعة الحال في وقتٍ من الأوقات. إلا أن هذا كان يبدو لي من مرَّة لأخرى – كانت تكرر فيها ذلك – أكثر فأكثر أمرًا مستحيلًا وغير حقيقي.

في تلك الأثناء، قررت "فيرونيك" أن تحيا *من أجل الوقت الحاضر فقط*. ولذلك كُنتُ أراها شاردة الذهن (وأيضًا غير متوافقة مع روح العصر إلى حدٍّ كبير). أضاعت "ميريت" وقتها في العمل بالدبلجة الصوتية. وأضعتُ وقتي في كتبٍ ومقالات عن التأجيل بوصفه اتجاه يحدد نمط الحياة. في الصباح الباكر أوقظني "ساشا"، الذي كان يضيع وقته في العمل بالراديو، والذي كُنتُ أستطيع أن أتعرف من جديد إلى صوته، الذي كان

يدربه. ترقى "فينسنت" ليصبح أصغر مدير لقسم الأفكار الإبداعية في الوكالة التي يعمل بها، وكان يضيع وقت فراغه في إبرام عقود التأمين على الحياة، وعقود الحصول على قروض بغرض البناء. وكانت "آن كاترين" تضيع وقتها في إدارة المشروعات الثقافية (وربما كانت التفاصيل مثيرة للاهتمام. وبالتأكيد كان عليها بالفعل مواصلة ذلك). وأضاع "توبياس" وقته في إعداد فيديوهات قصيرة على القناة الخاصة به وتناول فيها تنصله من والده، والذي لم أعرف إلا عن طريق هذه الفيديوهات أنه كان يناهض على المستوى الشعبي المحلي **ثقافة حظر الأشياء الزائد عن حده؛ مثل الخمور والتدخين والسمنة.. إلخ، وحماية الآثار القديمة بشكل مُبالغ فيه**. وكانت "دانييلا" تضيع وقتها في العمل محاضرة للغة الألمانية في مدينة "كيوتو". أصبحت "آنَّا" من جديد غير مرتبطة عاطفيًّا، وأضاعت وقتها وكثيرًا من المال من أجل نظرية "الاستهلاك الواعي سياسيًّا"، مدركة حجم التجارة والإنتاج اللذين يجب الاهتمام بهما. انتقلت "ساندرا" لوصفات إعداد الطواجن في الفرن والنصائح المتزايدة لمطالعة الكتب. وأضاعت "ميلاني" وقتها في فترات الصوم العلاجي والإرشاد الزوجي للمقبلين على الزواج... (ومع ذلك فسرعان ما ستصبح وحيدة – بعد معركة طلاق قصيرة – بصحبة ابنيها التوأم ذوي السلوك الإبداعي. وربما سارت كل أمورها بالتأكيد على نحوٍ جيد، حتى تتزوج في المرَّة التالية. كل شيء تقريبًا).

عندما كُنتُ أفكر في إنجاب طفل، فإن هذا كان يتضح في أنني بدأت شيئًا فشيئًا في قراءة إعلانات الوظائف الشاغرة في المدينة التي كان "يان" يقضي وقته فيها في تلك الأثناء في شركة لدعم الأبحاث العلمية، والذي كان

يتقاضى فيها أجرًا بالساعة يتزايد بشكلٍ مستمر. لقد أذهلتني الطريقة الثانوية التي أتم بها رسالة الدكتوراه الخاصة به. أصبحت لا أراه كثيرًا لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك أصبحت لديَّ صفحات كثيرة تحتاج للتدقيق اللغوي. وكان هذا كل شيء.

بدا أن لا شيء كان يقلقه في القيام بالأمور العلمية. ودون شعور بالندم أرسل "يان" ذاته، التي كانت تدرس، إلى الماضي (حيثما تنتمي)، وكان يحضر بين الحين والآخر في مؤتمر يشارك في تنظيمه. سافرنا في إجازة، وفي وقتٍ من الأوقات أصبح على أريكتي دمية من الفراء لأنثى حيوان "آكل النمل" وهي تحمل صغيرها على ظهرها (وهي الدمية، التي كُنتُ قد اشتريتها لطفل "جابرييلا" الرضيع؛ ولكنها أجَّلت فيما بعد زيارتها لي). لكننا لم نكن قد أدركنا بعد أن هذا كله لن يكون سوى أمور هامة تستبق حكايتنا نحن.

في مُستهَلِّ السبعينيات من القرن الماضي، كان والدي ووالدتي لا يفكران بطبيعة الحال سوى في سعادتهما، حتى وإن كانا قد حرصا على كل حال على أن يعايشا ما تطور بمبالغة ليصبح شبيهًا بحكاية "روميو وجولييت". قصة حب طالب يساري وابنة ناشر يقوم بنشر النتائج والحكم الحياتية، قابلا بعضهما بعضًا بالتحديد في أحد مكاتب الممتلكات المفقودة. كانت هناك لتُحضر عصا السير قديمة الطراز، التي نسيها والدها في ركن الزبائن الدائمين بـ"**جمعية دعم متحف المدينة**"، بينما

كان والدي يريد أن يسلم للمكتب محفظة عثر عليها. هكذا عرفت والدي ووالدتي من صور قديمة لهما.

كانت والدتي تظهر في الصور بعد أن انتهت لتَوِّها من الدراسة في المدرسة (رأيتها ترتدي فستانًا للاحتفال بانتهاء دراستها الثانوية، وهو الفستان الذي لم تكن ترتديه بالتأكيد عند وجودها في مكتب المتلكات المفقودة)، وكانت تنتظر بأدب عند طاولة المكتب. بينما كان والدي يصفف شعره تصفيفة ستجدها والدتي بعد ذلك بسنواتٍ كثيرة مثيرة للسُّخرية (ولكنها مثيرة للاهتمام بشكلٍ كافٍ لجعلها تقع في صراعات داخلية مع تصوراتها عن الطريقة التي يجب على الرجل أن يتزين بها ليلفت الأنظار).

لم يلاحظ والدي حتى أنه كان يدفع بجسده نحو الأمام، وكان يتلعثم عندما كان يذكر بياناته لمكتب المتلكات المفقودة (في مكانٍ ما في بئر سلم، يتبع أحد المجمعات السكنية، والذي لم يكن عنوانه واضحًا لوالدي، على الرغم من أنه كان يسكن هناك. بشكلٍ ما ومن حين لآخر. وأنا أيضًا لم أعد أعرف هل كانت محفظة نقود واحدة أم مَحافِظ عديدة. وعلى كل حال، لم يكن بها نقود أو وثائق شخصية) وهو ما أدَّى لحدوث حالات متوقعة من سوء الفهم، حاول والدي أن يزيلها بعدوانيةٍ غير حكيمة.

تفوَّهت والدتي ببضع جمل قصيرة مهذبة، وحققت بذلك نجاحًا أكبر كثيرًا. إلا أنها لم تُلقِ بالًا في بادئ الأمر لشكر والدي لها فيما بعد بالخارج، حيثما كان ينتظرها تحت المطر، ولاعتذاراته ولحذره غير المتوقع ولسخريته من نفسه... (قصة من قصص الأطفال، كما قلت، قصة من قصص الأطفال).

بينما كان والدي ما زال متوهمًا أنها تقترب بآرائها السياسية من آرائه السياسية، كانت والدتي تؤسس شيئًا، يصفه أمام أصدقائه لفترة من الزمن ساخرًا بأنه "**طائفة سياسية مزدوجة الآراء**"، ولكنه لم يكن سوى نواة للحياة البرجوازية العميقة التي تحياها الأسر الصغيرة. عندما وجد والدي ووالدتي (أصبحا متشاركين أكثر فأكثر) أن المناقشات عن مجموعة المتعاطفين معها أصبحت متعبة، قرَّرا أن يصبحا "راشدين" (حسبما ستزعم والدتي طويلًا، وحتى أُصبح أنا نفسي طفلة. وبعد ذلك فقدت هذه الفئة أهميتها). فانصرف انتباههما عن "الخريف الألماني" بطفل رضيع؛ مجرد قُبَّعة **وعصا ومظلة مطر، وهكذا تقدَّمت الحياة بهما!**

4

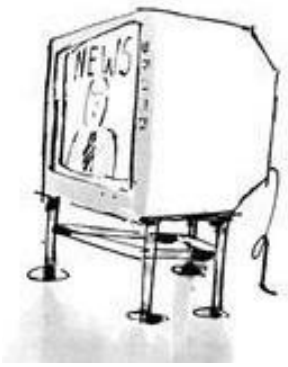

"لقد استطاعت الأجيال السابقة – هكذا كانوا يعتقدون أحيانًا – بلا شك أن تصبح على وعي أوضح بذاتها، وبالعالم، الذي كانت تعيش فيه. ربما كان عمر أبناء الأجيال السابقة عشرين عامًا إبان الحرب الأهلية الإسبانية، أو إبان المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد تحدثوا في الحقيقة عن ذلك. لقد بدا لهم أن المشكلات التي واجهتهم آنذاك، أو التي وضعت في سبيلهم بالتأكيد، كانت أكثر وضوحًا، وأنهم كانوا أكثر اضطرارًا للانتهاء منها. ولكنهم كانوا – على الرغم من ذلك – ينشغلون فقط بالأسئلة الخادعة.

كان ذلك شعورًا مُخادعًا بعض الشيء بالاشتياق؛ حرب الجزائر بدأت بهم وواصلت المضي أمام أعينهم. لقد لمستهم بالكاد [...]، ولوقتٍ طويل لم يصدقوا أن هذه الحرب من الممكن أن تؤثر يومًا ما في حياتهم ومستقبلهم ورؤيتهم للعالم".

"جورج بيريك" - "الأشياء، قصة من الستينيات"

في التليفزيون انطلقت أعيرة نارية. وانهارت جَدَّتي... (لقد وقع في مصر حادث مرَّة أخرى، بينما كانت جَدَّتي تكتفي بمتابعة فيلم بوليسي). اتَّصلت بي والدتي من المستشفى. كُنتُ على وشك أن أستبدل البطاقة البريدية، التي أردت أن أرسلها إلى جَدِّي وجَدَّتي بمناسبة أعياد الميلاد، بمعايدة لهما بمناسبة بدء العام الجديد. واستطعت بذلك أن أُوفِّر على نفسي ذكر عباراتٍ عن أمنياتي لهما بالسعادة والصحة. شعرت بالذنب بشكلٍ غير مفهوم بسبب تأخري في إرسالها. وبسبب جُملي الطائشة (التي لم أكن على وعي بما بها من ابتذال؛ فقد حشدت فيها ما أشعر به من مخاوف أكثر فأكثر. لكنني لم يخطر ببالي شيء أكثر ملاءمة. تطلب هذا منِّي أن أتكيف لكي أتقبل هذا ولأوهم نفسي أن الأمر كان أمرًا بسيطًا كما بدا. فتمنيت لجَدِّي وجَدَّتي السعادة والصحة. وأشياء أخرى. حتى وإن كان هذا متأخرًا أكثر مما ينبغي).

قبل يوم من الجنازة، ضرب زلزال دولة "هايتي". وفي الوقت نفسه، تبرَّعت للمستشفى، الذي كان قد اعتنى بجَدَّتي في آخر حياتها. وعلى كل حال، لم يكن التبرُّع كبيرًا.

شعرت ببردٍ شديد في الكنيسة الصغيرة الخاصة بالمقابر. كان لدى القس بعض المعلومات عن جَدَّتي؛ ولكنه اعتمد في حديثه على اللجوء لـ"تأثير بارنوم" التنبُّؤي الذي يجعل حديثه ينطبق على جَدَّتي بالفعل. فتحدث عن أمور إنسانية عامة، وعن الفترة الزمنية التي عاشت فيها جَدَّتي (وبدا عندئذٍ أيضًا يتمتع بالحسم). لقد أثار بذلك الحديث احتجاجي، وذلك على الرغم من أنني، أو لأنني أنا نفسي قد وُلدت بعد مولده هو بوقتٍ كبير. جلست أمام النَّعش، ولم يدُر برأسي الشعور بالحزن؛ لأنني كُنتُ أتصارع بداخلي مع التعليقات التاريخية، التي قالها هذا القس.

ومع اعتراضاتي الشخصية على كون هذا الصراع في غير محله، وعلى أنني قد بالغت في تفسير عباراته السطحية القليلة، واستطعت أن أعتبرها مثيرة للشكوك لما فيها من نبرة مثيرة للعواطف (عندئذٍ كان عليَّ أن أتذكر "ساندرا" في أثناء وجودها في حفل زفاف "ميلاني"، والتي لم تكن بالطبع مخطئة هكذا). على الرغم من أنني كُنتُ أهدف إلى تأجيل التفكير في **مشكلة المعالجة الموضوعية الملائمة للحديث عن الفترة من عام 1933 إلى عام 1945 بلغة ساذجة نظرًا للآثار السياسية لتلك الفترة** من جديد، فإنني قد تساءلت: هل هذا القس قد اختار عبارات جوفاء للغاية عندما تحدث عن توازنات الحياة في هذه الأعوام؟ وهل اعتبر الجميع ضحايا (عصرهم) بطريقة مندفعة لتلطيف الأمر؟

وذلك على الرغم من أن جَدَّتي – حسبما أظهر القس بإخلاص – كانت تعتنق **عقيدتها الخاصة بها**. صحيح، إن هذه العقيدة أخذت تتفتَّت شيئًا فشيئًا بمرور عشرات السنين. ولكن جَدَّتي – بعد أن أصبحت تؤدي صلاتها وتذهب إلى الكنيسة – لم يعد لديها في النهاية (وإن كان هذا لم يحدث إلا بعد بيع الشركة الموروثة) تحفظات على الزيجات الثانية والثالثة والزيجات الباطلة لأشقائها الرجال أو حتى تحفظات على بعض من شريكات حياة كل واحد منهم.

ولفترةٍ أطول، أخذت جَدَّتي تستخدم كلمة **"فلتحل عليك البركة"** وحدها كصيغة للتحية في خطاباتها. كان جَدِّي وجَدَّتي يقدمان – في طفولتي وعند احتفال الأسرة الكبيرة بعيد الفصح – تفسيراتٍ لكل سؤال عن مناسبة يوم العيد، وهي التفسيرات التي كانت تبدو لهم أنفسهم معقدة. وفي أثناء ذلك، كان أصغر أبناء أخوالي سنًّا لا يريد سوى سماع مزيد عن أرنب عيد الفصح وما معه من بيض. وبالتأكيد فإن هذا التدين المؤقت قد صان جَدِّي وجَدَّتي – عندما كانا شابَّين متأثرين **بالكنيسة المعترفة**[1] – من التحمس للمجرمين النازيين. وهو ما لم يذكره القس وما لم أعرفه أنا أيضًا إلا من والدي ووالدتي.

لقد كان جَدِّي وجَدَّتي ينقذان نفسيهما أيضًا باللجوء إلى الحديث عن أمورٍ عامة، لكنهما لم يتجنبا تناول الموضوع بشكلٍ مطلق؛ حيث أهدياني كتبًا للأطفال تتناول الحياة اليومية في فترة النازية ومصائر اللاجئين و"الهولوكوست" والحرب العالمية الثانية. وهي الكتب، التي بدا أنهما

1 – الكنيسة المعترفة هي حركة معارضة قام بها المسيحيون الألمان من أتباع الطائفة الإنجيلية للاعتراض على مبادئ الكنيسة الإنجيلية الألمانية مع مبادئ النازية (المترجمة).

نفسيهما كانا يقرآنها، فقد كانت ذكرياتهما الشخصية شبيهة بحكايات هذه الكتب من حيث نبرتها وما بها من مشاعر تعاطفٍ واضحة. كانوا – أقصد كتب الأطفال وجَدِّي وجَدَّتي – يستطيعون أن يشرحوا كل شيء بشكلٍ موثوق به جدًّا وبشكلٍ مفهوم جدًّا وبشكلٍ جدير بالثقة لدرجة أنني لم أكن أقاطع حديث جَدِّي وجَدَّتي أبدًا لأبرز وجهة نظري ولم أستفسر منهما عن أي شيء، حتى عندما أصبحت أكبر سنًّا وأكثر عنادًا وأكثر علمًا. لم أسألهما حتى لماذا تغافلا بإصرارٍ هكذا عن الإشارة لشقيق جَدِّي، الذي قدَّم يد العون – وكاد يكون بطلًا كما يُقال – لبعض ممن اتخذوا مواقف أكثر حسمًا فأنقذ حياتهم. حدث هذا على فتراتٍ متباعدة؛ لكنه حدث على كل حال.

وكانت والدتي قد حكت لي عنه (لم أكن أتحرى فيما بعد بشكلٍ ناقد عن مصدر حكايات والدتي الأسرية، إلا عندما كانت الحكايات تختلف عن حكاياتها لي في فترة أقدم. وهي الحكايات، التي كانت تتمتع بالقدسية في طفولتي، وكانت في أحيان كثيرة تبدو أكثر كآبة. وكانت تلك الحكايات ترجع في المقام الأول إلى فتراتٍ زمنية، لم تعايشها والدتي نفسها).

كانت والدتي تفتخر بشقيق جَدِّي بشكلٍ خاص، وكانت تشعر بالأسف لأنه تحول بابتذال وتكبُّر في الوقت نفسه ليصبح شخصًا **كارهًا للبشر** ومدمنًا للكحوليات، وهو ما جعل التعامل معه أمرًا في غاية **الصعوبة**... "لا أحد يقترب منه. ولكن عندما يفعلها أحد فإنه سرعان ما يشعر بالندم". لم أقابله قط. وعندما كُنتُ طفلة، كُنتُ أتخيله رجلًا قصير القامة مُتذمِّرًا يجلس في مقعد له مسندان، وأنه لا يريد أن يبوح بما فعله في السابق من أفعالٍ طيبة، مهما كلفه هذا الأمر. ولذلك كان يبدأ في

الزَّمجرة في ركنه المظلم، بمجرد أن يقترب منه أحد. وفي تلك الأثناء كان قد وافته المنية منذ وقتٍ طويل.

- أجل. فظيع!

قالتها جَدَّتي الأخرى بعينين مفتوحتين كثيرًا ورأسٍ تهتزُّ لكي تواصل بعد ذلك ذكرياتها فترتب الأماكن التي سافرت إليها لقضاء العطلات، ترتيبًا زمنيًّا صحيحًا، أو تُصنِّف الأقارب البعيدين تبعًا للبيئة المحيطة بكل منهم. وبمجرد أن كان ينتهي بها الحال للحديث من جديد عن جيران تم ترحيلهم بالقوة، ومنازل تعرضت للقصف بالقنابل، وأطفال قُتلوا، وأحيانًا للحديث فقط عن أحلام حياتية ضائعة، وقصص حب مأساوية، فإنها كانت تتوقف عن الحديث قائلة:

- فظيع!

كانت تقول هذا في بعض الأحيان قبل أن نتمكن من تخمين أي كارثة أو جريمة كانت جَدَّتي تشير إليها في هذه المرَّة. أو قبل أن نتمكن من تخمين هل أصبحت جَدَّتي لا تعرف هذا، وأن شعورها بالفزع كان موجهًا فقط نحو هذه الذكريات في مجملها.

لم أكن أفهم آنذاك شيئًا على الإطلاق، وذلك على الرغم من أن أول كتب أطفال تناولت ذلك التاريخ – من حيث الترتيب الزمني – قد وصلت إليَّ بالفعل. من عالم مختلف تمامًا. ولاحقًا، عندما وافتها المنية، وقد أصبحت أعرف مزيدًا عن الماضي وعن حياتها في هذا الماضي، فإنني أصبت

بالصدمة حقًّا لأن أجدادي كانوا أشخاصًا، عملوا على اضطهاد اليهود بالاستيلاء على ممتلكاتهم.

وفي الوقت نفسه، شعرت بالسعادة من كل دليل ساعدني على تقييم شعوري بالتشوُّش، الذي تسببت فيه هذه الجَدَّة. إلا أنني لم أستطع أن أفكر في جَدَّتي منذ ذلك الحين إلا في هذا السياق التاريخي. فكل ذكرى من ذكرياتها، كُنتُ أتذكرها (مصحوبة بمعلومات أكثر استفاضة)، كانت مشوبة بمعرفتي، في أي وقت عانت جَدَّتي معاناة كبيرة جدًّا، وفي أي وقت تشاجرت، واحتفلت، وضحكت، وراودها الأمل، وولدت، وعملت، واستراحت، وفي أي وقت كذلك **اعتنت بأمر** المواد الغذائية، والشقة، والمفروشات.

حتى وإن أصبح لديها في وقتٍ لاحق شقق أخرى وأثاث مختلف تمامًا. كُنتُ أصادف في الأفلام ونشرات الأخبار الأسبوعية، التي تتناول الأحداث التاريخية، موسيقى، أظن أنني سمعتها من جَدَّتي. بشكلٍ مفاجئ، وبدندنة متقطعة. ودائمًا ما كان هناك خلاف بشأن هذه الموسيقى (كان بإمكاني أن أتذكر هذا الخلاف بصورة أفضل من تذكري للألحان ذاتها). وبتقدم عمرها، أصبح من الصعب عليها أن تميز تمييزًا – لم يكن واضحًا لي في فترة طفولتي – بين أي أغنيات مسموح بها وأي أغنيات لم يعد مسموحًا بها بالفعل منذ وقتٍ طويل. لقد كانت هذه النغمات تتردد في رأسها في السابق، أجل، فظيع. فظيع. فظيع. وفيما بعد أصبحت أفهم بشكلٍ أفضل، لماذا استطاع والدي أن يتمرد على هذه العائلة ولماذا اضطر في نهاية الستينيات أن ينضم لاحتجاج واسع النطاق ضد النازية وما بعد "هتلر".

كُنتُ أقف في حيرة في أثناء تشييع جنازة جدتي الأخرى هذه (والتي توفي زوجها أي جَدِّي بالفعل قبل أن أولد). لم أشعر أنني ملزمة بالشعور

بأي عواطف تجاهها. ولأنني كُنتُ طفلة لم أكن مضطرة حتى لأن أرتدي ملابس سوداء اللون. هكذا قرر والدي ووالدتي. لم أرتجف إلا عندما قدَّمت سيدة، لم أكن أعرفها، واجب العزاء لوالدي وغمغمت بعينين متسعتين بالكلمة، التي خطرت ببالها:

- فظيع!

وهزَّت رأسها في تأثُّر. فالتصقتُ بوالدتي. وعندما دوَّت موسيقى رنَّانة منبعثة من آلات نفخ من موضعٍ ما، توقعت في توتر حدوث جدالات حول اللحن الموسيقي. ومع ذلك، فإنني لا أستطيع أن أتذكر خطبة الوعظ، التي قيلت في الجنازة.

إلى جواري، بدا "يان" بعيدًا جدًّا بطريقة مناسبة (أصبحت لا أتساءل كثيرًا، هل تعرضت علاقتنا للخطر بسبب اعتياده أن ينزوي داخل نفسه أحيانًا أم أن هذا جعل علاقتنا مستقرة؟ ومع ذلك فقد كُنتُ أضطرب عندما كان ينظر نحوي ذات مرَّة من جديد في هدوءٍ بالغ، كأن لا أحد هناك). عند القبر، تنحَّى "يان" جانبًا، خلفي وبشكلٍ مائل، عندما أقبل أحدهم نحوه لتقديم واجب العزاء، انتفض "يان" متقهقرًا. فلم يسبق لــ"يان" أن رأى جَدَّتي في السنوات، التي ارتبطنا فيها بعلاقة معًا، سوى مرَّة واحدة.

وتوهَّمتُ أنا أيضًا أنني كُنتُ أعرف – في تلك الأثناء – جده وجَدَّته أفضل من معرفتي بجَدَّتي أنا. ومع ذلك جذبته نحوي؛ فقد وقفت وحدي

بما فيه الكفاية. وبجواري كان والدي يخطو باستمرار خطواتٍ غير محسومة نحو القبر المفتوح، بينما كانت والدتي لا تلقي نظرات لي ولا لوالدي. فقد كانت تسند جَدِّي بيدها وإلى جوارهما أخوالي، كما عهدتهم. إلا أن الأربعة جميعًا بدوا في هذا المشهد العائلي، الذي ظهر فيها أب بصحبة أبنائه، متقدمين في العمر بشكلٍ صادم.

شعرت بأنني أتجمَّد من البرد. وحتى أبناء أخوالي كانوا مُتجمِّدين. كم أصبحنا جميعًا كبارًا! أشخاصًا طوال القامة ترتدي معاطف سوداء، وأخرى تتلون بلون رمادي داكن، مثل لون فحم "الأنتراسيت". وجوه جادَّة. الخالات والأصدقاء والمعارف وجارة ترتدي كوفية ملونة بألوان صارخة فوق ردائها الرمادي، كأنها كانت تريد بذلك أن تقول شيئًا ما. أو أنها كانت تقصد من وراء ذلك شيئًا آخر.

في الطريق إلى المطعم، التقى شباب العائلة. أصبحت سيقاننا دافئة من المشي، وسرعان ما تركنا من خلفنا المجموعة الصغيرة الملتفة حول جَدِّي. حجزنا غرفة خلفية. غرفة ذات مستوى منخفض مكسوة بألواح خشبية. جلستُ بين "يان" وابن خالي "لوكاس"، الذي كُنتُ قد رأيته للمرَّة الأخيرة قبل أن أقضي عامي الدراسي في الولايات المتحدة الأمريكية. ولوقتٍ طويل للغاية، لم نعد نحتفل معًا بعيد الفصح... (لم أهتدِ له بالصدفة إلا على الإنترنت وبدأت بهذا أعرف من جديد أشياء عنه وعن شقيقه "ماركوس").

أومأنا لبعضنا بعضًا برؤوسنا وانتظرنا آبائنا وأمهاتنا. شعر ابن خالي الأصغر "فيلكس" أن عليه أن يشير إلى جَدَّتي بذكرى موجزة؛ لا سيما أن يتذكر شغفها بلعبة "سودوكو" في السنوات الأخيرة (الذي لم أفطن سوى للقليل عنه، لكن حسنًا. لقد عاصر "فيلكس" جَدَّتي حتى عند احتفالها بأعياد الميلاد). صمتنا وأومأنا برؤوسنا. قال أحدنا شيئًا ما عن العمر الافتراضي للبشر بشكلٍ عام. وشعورًا منِّي بالملل، أخذت أنظر إلى قائمة الطعام وشعرت بالجوع؛ لكنني لم أجرؤ على طلب أي شيء. سألت نفسي، بمَ كان يشعر الآخرون عندما كانوا يفكرون في جَدَّتي. لم يكن حزني مناسبًا لما حدث بعد، فقد كان أقصى ما شعرت به (مثلما حدث في اللحظة الأولى، عندما سمعت بخبر الوفاة) شعور عميق بالمباغتة لأن آخر مرَّة تدخل فيها طبيب الطوارئ في السابق لم يكن إنذارًا واضحًا بقرب وفاتها. والآن حدث في الواقع ما كان الجميع يتوقعونه منذ سنوات.

ولكي أدخل في الحديث بأي شكلٍ من الأشكال، بدأت في طرح الأسئلة على "لوكاس" و"ماركوس" (على الرغم من أنني كُنتُ أعرف منذ وقتٍ طويل أن الأول كان يضيع وقته في مشاهدة مقاطع فيديو، قطَّعها بنفسه، وتحتوي على موسيقى البوب بانك "Pop-Punk". وكان الآخر يضيع وقته في البورصات المختلفة لمصممي ألعاب الكمبيوتر. إلا أن كليهما لم يتحدثا على الإطلاق). وفي الغالب، كانا يضيعان وقتيهما في تطوير المواقع الإلكترونية للوصول بها للوضع المثالي (لن يوضح لي محرك البحث المختص بذلك ما المقصود من هذه التسمية إلا في المساء) أو في الكيمياء الحيوية.

– حسنًا. إننا ننشغل بالهندسة الوراثية.

قالها "ماركوس" على سبيل الإيضاح ونظر نظرة، عبَّرت عن شعوره بالملل (وهكذا سوف نخمن أنا و"يان" بعد ذلك، هل نشأ هذا الملل بسبب خوض "ماركوس" لنقاشات كثيرة أكثر من اللازم مع أشخاص ليس لديهم معلومات كثيرة وأكثر تحيزًا في آرائهم، أم على العكس من ذلك بسبب إحجامه عن كل المشادات الكلامية، التي لم تتح له فيها أبدًا الفرصة ليتحدث عن مشروعاتٍ بحثية محددة، وليذكر كيف تسير حياته اليومية في المعمل في ظل قواعد قانونية، واحتياجات، وخيالات، ومخاوف توجد في المجتمع؟

كان الجميع – مثلنا – يبلعون ريقهم (بذهول لا لزوم له) ويبتسمون (في أدب وبلا اهتمام وتجنبًا فقط لحدوث نزاع) ولم يكونوا ليعرفوا بسبب ذلك أي إسهام قام به أقاربهم لمكافحة السرطان والبول السكري والزهايمر والتليف الكيسي والإيدز أو فقط من أجل تطوير تقنيات العلوم الجنائية الشرعية أو صناعة المواد الغذائية أو إنتاج مساحيق الغسيل).

شيئًا فشيئًا، وصل بقية المشيعين. عرض الأكبر سنًّا من بينهم عاداتهم الروتينية في تشييع الجنازات. وانطلقوا في الحديث بشكلٍ أسرع. أصبح الصوت عاليًا بين الجدران الخشبية. بعد أن جلس الجميع ودارت عليهم قوائم الطعام وطلبوا المأكولات والمشروبات، أخذت الخالات الكبيرات والجيران وصديقات العمر يحكين – بنبرة صوت متأملة تارةً ومفعمة بالحيوية تارةً أخرى – حكايات عن جدتي، لعبوا فيها في الغالب الدور

الرئيس. ولم يكن متبقيًا على قيد الحياة من بين الآخرين كثيرين المشاركين معهم في هذه الحكايات سوى القليلين (وهو ما كان يتم التعليق عليه في كل حكاية ويتم تصحيحه كثيرًا أيضًا وأحيانًا ما ينتهي لنتائج غير واضحة. كانت إحدى شقيقات جَدَّتي تعتقد أن كل الحكايات ترجع بالأساس إلى "عشرين عامًا" والأخرى ترى أنها عشرة أعوام فقط).

كانت ذكرياتهن ترجع إلى عهد، كان الحصول فيه على أي حصة من السكر يعني القيام بمغامرة والحصول على أي قطعة من الزبد بمثابة حدث مشهود. كانت عينا والدتي تتطلعان بلا هدف. وكان والدي يومئ برأسه بشكلٍ آلي بعض الشيء (لكنني بدأت أرى بحثه عن زيت الزيتون المثالي بمنظور جديد).

بعد ذلك جاء الطعام وارتفع مستوى سكر الدم في أجسادنا وتغيرت موضوعات الحديث. وعندما أصبح الحديث يدور حول القيام برحلاتٍ لمسافات بعيدة، تدخل الأصغر سنًّا أيضًا في الحديث. كان "فيلكس" وصديقته يريدان السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية (وعندما اقترحت عليهما أن يسألا "يان" عن نصائح شخصية خاصة، رمقني "يان" بنظرة سريعة مليئة بالدهشة والرفض، أجل والذعر لدرجة أنني شككت، هل ما رأيته كان صحيحًا. وفي ارتباك نصحتهم بقراءة أعمال لـ"جون ستاينبيك". وبعد ذلك أعمال لـ"كيرواك"). وخطَّط أخوالي لقضاء الإجازة في "كوبا" أو "فيتنام" و"كمبوديا"؛ ولكنهم جعلونا أيضًا نحكي لهم عن تصوراتنا عن فرنسا وإسبانيا. وحتى جَدِّي أبدى اهتمامًا طفيفًا بذلك. وعندما سألناه، هل يريد أن يشارك في السفر (مع أي شخص وفي أي وقت. لاحقًا في يوم من الأيام)، انهار من جديد.

– حسنًا. لقد شهد رغمًا عن إرادته شيئًا صعبًا، إذا جاز التعبير، في المنزل.

غمغم بها "لوكاس" (من المستبعد أنه كان يقصد بهذا وفاة الجَدَّة، بل كان يقصد الفترة الزمنية، التي ترعرع فيها الجَدُّ وآخر حشد قامت به القوات المسلحة النازية "فيرماخت"، والذي لم يمتثل جَدِّي له سريعًا بشكلٍ كافٍ لاعتباره هاربًا من التجنيد. ووقوعه في الأسر؛ وبمرور الوقت أعجبه الحال لدى الأمريكيين، حسبما أكد كثيرًا).

– نحن، على العكس من ذلك...

وسألت نفسي، ماذا كان موقفي بالضبط وكيف تحسن المزاج العام سريعًا جدًّا. لم أستطع أن أساير الشعور بالبهجة. وعلى العكس من ذلك، فقد بدا لي كأنني قد أستطيع الآن شيئًا فشيئًا أن أبدأ في الشعور بالحزن على جَدَّتي، لو تركوني وشأني فقط.

توجه اهتمامهم نحوي سريعًا. أجبتُ باقتضاب على بضع أسئلة عن حالي وعن المجهود الذي أبذله في علاقتي بـ"يان" في ظل بعد المسافات بيننا (لم يكن أحد هنا في محيط العائلة يود أن يعرف بشكلٍ صريحٍ هل خططنا لإنجاب أطفال. وهو السؤال، الذي كان يوجه لنا بشكلٍ أكثر تحررًا في مختلف السياقات، والتي كانت نادرًا ما تتناسب مع ذلك السؤال). سألتني إحدى شقيقات جَدَّتي عن دراستي وتعجبت أنها انتهت "أيضًا بالفعل". وتعجبتْ أكثر من عملي:

– أنتِ تساعدين في أداء الأعمال السينمائية؟ هل درستِ ما يؤهلكِ لذلك؟

حاولتُ أن أشرح لها أنني أكلف الشركات المسؤولة عن توريد الأطعمة والمشروبات، وذلك من أجل تنفيذ بعض السيناريوهات؛ لكنني لست مضطرة لأن أشارك في الأعمال السينمائية بنفسي.

– في الأساس نحن نوفر أماكن للتصوير؛ أي ما يمكن أن يسمى بالأعمال التحضيرية للمشهد. ولذلك فنحن في حالة بحث مستمر عن أماكن تصوير خاصة نوعًا ما. وهو ما يجعلنا بحاجة إلى معرفة بالتاريخ. ولمحة عن فن العمارة...

– لكنكِ لم تدرسي هذا!

عندئذ، أصبحت شقيقة جَدَّتي فجأة على دراية بالموضوع.

– الموضوع يتعلق بالأحرى بمعرفة ما الذي يتواءم جيدًا مع المشهد المصور، وبالطبع مع المشروع الخاص بهذا المشهد. وأين يتم التصوير في الأساس. دون تحمل تكاليف غير مناسبة...

والآن تدخلت الشقيقة الأخرى لجَدَّتي في الحديث:

– موهبة تنظيمية! أجل. هكذا هو الأمر!

أومأت لي برأسها تشجيعًا لي بشدة، لدرجة أنني اضطررت لأن أسأل هل كان هذا مكمن قوتي فعلًا. وبالتدريج أخذت أفهم سبب ما شعر به "ماركوس" من ملل. في المعتاد، فإن توصيل تفاصيل الإنتاج السينمائي والتليفزيوني أيضًا (أجل، بالضبط) لجمهور، ليس على دراية بها، يعد مهمة مفيدة بشكلٍ أكبر.

حاولتُ فعل ذلك بحكاية طريفة – سبق لي تجربتها – عن فيلم بوليسي دارت أحداثه مساء يوم الأحد. وهو الفيلم الذي أشرفنا على تنفيذه قبل وقت قليل. فقلت لهم إنه في الفيلم كان أصحاب الشقة – التي كان أثاثها يعكس رؤية للمستقبل عفا عليها الزمن – والواقعة في وسط المدينة، التي وقعت فيها المواجهة الحاسمة (دون أن تقع خسائر تذكر في سجادة الشقة)، لديهم دائرة معارف متشابكة على نطاق واسع.

– لقد حاولوا جميعًا منذ إذاعة الفيلم أن يفرضوا علينا رؤية غرفة معيشتهم أو على الأقل بيتهم الذي يقضون فيه عطلة نهاية الأسبوع. كان هذا متداخلًا أيضًا مع الأفكار التي تدور حول أين يمكن أن تكون الجثة موجودة.

(وقبل أن أنطق كلمة **الجثة**، شعرت بالسخونة والبرودة في الوقت ذاته).

لكن بدا أن وجود شقيقة جَدَّتي الأخرى – على الأقل – في جنازة لم يمنعها من الثرثرة عن أشخاص يضطرون لخسارة حياتهم من أجل فقط أن يتسببوا في صناعة حدث بوليسي:

– أجد هذا أمرًا ممتازًا. أنت تشقين بالفعل طريقكِ. تعيشين أحلامكِ. هكذا هو الأمر.

أومأتُ برأسي وأنا أشعر بالدُّوار. وتواريت خلف حكايات حكيتها عن رئيستي في العمل، التي كانت مسؤولة عن هذا كله؛ فبدأت بالحديث عن مقابلتنا الأولى ومقابلتي معها للتعريف بنفسي عندما تقدمت للعمل، وهي المقابلة التي تحدثت فيها هي بصفة خاصة. وبشكلٍ متعاطف معي، وضعت نفسها عندئذٍ في موضع المبتدئة في العمل، التي لم تلتزم بشيءٍ ما بعد، والتي ربما كان بإمكانها أيضًا أن تفعل شيئًا مختلفًا تمامًا، والتي لم يفُتها كل شيء بشكلٍ متأخر أكثر مما ينبغي:

– لأنه يجب على الإنسان أن يفعل شيئًا ما! لكن الإنسان يستكين... الإنسان يتصلب! لو كان لديَّ وقت لكُنتُ صرخت بهذا كله فيما مضى. لكُنتُ هززت الناس لأوقظهم! لكُنتُ انتقدت العالم بشدة! لكُنتُ أخرجت أفلامي الخاصة بي! لكُنتُ ألَّفت كتبًا؛ كتيبات! كلها كتيبات فقط!

كان جَدِّي هو الوحيد، الذي لم يضحك. مستسلمًا. لم يكن حتى يائسًا من الحياة من حوله. هكذا رأيته جالسًا هناك. وحيدًا بصحبة ما حدث. أعجبت به بسبب شعوره بالحزن وكُنتُ أود لو واسيته – لكنني لم أكن أود بأي حالٍ من الأحوال أن أُسلِّيه. كُنتُ مضطرة لفعل كل شيء من أجل أن أقلل إحساس البهجة في الغرفة. فتحدثت عن الزلزال الكبير.

كان أمرًا مؤثرًا. أومأ الجميع برؤوسهم في ذعر. وشعروا أنهم تذكروا كوارث أخرى، وقعت منذ زمن بعيد. وهي الكوارث، التي أخذت تدخل سريعًا في الحديث. فقد كان أغلب الحاضرين يعرفون أشخاصًا شهدوا "تسونامي" الكبير، الذي وقع في أعياد الميلاد، وكذلك كانوا يعرفون ضحايا له. بشكل شخصيٍّ على هذا النحو أو ذاك.

وبالتأكيد لم يكن من الممكن التخلص من أجواء الحزن. كلما زاد عدد الضحايا، الذين كنا نعددهم، زاد شعور جَدِّنا الجالس هناك بالوحدة مصحوبًا بشعوره بالألم على زوجته. لم يعد أحد يذهب إليه على الإطلاق. ماضيًا فوق الجثث المتكومة كأنها جبال.

كانت رئيستي في العمل أيضًا في رحلة. في صباح اليوم التالي، كانت تجلس مرتاحة في المكتب بعد أن عادت لتَوِّها من عالمٍ مختلف تمامًا. ترتدي ملابس سوداء كالمعتاد. وهو ما لم يعد يلفت نظري منذ وقتٍ

طويل؛ ولكنه أزعجني اليوم للمرَّة الأولى. حكت لي في ابتهاج وحيوية عما عاشته في برلين. فقالت إن "جاي ريتشي" (كُنتُ أراه في الأساس زوج "مادونا" السابق) عرض فيلمه الجديد في ألمانيا وكانت موجودة هناك في المؤتمر الصحفي:

– في غرفة واحدة مع "روبرت داوني جونير"!!

(كانت تراه حتى ذلك الوقت فتى الأحلام في مسلسل "آلي مكبيل"، حتى وإن أحاطت هذا بتعليقاتٍ في منتهى المهنية عن أدائه التمثيلي المتنوع).

خفضت صوتها في لهجة تآمُرية:

– معي عنوان وكيله. كما تحدثت حديثًا طيبًا جدًّا مع الموزع الألماني. نعم، لقد أنجزت بعض الأمور، هناك شيء ما قادم! بعد "مهرجان برلين السينمائي" سوف أبوح لكِ بالمزيد.

وفي شعور منها بالانتصار، لوَّحت بكومة من الكروت الشخصية.

– السينما بالطبع هي وطني.

(في الحقيقة كان لديها في الماضي علاقات وثيقة بشكلٍ مُدهش بصناع أفلام مشهورين، وهو ما يمكن أن يكون قد أثر بشكل سلبي قليلًا على نظرتها لهذا المجال في فترة ما بعد المُراهقة).

واصلتِ الحديث قائلةً:

– وعلى العكس من ذلك نجد هذا التليفزيون وكل هؤلاء الرقابيين! ليس من بينهم شخص واحد يتحرى عن عمله! وسيزيدون في ذلك أكثر فأكثر! وفي النهاية سيقتل هؤلاء بعضهم بعضًا!

ضحكتْ، كأن هذا الأمر قد حدث بالفعل (وربما ستصبح محقة في وقتٍ ما). أصبحتْ بعد ذلك جادة للغاية بالدرجة التي تتطلبها إعادة تسجيل محادثة صغيرة جادَّة مع أحد المنتجين:

– عالم الأفلام يشهد انقلابًا! يجب أن نفكر بشكلٍ عالمي! وفي الوقت ذاته بشكلٍ محلي؛ هذه هي النكتة! هكذا فقط يمكننا عرض عالمنا الصغير. إنه **جنون** بكل ما تعنيه الكلمة!

أومأت لي برأسها في حماس.

اضطررتُ إلى السُّعال في أثناء محاولتي لأن أرد على حديثها البرَّاق على الأقل بابتسامة صغيرة. سألتني باهتمام عن صحتي. بعد ذلك، خطر ببالي لماذا لم أحضر المحاضرة، وبالفعل أخذت تُواسيني بشدة. أصبح شعورها بالتعاطف غير محتمل، عندما بدأتْ بالشدة ذاتها توجه اللعنات لنفسها بسبب شرود فكرها، حتى توقفتْ عن ذلك فجأة وبدأتْ بسرعة في تصفح النتيجة وفي البحث على "اللاب توب". وفي النهاية مدَّتْ يدها نحو التليفون. عندما سمعتُ اعتذاراتها، التي لم توجهها لي، اتضح لي أن شركة الإنتاج المسؤولة كانت بانتظار بيانات أولية عن تجهيزات البنية التحتية من أجل إعداد مسلسل عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك عن طريق الاستعانة بتقنية معايشة التاريخ.

ها هو موعد من جديد، لم أفطن إليه، على الرغم من أن هذا المشروع كان يشغلني منذ شهور. فتحتُ الملف الخاص بالمشروع. بدا أن هناك عملًا ما قد تم بالملف؛ فقد كان مفحوصًا بدقة ومليئًا بعلامات الاستفهام. أخذتُ أضغط على معرض الصور المؤقت واستبعدتُ بضع صور. اندهشتُ من الخطة الزمنية التي يرجع تاريخها إلى العام الماضي، وقد تم

الانتهاء من أهدافها قبل وقتٍ طويل بالفعل؛ لكن بدا أن معرفتي بها كانت معرفة مُشوَّشة.

طالعتُ مستندات وقصاصات أوراق بها ملاحظات، وحاولتُ أن أستكمل معلومات كثيرة قدر الإمكان. شعرتُ بالعجز. كان هذا واحدًا من مشروعاتي؛ ولكنني كُنتُ نادرًا ما أعرف ما يخص هذا المشروع لأن التواصل مع المنتجين ومسؤولي التحرير يتم عبر رئيستي في العمل. أخذتُ ألعن إمكانيات الاتصال عبر وسائل التواصل على الأجهزة المحمولة، والتي منعتني من أن أصل إلى أي معلومات عن طريق الصدفة – على الأقل – في أثناء غياب رئيستي في العمل.

لم يكن بوسعي الآن أيضًا أن أفعل الكثير. فكان عليَّ فقط أن أنتظر حتى تنتهي رئيستي في العمل من مكالمتها التليفونية وأستمع إليها، وكيف أنها جاهدت من أجل إيجاد مناخ جيد، وكيف كانت تغازل مَن يتحدث معها بشكل معتاد. لقد لعبتْ في برلين دورًا أهم بالأساس مما حدث قبل ساعة. وفي النهاية حكت لمن كانت تتحدث معه – والذي كان بإمكانه على ما يبدو أن يحسب هذا من ضمن وقت العمل كذلك (وإلا لما كان سيبقى صبورًا هكذا) – حتى عن الفيلم، الذي عملتْ فيه قبل أسبوعين عن طريق الصدفة.

قالت إن الغرف والتجهيزات كانت ممتازة! ذات مصداقية كبيرة وطرازها مناسب جدًّا. كانت عظيمة ببساطة. باستثناء بعض التفاصيل البسيطة بالطبع، التي لفتت انتباهها على الفور. فقالت إنها لم تدرك إلا في الختام أنه كان نسخة أصلية من فيلم يدور في فترة السبعينيات... سمعتُ الحكاية للمرَّة الثامنة ولم أكن أودُّ على الإطلاق أن يتضح أمامي هكذا،

كيف يمكن أن تصبح سخرية الإنسان من نفسه أمرًا بلا قيمة. في النهاية خفضتْ من سرعتها في الكلام. تمنَّيتُ أن ينتهي الحديث. إلا أنها أخذتْ ترسل وتستقبل إيميلات تتعلق بصياغات التعامل بينهما وأخذتْ تُحدِّد الأولويات بحزمٍ مفاجئ وتؤجلها من جديد.

بعد ذلك، حان وقت الوداع. انتقلتْ رئيستي في العمل على الفور لمُكالمة تليفونية أخرى؛ فاتصلت بمصممة أزياء صديقة لها لتسألها عن خبراتها مع شركة الإنتاج هذه، ولتتأكد من الإطار الزمني الذي يمكن التساهل فيه، ولتنسى نفسها قليلًا في حالة من السخرية من مثالية إحدى معارفهما. تلك التي سوف تتشكك أيضًا في وجود مثل هذا المشروع دون أن يكون هناك ضغط وقت. وبعد ذلك، توجهت نحوي أخيرًا:

– هل تؤجلين أيضًا الأمور الأكثر إلحاحًا دائمًا؟

أومأت لها بالإيجاب. بدا الأمر واضحًا إلا أن ضحكتها العالية جعلتني أشعر بالرضا عن نفسي.

في الساعات التالية، أكملنا مستنداتنا وتحققنا من العناوين وحدَّثنا المعلومات المتاحة لدينا، واستبعدنا ما لم يكن واضحًا منها. هكذا كان مصير كثير منها. وأوضحنا الباقي بالاستعانة بمصمم المشاهد (الذي كان يعاين لتوه أحد الأماكن لتصوير مشروع آخر، وهكذا لن يلاحظ إلا بعد أسابيع كيف كان اختيارنا المبدئي ضعيفًا، وبلا مضمون، وكيف أصبح من الواجب عليه أن يبحث كثيرًا بعد ذلك).

فجأة استطاعت رئيستي في العمل أن تتمالك أعصابها ثانية وهي تتحدث في التليفون، وفجأة أصبحت اتفاقاتنا سارية. وبسبب ضغط الوقت، أرغمت نفسي على العمل بصورة مكثفة. بدا لي أنني كُنتُ أسلك

سلوكًا لائقًا بشكلٍ لم أعتده، عندما كُنتُ أسلم ما يُطلب منِّي. لقد كان هذا الأمر تغييرًا مريحًا للأعصاب. كنا نعمل معًا بشكلٍ لا بأس به، عندما أصبح الأمر يمضي على هذا النحو. عندئذٍ، أصبحت أجد عذرًا للأسلوب، الذي كانت رئيستي تتبعه في أثناء العمل؛ فقد مرَّت عليها سنواتٌ كثيرة تجلس فيها وحدها في هذا المكتب وتطور فيها عاداتها الخاصة بها تمامًا.

وعلى الرغم من أن الوقت أصبح متأخرًا بشكلٍ مستمر، وعلى الرغم من أنني كُنتُ أعرف أنني لن أستطيع أبدًا أن أقلل ساعات العمل الإضافية، فإنني كُنتُ في النهاية مَن أصررت على مراجعة كل شيء مرَّة أخرى. وكانت هي مَن تلتفت إلى أي تفصيلة غير واضحة، وإلى عديد من الأخطاء التي وقعت بسبب الإهمال. وفي الختام، ملأنا المستندات أيضًا بمعلوماتنا النموذجية عن الوكالات المحلية لاكتشاف المواهب، والتقنيين، والورش، والشركات المسؤولة عن توريد الأطعمة والمشروبات، والأوراق الخاصة بمكاتب السياحة الموجودة في المدينة، والدوائر الريفية (والتي كانت تحرص على تصوير المدينة القديمة الراقية والمناظر الطبيعية بالغة الجمال قدر الإمكان). وعوَّضنا – ما زلنا نعوِّض معًا – ما فاتنا من وجبات اليوم ("نظام غذائي لتقليل الوزن أيضًا!" كما صاحت بها في سعادة) في المطعم الصغير المجاور لنا. كانت حياتها اليومية - أي ما حدث لنا في يوم عادي هكذا - "جنونًا"، يجب أن نصنع فيلمًا عنه!

- مسلسل.

أومأت الجرسونة برأسها، فقد سبق لها وأن سمعت هذه الملاحظة. (كنا نضع هذا المطعم ذا التصميم المعماري الداخلي غير المبهر، منذ وقتٍ طويل، في خطتنا كأحد أماكن التصوير). هزَّت رئيستي في العمل خصلات

شعرها، ولامست بفخر ما في شعرها من فوضى صنعتها هي بنفسها. (وهي الفوضى، التي كُنتُ أنا وهي نُكمل بعضنا بعضًا فيها بشكلٍ جيد للغاية. كُنتُ مدركة لذلك. وكُنتُ مدركة أيضًا أنها جعلتني أحملها بسهولة بالغة ذنب أسلوبي في العمل. لكنني نويتُ أن أتعلم في وقتٍ لاحق من سلوكها ما يكفي لأن أؤدِّي بنفسي كل شيء بصورة مختلفة، ولو تولَّيت ذات مرَّة منصبًا به مسؤولية؛ فقد توهمتُ آنذاك أيضًا أنه يجب عليَّ أن أضع مثل هذه التحديات في اعتباري).

في وقتٍ متأخر من الليل حكيت لـ"يان" في التليفون عن يومي في العمل. أصغى إليَّ بصبر، وسمعت صوتًا منخفضًا للغاية، كشف لي عن أنه كان يكتب على "اللاب توب" في أثناء حديثي معه. لمَ لا؟ واصلتُ أيضًا الحديث عن اللقطة الأكثر إمتاعًا بلا شك. كُنتُ أسمع من حين لآخر صوت أصابعه تنقر على لوحة المفاتيح. برقة بالغة وبتحفظ بالغ ليستطيع أن يسألني دون تقيد. ولم أتوقف عند هذا الأمر أيضًا؛ فقد كُنتُ أريد فقط أن أتحدث. واصلتُ الحديث. باهتمامٍ أكثر بعض الشيء مما سبق. هكذا بالفعل. هكذا سمعت نفسي أتحدث. سمعت عبارات مجهولة.

سمعت نفسي أبكي بصوتٍ عالٍ بصورة آلية لا توصف (كان بإمكانه عندئذٍ أن يؤكد تأكيدًا كبيرًا جدًّا أنه يرى رئيستي في العمل شخصية مُسلِّية). سمعتُ نفسي أقول الأمر ذاته يوميًّا، وذلك منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، وسمعتُ نفسي أبكي بصوتٍ عالٍ بشكلٍ أكثر إثارة في الأربعين

عامًا القادمة. يومًا بعد يوم، وبالتدريج، أصبحت لا أتحدث كثيرًا عن معاناتي من تدخل الآخرين في حياتي. وبسبب ذلك أصبحت أتحدث بشكلٍ أكثر سخطًا طوال الوقت. عن الطاقة، والأفكار، والمعرفة، والخبرات، والمهارة التنظيمية، والدقة، وكل ما سيطرت عليه بداخلي، وما تعرضت له من تقييم مستمر. وكذلك قدرتي الكبيرة على النقد، ومن تحمُّس كثيرين جدًّا من المشاركين في العمل بسببي، والذين سيتجمعون مرارًا وتكرارًا وسيتجهون إلى الإنتاج المبتذل لأفلام محلية، ولأفلام يمكن عرضها في التليفزيون.

بدا أن هناك لعنة حلَّت بمجال إنتاج الأفلام. لعنة تثبيت أفكارها، ولعنة التوقع المليء بالخوف مما يتم تداوله فيها – حسبما يفترض – ولعنة الاستغراق في الاكتفاء الذاتي في الوقت نفسه بالمواضيع المتكررة للأفلام لدرجة أن الأمر أصبح ظاهرة؛ ولكن عند تأمل المشهد بدقة يتضح أنه هناك كثير جدًّا ممن يعملون بطريقة مختلفة وحرجة.

وكُنتُ أعرف أن هذا الوضع لا بد أن ينتهي. حتى وإن لم أواصل الحديث عن ذلك الأمر. لم أخبر "يان" حتى الآن أنني قد اخترت مبنى المحكمة كمكان للتصوير، بدلًا من مخرج الجراج متعدد الطوابق. وهذا ما أسعدني أيضًا. في تلك الأثناء، كنا قد انتهينا من تصوير المشهد الرومانسي الكوميدي. شعرت بالخجل عند مشاهدتي للمشهد قبل العرض. وهدأت قليلًا لأن "يان" لن يشاهد على كل حال مثل هذا المشهد أبدًا.

إلا أن بحثي عن عمل مضى بشكلٍ مُتعثر. في البداية، تقدَّم "يان" (بعد بعض التردد) لوظيفة غير محددة المدة لدى مؤسسة قريبة من الحزب (وفجأة بدت مسيرته في الحياة تتَّسم بالاندماج في المجتمع والالتزام المجتمعي). لم أكن أجرؤ حتى على التخطيط لإجازتنا لأنه لم يكن هناك أي قرار محسوم بشأن عملي وعمله. لم أرسل سوى طلب توظيف واحد. وعلى الرغم من أنني لم يكن ينطبق عليَّ ما ورد في الإعلان عن الوظيفة إلا بشكلٍ جزئي، فإنني لم أستطع أن أترك فرصة الحصول على وظيفة في المدينة ذاتها – التي من المحتمل أن يعمل فيها الآن "يان" أيضًا – تمر دون أن أستغلها. والأكثر من ذلك، اعتبرت أن وقوع عينيَّ على إعلان الوظيفة يعد علامة مبشرة. لم أبدد تفكيري إطلاقًا في أنني قد أجد وظيفة تناسبني أكثر لو بحثتُ بصورة أدق.

كان "فينسنت" أيضًا يبحث عن أفكار مستقبلية جديدة. تخطَّت "ساندرا" هذه المرحلة، وأضاعت وقتها في العمل في وكالة أدبية. أما "ميريت" وصديقها فأضاعا كثيرًا من الوقت في البحث عن منازل آيلة للسقوط في الريف لكي يُجرِّبا أشكال التعايش متجاوزين الاستخدام اللغوي الشائع للكلمات... (تجنَّبا استخدام كلمة "**بلدية**"، وكانا يريان كلمة "**المسكن الجماعي مع ضيوف**" لها وقع تافه، ويعتبران كلمة "**الأسرة والأصدقاء**" أكثر بشاعة، وأن كلمة "مجموعة السكان في البيت والمؤمنين بالفكر اليساري الموقفي" تعد كلمة ظريفة بالفعل؛ ولكنهما في الختام وجدا نفسيهما "**في حالة تطلع إلى المستقبل**"). أبدى "ساشا" اهتمامًا بالإسلام، وأكد أنه لا يريد بذلك إثارة أي استفزاز. كانت "آن

كاترين" تخطط لحفل زفافها (على شخصٍ ما) وتضيع وقتها بانتظام في الانشغال بتجهيزات الحفل.

كان هذا هو الوقت الذي أرادت فيه "هيلترود" أن توقف دراستها، وتعمل فيه على توليد النساء، أو تصبح مدربة ركوب خيل وتحقق سعادتها. الوقت الذي كانت تسافر فيه "آنَّا" كل يوم إثنين لوالديها لتشارك في مظاهرات معهما. الوقت الذي كانت "جابرييلا" تعلن فيه يوميًّا عن أفضل أوقاتها (عند قيادة الدراجة وسكب صلصة الطماطم وإصابتها بالزُّغطة). والوقت الذي أخذت فيه "دانيلا" تنشر مشاهد رقيقة لمناظر طبيعية في مدونتها للصور. الوقت الذي ربطت فيه "أوليفيا" **حقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر** و**جماعات مناهضي التطعيم**، وقامت فيه "أنالينا" بالدعاية لكتبها الاستشارية (تُرى متى كتبتها؟)، التي لا يقل عددها عن ستة، على كل صفحاتها الموجودة على الإنترنت. الوقت الذي أضاعت فيه "باتريتسيا" كثير جدًّا من الوقت في السينما لدرجة أن فاتها الموعد النهائي لتقديم السيناريو الخاص بها. وعلى العكس من ذلك فقد أضاعت "فيرونيك" وقتها في الحضور دائمًا في الموعد المضبوط في حصص الرياضة والفن، التي كانت تدرسها في مدرسة ابتدائية مجانية. وأضاع "فابيان" وقته في دورات تعليم الكبار، حتى انتبه إلى أن رصيده البنكي لم يكن يمتلئ بصورة كافية، حتى عندما كان يعطي أربع دورات أسبوعيًّا في إحدى مدارس تعليم الكبار. واستطاع الجميع فهم أن "أولريكا" بدأت مرَّة أخرى في الدراسة؛ لكن لم يستطع أحد أن يستوعب أنها عادت من جديد لتتناول الطعام في مطعم الجامعة.

في تلك الفترة، سقطت طائرة بولندية، فضلًا عن الأخطار (التي ستصبح نسبية فيما بعد) الناتجة عن بركان أيسلندي، سوف تسد سحبه الرمادية بعد بضعة أيام المجال الجوي الأوروبي، وسوف تجعل نصف العالم – حسبما ساد الشعور – يقع في فوضى (سيلعب هذا دورًا من جديد عند الاستعراض الختامي الموجز لأحداث العام). بعد ذلك بوقتٍ قليل، انفجرت في خليج المكسيك منصة بترولية (سيظل البترول متدفقًا في البحر حتى دخول الخريف وسيظل الحديث دائرًا لوقتٍ طويل عن الآثار اللاحقة لذلك، من حين لآخر). وشيئًا فشيئًا، تطوَّر احتجاج "آنًّا" ليصبح حدثًا تجاوز الحدود المحلية.

وفي مقابل ذلك، لم تأتِني إلا دعوة واحدة للذهاب إلى مقابلة توظيف. كان فكري مشغولًا بتأثيث شقتنا المشتركة في المدينة، التي كان ينبغي عليَّ أن أذهب إليها للمرَّة الأولى في ذلك الوقت.

وصلتُ في الموعد المضبوط، وكُنتُ مسرورة بسبب الطقس (على الرغم من أن الطقس كان ربيعيًّا في المنزل أيضًا) وحتى فناء محطة القطار الغامض – بما فيه من كُشكٍ بالٍ، ومواقف الدراجات الممتلئة عن آخرها، وحارات الطريق المحددة بإهمال وتهاون والمخصصة للباصات والتاكسي – بدا لي جذابًا (سألت نفسي – ليس بحكم العادة فقط – أي نوع من الأفلام يمكن أن يبدأ تصويره هنا).

وجدت الباص المناسب، وأصبحت أقف أمام المبنى الكبير المكون من زجاج المرايا قبل عشر دقائق من موعدي. سرتُ وراء سيدة شابة رشيقة عبر الباب الدَّوَّار، واعتبرتها بشكل تلقائي متقدمة معي للحصول على الوظيفة. ثم خطر ببالي أنه من الصعب أن يطلب أحد مقابلتنا نحن

الاثنتين للتقدم للوظيفة في الوقت ذاته. كما اتضح لي من الطريقة البديهية، التي خطتْ بها عبر البهو، أنها كانت تعرف طريقها جيدًا (وأنها كانت معتادة على التحرك بملابس العمل الرسمية.

وظننتُ بالفعل – وأنا في منتهى الفزع – أنني تعرَّفتُ فيها على واحدة من النسخ البديلة لي أي على شبيهتي، التي لم ترتكب خطأ، والتي كانت تضيع وقتها بشكلٍ هادف. شعرتُ بالخوف من اللحظة، التي سأواجه فيها نفسي – بعد دقائق قليلة – بوصفي مديرة شئون العاملين في الفترة المقبلة). إلا أنها اختفتْ في ممرٍ آخر (دون أن تلتفت وراءها مرَّةً واحدة).

وصلتْ نسخة منِّي – كانت تشعر بالاضطراب – إلى الغرفة الخاصة بموعد مقابلة التوظيف، حيثما وجَّه لي أربعة رجال لطفاء التحية. كانوا يرتدون ملابس باللون الرمادي ورابطات عنق مخططة وبصحبتهم سيدة ودودة كانت ترتدي بلوزة بلونٍ مشمشي. جلسنا بشكلٍ دائري حول ثلاث طاولات مكتبية، كانت موضوعة تجاه بعضها بعضًا في علاقة هندسية معقدة. وبدا كأن أحدًا قد حاول إخفاء أركانها.

توجَّهتْ خمسة وجوه مهتمة بتركيزها نحوي. وشعرتُ بأنهم قد اخترقوني بنظراتهم. بينما حاولتُ أن أقنع هؤلاء الأشخاص بي وبكفاءتي المميزة، أخذتُ أنا نفسي أشعر بعدم الرضا عما يدفعني للتقدم للوظيفة. بدوت لنفسي مخادعة ومتكبرة ومخطئة لأنني لم أفكر سوى في حياتي الشخصية. فقد كُنتُ أريد أن أعيش وأعمل في المدينة ذاتها، التي يعيش ويعمل فيها صديقي. وكُنتُ أريد ترك وظيفتي القديمة وكسب مزيد من المال بطريقة مُريحة أكثر. لم أكن أهتم بالشركة وبوظيفتي المحتملة فيها، أي بعملي وبإسهامي فيها... (وهو ما لم يتضح لي بشكلٍ كبير إلا في تلك اللحظة).

أخذت أشعر أكثر أنني ملزمة بممارسة النفاق (أي بما تحول على هذا النحو ليصبح نفاقًا)، وبأن أُمارس استراتيجية تضع اعتبارًا لكل شيء وتعلم أنها مشكوك فيها وتنقلب على نفسها بشكلٍ منطقي. بذلت جهدًا كبيرًا في إخفاء اهتماماتي الحقيقية لدرجة أن استعدادي بعناية لهذا الموعد لم يسعفني. فتعثَّرتُ عند حديثي عن أمور تافهة بشرود وتجاهلتُ إشارات مَن اشتركوا معي في الحديث، ونسيتُ حتى أن أذكر، إلى أي مدى أفضل الانشغال بالأخبار، بشكلٍ يقترب إلى حد الشغف، حتى من دون أن تكون لديَّ خبرة صحفية.

إلا أنني لن أتذكر هذه المقابلة فيما بعد، إلا بشكلٍ منقوص ومشوه. كما تشابكتْ هذه المقابلة في ذاكرتي بشكلٍ كبير جدًّا مع صراعاتي الداخلية، التي حاصرتُ نفسي بها في تلك الأثناء. غير أن هذه المقابلة حاصرتني أيضًا، عندما أدركت قبل وقتٍ طويل أن هذا التليفزيون الداخلي للشركة كان فرصة عمل لا تُلائمني مثل مكتب مواقع التصوير السينمائية. حتى لو كان هذا التليفزيون موجودًا في المدينة المناسبة، وفي الوقت المناسب.

سارت مقابلة توظيف "يان" بصورة أنجح (وهو ما جعله يخاف من الاتصال بمنظمات الحزب المنضم إليه على المدى القصير فظهرت مخاوفه مرَّة أخرى بشكلٍ غير جاد تمامًا. ولأنه كان حاصلًا على منحة سابقة من هذه المؤسسة فقد أضاع – على كل حال – وقت أن يتقدم بأي اعتراضات

مبدئية. سيهتدي "يان" في أثناء فترة التدريب لطريقة خاصة به لتأييد الديمقراطية الحزبية بشكلٍ عام. وهو ما كان من شأنه أن يحول تنازلاته بعض الشيء لتصبح قناعات).

شعرتُ بالسعادة معه. شعرتُ بالسعادة من أجله. شعرتُ بالسعادة من المستوى الراقي، الذي استطاع به أن يُعلن تذمُّره، وأن يحافظ على ما تبقَّى لديه من تحفُّظات. شعرتُ بالسعادة لأنه – على الأقل – أصبح يتقاضى الآن أجرًا جيدًا. شعرتُ بالسعادة من كل تغيير حدث. شعرتُ بالسعادة من كل مرَّة أزوره فيها. شعرتُ بالسعادة من رحلات القطار الكثيرة، التي أصبحتْ تستغرق وقتًا أكثر مما سبق. شعرتُ بالسعادة من استكشاف مدينته على الجانب الآخر من القطار والباص والمقر الرئيسي للشركة. شعرتُ بالسعادة من الطقس المُتحسِّن باستمرار. شعرتُ بسعادة أكيدة تجاه مستقبلٍ من شأنه أن يقدم لي أنا أيضًا شيئًا ما، وسيقدمه. لكنني كتمتُ شعوري الغامر بالتفاؤل رغم كل ما شعرتُ به من سعادة.

افتقدت بالفعل وبصورة مسبقة شقتي الصغيرة، التي سأستطيع أخيرًا أن أنتقل منها. افتقدت المدينة، التي كُنتُ أركض فيها كل يوم لأذهب للعمل. افتقدت كل هذه المباني والشوارع والميادين، التي أصبحتُ أبذل جهدًا – من الآن فصاعدًا – لأجهزها لتكون كواليس تدور فيها الأفلام. ومن باب الاحتياط، تأمَّلتُ كل ما في المدينة، كأنني أراها للمرَّة الأخيرة. بدأتُ أفتقد رئيستي في العمل وأوقات العمل التي لا تنتهي وعملنا بلا كفاءة.

ولكن شيئًا فشيئًا، بدأت أيضًا أفتقد الطلبات البسيطة للالتحاق بفترات تدريب عملي في أثناء دراستي، وكذلك مواعيد مقابلات التوظيف الخالية من أي ضغوط، والتي لم تكن تتضمن أمورًا كثيرة. افتقدت مكتبة

بيع الكتب القديمة، التي ما زلت أمُرُّ عليها يوميّا مرَّات عدة. افتقدت دار الأوبرا. افتقدت حتى المتحف. افتقدت الأرشيف (ربما كُنتُ أفضل أن أعتذر بانتظام عن الحضور إلى هناك. على الأقل كُنتُ سأفعل هذا. لكن في ذلك الوقت كان الأوان قد فات لأن أفعل حتى هذا الأمر). افتقدت **"المشروع الثقافي لمجموعة أفراد الكومبارس"** (وافتقدت أكثر الآمال الخيالية الواهمة لإقامة مشاريع واتصالات، كانت مرتبطة بذلك المشروع). افتقدت شعوري بالفضول. افتقدت قناعتي وعدم تمييزي للأمور وعدم ترددي. افتقدت شعوري – الموثوق به كالمعتاد – بالخوف من أن يفوتني شيء ما (ما زالت ظروف العمل سيئة للغاية). افتقدت عدم انضباطي بالمواعيد قديمًا، وهو ما قررته بنفسي.

افتقدت موضوع رسالة الدكتوراه. افتقدت "جاك كيرواك". افتقدت جَدِّي (الذي كُنتُ أستطيع أن أتصل به في أي وقت وأُورِّطه في أحاديثٍ، لم تنتهِ أبدًا حتى الآن). افتقدت جدتي (افتقدت فرصة لقائها بلا تكلف. كان هذا يحدث في أفضل الأحوال قبل أن أفقد براءتي بسبب تعرفي على كثير من الجَدَّات في كتب الأطفال، اللاتي كان عليهن أن يقدمن الفرصة لأحفادهن ليعشن مغامرات حقيقية أو يسمعونهن على الأقل بآذان صبورة دائمًا. وفي الوقت ذاته بعد أن عرفت أن الحفيد المُدلَّل يحق له أن يشعر لمدة أسبوعين في العام بأن محور الكون يقع في مكانٍ آخر، وأن الأطباق المفضلة والحلوى لا تُفيد كثيرًا، بينما يتحدد له ما يجب أن يتحدث عنه وكيف يجب أن يتحدث).

افتقدت حتى جَدَّتي الأخرى (افتقدت على الأقل الشعور الواهم بأنني كُنتُ أستطيع أن أطرح عليها الأسئلة المناسبة في اللحظة المناسبة

بالضبط، والتي كُنتُ أتواصل معها بها بشكلٍ ساحر. أسئلة نقدية وثاقبة ومنطلقة عبر الأزمان بصورة محددة الهدف وكاشفة ومنقذة، لكن كُنتُ أرى عن نفسي أنها لم تكن كافية على الإطلاق من أجل اكتساب مثل تلك الخبرات الفكرية). وبالتدريج اتضح لي أنني أفتقد وجود طفل في حياتي (لكنني تراجعت لأنني لم يكن لديَّ ما تتطلبه الأمومة).

اتصلتُ بـ"آنَّا" وتوقَّعتُ أن تكون في حالة من حالاتها المعتادة للتشجيع على تحمل الفرد لمسؤولياته والشعور بالتفاؤل. إلا أن "آنَّا" كانت تناضل في مدينة "شتوتجارت" ضد **النظام**. لم أكن أفهم حتى هذا الوقت أي شيء. فرضت عليَّ "آنَّا" حينها أيضًا حديثًا، دار حول الأشجار. لم أنجح في أن أستجمع تضامنًا أكثر من أجل حديقة "شلوس جارتن" في "شتوتجارت"؛ فأصبح من السهل عليها أن تتهمني بإظهار التعاطف مع مشروعات البنية التحتية المبالغ في تكلفتها.

كان من الواضح تمامًا أنني لم أفهم جوهر الموضوع بشكلٍ غير سياسي. أو بخمول وراحة.

– إنهم يفعلون هذا ببساطة!

لكنها كانت تعارض ذلك الأمر، ولم تجعل الشعور بالمرح، أو بالأحرى الغضب أو الفرحة الممتزجة بالغضب تفسد عليها حياتها:

– من الرائع جدًّا أن الناس لم يعودوا أخيرًا يَقْبَلون على أنفسهم كل شيء! أي جميعهم! أفراد عاديون جدًّا. شباب وشيوخ! الجميع!

(من المؤسف أن الاستفتاء الشعبي لـ"شتوتجارت 21" أظهر أيضًا أنهم ليسوا الأغلبية).

كان "فينسنت" يعيش بالفعل في "بروكسل"، وكان غاضبًا من أن اشتراكه في مؤتمر في مدينة "تورونتو" سيمنعه من الذهاب إلى مهرجان استعراض الحب في مدينة "دويسبورج". ربما كان سيشعر بالسعادة من المشاركة في المهرجان، وبطبيعة الحال من المكالمات التليفونية الطويلة. وقال إنه سيعلن عن حضوره، لو أصبح لديه وقت ذات يوم.

ولذا اتَّصلت بـ"ميلاني" لكي أتسامر معها عن أطفالها، وعن فرص العمل المتاحة للأمهات، وربما أيضًا عن مشروع "شتوتجارت 21". واستعلمت منها في بادئ الأمر – بحكم العادة وليس بدافع الأدب – عن حالها وشعرتُ بالسعادة عندما أكدتْ لي أن حياتها الزوجية قد عادت من جديد، لأنه كان من الحتمي أن تستمر بسبب الأبناء وحدهم. إلا أنني أردت أن أنتقل للحديث عن موضوعاتي فذكرت لها ملاحظة قصيرة – تعمدت أن أذكرها بلطفٍ شديد – عن "أوليفر". وعندئذٍ أدركت "ميلاني" أنني لا أعرف ما حدث. لقد لقي شقيقها حتفه غرقًا.

– ماذا قلتِ؟ "توبياس"؟ هل هذه نكتة؟ هذا مستحيل.

اعتقدت أنني أخطأت السمع. لكن، نعم، لقد مات. قبل شهور بالفعل. لم أستطع فقط أن أدرك ذلك... (ولم يكن من الممكن إعادته إلى الحياة لو استفسرت أي استفسار باضطراب). لم أستطع حتى أن أعانق "ميلاني" عبر التليفون. مع أن هذا ربما كان سيجعلني في حالة جيدة. وهكذا لم أسمع عبر التليفون إلا صوت تنفسها وتحيات قالتها باقتضاب. إلى لقاءٍ قريب. حدث هذا بشكلٍ قريب للغاية. قريب جدًّا أكثر مما ينبغي.

بحثت بدقة على الإنترنت عن أي شيء يشير لوفاة "توبياس" وبدأت شيئًا فشيئًا أصدق ما حدث؛ حيث وجدت إعلان خبر الوفاة (وقعت الوفاة في المحيط الأطلنطي أمام الجزيرة نفسها، التي قضيتُ فيها أنا و"يان" أيضًا الإجازة) ووجدت كذلك بعض إعلانات العزاء. وخلافًا لذلك، لم أجد سوى منشورات قديمة، وصور كثيرة، ومقاطع موسيقية، ومقاطع فيديو، والتي أخذت أشاهدها بتأثر، وذلك على أنها - وبسبب أنها - بدت لا تشير هكذا على الإطلاق إلى هذا الموت المبكر، الذي تعرض له "توبياس".

تعرفتُ عن طريق الإنترنت إلى تصورات جديدة عن الحفلات الموسيقية. كانت بها موسيقى جديدة لم تخبرني بكثير حتى عند سماعي لها للمرَّة الرابعة. وجدت كذلك نصائح للياقة البدنية وحيل لبناء العضلات ونوبات هجوم مرارًا وتكرارًا على النشاطات السياسية غير الشرعية لوالده (الذي شعرت بالأسف من أجله بشكل لا يوصف).

لم يكن "يان" أيضًا يعرف شيئًا عن وفاة "توبياس"، على الرغم من أنه حرص في السنوات الأخيرة على الاتصال بـ"ميلاني"، وحتى بـ"أوليفر" (وهو ما لم أعرفه إلا في هذه المناسبة) – حتى إن كليهما ربما قد أرادا استغلاله ليصبح وسيطًا بينهما. كان هذا شاقًّا للغاية عليه. ولم أسأل نفسي حتى عما أخفاه عنِّي خلافًا لذلك. فقد كُنتُ منزعجة جدًّا من خبر الوفاة. مع أنني كُنتُ أعرف أن صغار السن أيضًا من الممكن أن يموتوا في أي وقت.

لقد توهَّمت منذ حادثة الدراجة، التي تعرضت لها، أنني أصبحت متأهبة دائمًا وفي كل مكان لحدوث أسوأ الأشياء. إلا أنني أصبحت أدرك – بيقظة من جديد – حقيقة أنني نجوت من هذا الحادث، وأنني قد أسأت فهم ذلك، على ما يبدو، عبر السنوات؛ فاعتراني – دون أن أن ألاحظ –

شعور متزايد بالأمان كما لو أنه لم يكن من الممكن أن يقع لي بعد حادث كهذا الحادث أي شيءٍ آخر.

والآن أصبحت أفكر مرَّة أخرى في الموت. أصبحت أفكر في "توبياس" (الذي كُنتُ أكاد أعرفه. وفي سنوات عمره البالغة أربعة وثلاثين عامًا فقط. سرعان ما سأبلغ أنا أيضًا مثل هذا العمر). بعد أسابيع قليلة، رأيت حلمًا، كأنني كُنتُ مضطرة لإعداد قائمة الموسيقى، التي تم تشغيلها في جنازته. وأفقت من النوم في غاية الخوف.

في وسط شعوري بالحزن، مات جَدِّي دون سابق إنذار، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الجميع يستشعرون ذلك في الجنازة (حتى القس. وكان الجو أكثر دفئًا). (كانت الوجوه نفسها حاضرة. لم تغِب عندئذٍ سوى إحدى شقيقات جَدِّي. لقد "اعتذرت" عن الحضور. كانت الثانية جالسة في كرسي متحرك. "نعم. الحياة تستمر". كان الموجودون يعرفون بعضهم بعضًا بشكلٍ أفضل من المرَّة السابقة، ووجدوا على الفور موضوعات للحديث، ووصلوا بسرعة أكبر إلى النقطة التي يموت فيها الحديث).

فكرتُ في "توبياس". لقد مات جَدِّي (كانت والدتي تقف نصف مُتَّكئة؛ فقد كان والدي يمسك مرفق يدها بكلتا يديه. كان الإرهاق مرتسمًا في وجهها. تحدثنا عن مسافة الرحلة الطويلة وعن أيام الإجازات الخاصة). وفكرتُ في "توبياس". لم أستطع أن أفكر سوى في موته المبكر هذا. ثم فكرت فجأة في جَدِّ "يان" وجَدَّته (فظيع. هكذا فكرت. وشعرت بالذعر).

5

-

كيف حال الطفل؟
- أي طفل؟
قلتها متفاجئًا [...]
- مَن هو الطفل؟ هل لديَّ طفل؟ صدقني، أنا أسمع هذا الأمر للمرَّة الأولى. [...].
- لكنك قلت هذا في روايتك [...].
- آه. فهمت.
[...] وفكرت هل ينبغي عليَّ أن أستدرك القول وأجعل [...] للطفل وجودًا حقيقيًّا.

"خافيير ماریاس" - "ظَهْر الزمن القاتم"

أضعت مزيدًا من الوقت في الخوف من أن أضيع وقتي بشكلٍ جاد. فكرتُ في "توبياس". وتمنيت أن يصبح لديَّ طفل. (وفي وقتٍ لاحق، أي في أثناء الحمل، سأُفكِّر أيضًا في "توبياس"، وسأخاف من أن أفقد الطفل مرَّة أخرى. لن أنشغل تقريبًا بالطريقة، التي أضاع بها "توبياس" كل شيء. فما شعر به والداه من ألم يجعل عشرات السنوات من عمره، التي لم يعِشها، سنوات باهتة.

وبوصفي أُمًّا لن يفارقني هذا الشعور ثانية. لكن شعوري بالخوف سيزول مع قلة مستوى هرموناتي بعد الولادة. وبمرور الوقت. ربما كان من الممكن أيضًا أن أقضي الإجازة مرَّة أخرى على البحر. ربما يكون هذا أمرًا طائشًا).

بدأت في تناول أقراص حمض الفوليك وأضعتُ كثيرًا من الوقت في قراءة مقالات صحفية عن مسائل تتعلق بالتربية واضطرابات النمو... (لم أكن بحاجة لقراءة مجلات تتوجه لفئات محددة. ففي كل مكان كان النقاش، الذي **يجمع بين الأمرين**، دائرًا. هكذا كُنتُ أدرك الأمر على الأقل في ذلك الوقت). لم يكن يشغلني أكثر سوى إعلانات الوظائف، وعروض إيجارات الشقق. ففي كل عطلة أسبوعية، كُنتُ أذهب مع "يان" للبحث عن شقق.

كان من الضروري منذ فترة طويلة أن ننتقل معًا. وبطبيعة الحال، كان هذا الأمر أيضًا خطيرًا. كنا نخاطر بشيءٍ ما! (بطريقتنا الحذرة!). وبعد أن اعتدنا بمرور السنوات على افتقاد بعضنا بعضًا، كنا نتصور بصعوبة كيف يمكن أن يظل هذا الشعور بالتوتر موجودًا بعد أن نقيم معًا في شقة واحدة. كان بُعد المسافة بين أماكن إقامتنا شاقًا ومكلفًا ومزعجًا، لكنه كان يجعلنا نشعر بالاشتياق لبعضنا بعضًا لمدة خمسة أيام في الأسبوع. لم يحدث أي اختلاف بيننا حول هذا الأمر. وبعد ثلاثة أيام على أقصى تقدير، أصبحت أنتظر اللقاء التالي.

(كان "يان" يدعي أنه يشعر بما أشعر به تمامًا، بينما كان يؤدي عملًا يحقق له شعورًا أكثر بالرضا). أحيانًا كان شعوري بالاشتياق كبيرًا جدًّا لدرجة أنني كُنتُ أخاف – عندما أكون في القطار وقبل الدخول إلى المحطة – أن ينكشف أن هذا الشوق مجرد شعور متكلف فاسد. ولم يكن بإمكان أي لقاء جديد (كان واحدًا من لقاءات كثيرة للغاية) أن يصمد أمام هذا التوقع.

لكنني كُنتُ أنشغل جدًّا بعد ذلك التفكير بأن أبحث عن مكان وجود "يان" على رصيف محطة القطار كي أواصل من ثمَّ التفكير. ودائمًا ما كُنتُ أشعر عندئذٍ بالاشتياق له من جديد. أحيانًا ما كُنتُ أصل إلى الشعور بافتقاده وأنا بين ذراعيه. كانت تكفيني حتى نظرة واحدة يتجنبني بها، وكذلك لحظات من التردد (كُنتُ سأفتقدها، لو أصبحت غير موجودة).

لم أنطق أيضًا بكلمة **غرفة أطفال**. فقد كنا نحتاج ببساطة لأي مكان. وعندما أصبح المكان متوفرًا أخيرًا، وعندما أصبح المكان شبه خاوٍ وبانتظاري (هو وكل ما سيأتي أيضًا)، أصبحت أفتقد أن تصبح لي وظيفة. كان هدفي أن أحقق الأشياء التالية بالترتيب: **شقة – عمل – تغيير محل السكن – طفل**.

إلا أنني عندما كُنتُ أرسل كل طلب جديد للتقدم لوظيفة، كانت أفكاري تقفز فقط إلى اللحظة، التي سأحكي لــ"يان" فيها عن قبولي في الوظيفة. لكن أفكاري واصلت القفز على الفور إلى اختبار الحمل، الذي سيظهر أنه إيجابي في وقتٍ لاحق. فمن باب الاحتياط، كُنتُ قد اشتريتُ بالفعل شريط إجراء اختبار الحمل. فرغبتي في إنجاب طفل لم تتغير أبدًا؛ وذلك على الرغم من أننا كنا نتناول موانع حمل. وحتى هذا الوقت لم أكن قد أشرت حتى بشكلٍ عابر إلى هذا الموضوع. وكُنتُ أكتفي بالضحك بسطحية، عندما كان أي شخص يحدثنا عن إنجاب طفل. لكن صبري نفد الآن.

لقد شعر "يان" أيضًا أن الوقت قد حان لأن ننجب طفلًا، حتى وإن لم يجد العبارات المناسبة تمامًا للتعبير عن ذلك. فكان يقول إن الشقة الجديدة خاوية جدًّا، ويقول:

– لقد بدأ الحمام بالفعل في بناء أعشاشه في البلكونة.

وكُنتُ أسأله:

– هل تحتاج إذًا إلى ربَّة بيت لتصبح خيال مآتة؟

لكن في عطلة نهاية الأسبوع، تحركت مشاعري أنا أيضًا نحو الحمام . برقتها البالغة وبشغفها لبناء أعشاش على الأرض الأسمنتية لبلكونتنا الصغيرة. غير مُبالية بالمرَّات الكثيرة التي طردناها فيها وأبعدنا فيها

غصون الأشجار والفروع الصغيرة من الركن، الذي اختارته في السابق لبناء الأعشاش.

أخذت الطيور تطير أكثر وأكثر متوجهة إلى هذا المكان، وكأن هناك قُوَّةً خارجية تتحكم فيها. وترقد بالفعل لتجرب كيف يفقس البيض... (وذلك حتى كنا نضطر في الختام لأن نهاجمها هجومًا كاملًا فنستطيع أن نفزعها، أو بالأحرى نطردها. وسيضطر "يان" لأن ينشغل بأمر مخلفات الطيور الموجودة حتى ذلك الوقت؛ لأنني سأخاف من أن أصاب بأي عدوى. وسأشعر بالأسف في الوقت نفسه على الحمامات المسكينة).

قال لي "يان" متأثرًا بأسلوب البرمجة الآلية:

– ليس باستطاعتها شيء آخر.

وأضاف:

– هل نريد نحن أيضًا أن ننجب طفلًا؟

بدا أنه كان يسأل نفسه هذا السؤال أكثر من كونه يسألني، لكنه عندما سمع إجابتي، هزَّ رأسه فقط، وقال:

– حسنًا.

(لاحظت كم أنني بالغت في توقع مقاومته للأمر وأصبحت مُرتبكة ومُشوَّشة ومُحبطة قليلًا. وسعيدة).

ما زلت أفتقد الوظيفة.

قالت لي "آن كاترين":

– امنحي نفسكِ مهلة.

عندما سمعت هذه الكلمة، كان عليَّ أن أفكر في حادثة الدراجة. إلا أنها أنجبت رضيعها في أثناء ذلك. وعندئذٍ لم يصبح هناك شيء يهمها أكثر من الانسحاب والهدوء. كُنتُ أحسدها، على الرغم من أن وقع صوتها كان يُوحي حقًّا بالتعب، وعلى الرغم من أنني كُنتُ أستشعر بالفعل أنها دمَّرت مسيرتها الوظيفية بمبالغتها في التخطيط لإجازة رعاية الطفل. (سوف يُفاجئني هذا الأمر نوعًا ما). لم أكن أريد أن أنتظر وقتًا أطول من ذلك لأنجب طفلًا... (وكان من الممكن بالطبع أن يحدث أي شيء في أي وقت).

كان من اللازم أن أُساوم الحظ. فخاطبت الصدفة وأنا أصيح: "ليس لديكِ سوى فرصة ضئيلة." وأضفت: "ولذلك أرجوكِ، يجب أن تستغلِّيها". عرفت حكايات كافية عن صديقات لي، وعن صديقات لهن، قرأن في الشهر الخامس من الحمل إعلانًا مناسبًا عن وظيفة خالية. وحكايات عمَّن انتهين في الشهر السابع من الحمل من تقييم حياتهن، ومَن سلَّمن بحث التخرج قبل أسبوعين من (الموعد المحدد) لولادتهن. ومَن حصلن – وهن في طريقهن لغرفة الولادة – على منحة الدكتوراه المهمة لهن. أو مَن أسَّسن شركة وهن ما زلن في فترة الوضع. وهي الشركة التي أنشأن بها أسواقًا متخصصة دون أن يتوقعن ذلك أو أغلقن بها على الأقل ثغرات في حياتهن.

وقد أصبح كل شيء خاضعًا لـ"جابرييلا" أيضًا، أو أنها مَن أخضعت نفسها لتلعب دور ربَّة منزل لها مُدوَّنة على الإنترنت خاصة بربَّات المنازل... (لكنها نادرًا ما كانت تحصل على وظائف ثابتة في عالم الصحافة. أي إنها على كل حال خاطرت بالمستقبل أقل من مخاطرتها

باختيارها لوظيفتها. وكانت "جابرييلا" مضطرة في بعض الأحيان لأن تعتبر تقبلها للواقع نجاحًا).

أما "ماريانا" فقد كان أبناؤها يؤيدون عملها (في مجال الأفلام الشبابية)، وذلك بعد لجوئهم لكثير من اللَّفِّ والدَّوران، الذي بدا بالتدريج غير مُجدٍ. لكن هذا لم يحدث أبدًا مع "ميلاني"، التي أصبحت تعيش في أثناء ذلك الوقت مع أبنائها لدى والدها ووالدتها... (عندما كُنتُ أفكر في هذه الأسرة، فإنني كُنتُ على كل حال أفكر في كلمات مثل "سوء الحظ" و"القضاء والقدر").

قررت أن أغير ترتيب الأشياء، التي خطَّطتُ للوصول إليها، وأن أركض مُتسرِّعة لأدخل مصيدة النساء من أجل أن أصل إلى أي وظيفة وأي قرار؛ وذلك لأنني لم أكن قادرة على الاختيار بسبب شعوري باليأس، وشعوري بالضغط بسبب اقتراب موعد الولادة. وعلى الرغم من ذلك، بدا لي أمرًا حقيرًا أن تحقيقي لهذا الهدف كان يجعلني لا أحتاج إلى طفل... (لكن أي سبب كان سيصبح مناسبًا للتخلي عن إنجاب هذا الطفل؟).

كنا نعي ما نفعل عندما توقفنا عن استخدام وسائل منع الحمل... (وهذا على الرغم من أننا لم نكن ندري ما ينتظرنا. لكننا كنا نعرف بالطبع ما سيحدث. كان من الضروري أن يحدث هذا).

تظاهرنا كأن كل شيء كالمعتاد. ومن المحبط أن أجسامنا كانت كذلك في حالتها العادية؛ أصبحنا نتقدم من بعضنا بعضًا (بمزيد من التردد،

وبقليل من القلق والضحك. لمسة للمرَّة الأولى)؛ ثم أصبحنا داخل بعضنا بعضًا بانفعال متزايد. شعرنا بنشوة أخرى، (وبمشاعر مثيرة متصاعدة (لا نعلم إن كانت ستصوب نحو الهدف مثل الرصاصة في لعبة "الروليت الروسي")، ولم نضحك بصوتٍ عالٍ). وأخذ جسدانا يحتكان ويصطدمان ببعضهما بعضًا وداخل بعضهما بعضًا (وتعمدنا أن ننسى النتائج الممكنة لما نفعل، والآن لم نعد نشعر بالتردد).

أخذنا نلهث (ونحن نقترب من بعضنا بشدة ونشعر باشتياق أوشكنا على أن نُشبعه). صرخنا (ناسين كل شيء)، ولم نكن نريد أن نتفرق عن بعضنا بعضًا؛ فتشبَّثنا ببعضنا ونحن نرتجف، ونتصبَّب عرقًا، ونتنسَّم الهواء بصورة خاطفة. ربما يكون هذا وهمًا. أو أنني تصورت الأمر هكذا في وقتٍ لاحق، مما اضطرني فقط أن أفكر فيما بعد في مشهد سينمائي، تقضي فيه إحدى السيدات ليلة واحدة مع رجل، ثم تقف على يديها وتحاول أن تحقق هدفًا أساسيًّا، وهو أن تحمل السائل إلى مكانه. أستطيع أن أتذكر هذا المشهد جيدًا.

ثم يصبح بعدها المشهد جادًّا. وأتخيل أن يظهر التصوير بالـ"سونار" صورًا لأطفال رُضَّع. أحاول أن أعرف طفلي الرضيع بين كل وجوه الأطفال التي ظهرت، حتى لاحظت أن طفلنا الرضيع ينظر لي... (ولم أستطع التعرف عليه إلا بذلك). وبنظرته إليَّ تخيَّلت نفسي بالفعل أسرع عبر الشوارع بصحبة سيارة أطفال ويفوتني الباص. وتخيَّلت رضيعي يسبح في الماء، وتخيَّلت أنني أقف بجواره وهو في عمرٍ مبكر وبدايات شعوره بالثقة، والوقت الذي سيتعلم فيه القواعد اللغوية.

لقد ظننت أنني رأيت في هذه النظرة بالفعل بريق المراهقة. وأخذت أفكر في اجتماعات أولياء الأمور وحوادث الدراجات.

– لعلنا ينبغي أن نستخدم وسائل منع الحمل من جديد في المرَّة القادمة؟

إلا أن هذا الأمر ربما كان متأخرًا بالفعل أكثر مما يجب... (وسنعرف بعد أسابيع أن هذا الأمر لم يكن متأخرًا بالفعل أكثر مما يجب). وعلى العموم، كان من الممكن أن يحدث حمل رغم استخدامنا لوسائل منع الحمل. قلت له:

– لكن هذا لا يحدث للأسف إلا نادرًا جدًّا... (ومع ذلك كانت الرغبة في الحمل تملؤني، على الرغم من كل ما شعرت به من خوف وبسببه أيضًا).

ظهرت في عديد من دول الاتحاد الأوروبي علامات على وجود أزمة اقتصادية، وذلك منذ وقتٍ طويل. وهي الأزمة، التي لم أكد أدركها أو آخذها على محمل الجد بشكلٍ خاص.. (حيث ظلت حياتي اليومية غير متأثرة بها. وصحيح أن البنك، الذي أتعامل معه، قلل على سبيل الاحتياط من الحد المسموح به للسحب على المكشوف، إلا أنه زوَّدني بنصائح للاستثمار بمختلف أنواعه)، دون أن أطلب ذلك. حدث هذا، حتى تم فجأة إنقاذ الـ"يورو"، وسمعت تقارير عن شقق خالية في مناطق قريبة، وعن أفكار للمستقبل تعرَّضت للدمار.

في ذلك الوقت، كان تغيير المستشار الاتحادي الألماني وهو لا يزال في فترة ولايته، أمرًا أكثر وضوحًا وإثارة... (ولأن رئيستي في العمل كانت

امرأة تتمتع بخيال خصب حقًّا، كانت تنظر منذ البداية لفترة رئاسة "كريستيان فولف" من منظور إمكانية تحويلها لعمل سينمائي).

ومن جديد أصبحت هناك كثير من مباريات كرة القدم... (كان جَدُّ "يان" يجلس وحده أمام التليفزيون ويتبادل، بين الحين والآخر، مع "يان" الحديث التليفوني عن نتائج المباريات). فكرت في "فينسنت" عندما شاهدت صور الكارثة، التي حدثت في مدينة "دويزبورج". وبعد ذلك بشهور ستنتهي حادثة انهيار منجم في "تشيلي" نهاية سعيدة.

لكنني لم أعرف بهذه النهاية، ولذلك لم أفضل أن أهتم بذلك الأمر. وعلى كل حال، استطعت أن أتجاهل الاعتداءات الإرهابية الكثيرة، التي وقعت في العالم والتي كانت أصغر من تلك الحوادث أو أكبر منها... (ووجهت لنفسي بالفعل اتهامات غامضة، كما لو أن شيئًا ما في تلك الحوادث يتعلَّق بمدى اهتمامي بها).

شعرت بانجذاب لا يقاوم حقًّا نحو أخبار متنوعة عن أطفال صغار تعرضوا لحوادث، وذلك على الرغم من أنني لم أستطع بالتأكيد أن أتحمل ذلك. وفيما بعد سوف أرجع السبب في هذا كله إلى هرموناتي الجنسية، والتي بدأت في أن تلعب معي لعبتها.

فبمجرد أن نعتاد على أن تحقيق الرغبة في إنجاب طفل لا يحدث بسرعة هكذا، أصبحت أمسك في يدي اختبار حمل نتيجته إيجابية. (على الرغم من أنني كُنتُ قد أجريتُ الاختبار فيما سبق في وقت الدورة الشهرية نفسه؛ لكنني أجريته عندئذٍ في وقتٍ مبكر أكثر من اللازم. والآن بدا أن النتيجة مقنعة بشكلٍ متزايد).

عندما أدركت "ميريت" أنني حامل، لعبت معي دور الحماة الشريرة، التي تشعر بقلق بسبب جميع المضاعفات التي تحدث في أثناء فترة الحمل. بدءًا من انجذاب البراغيث للدغ الحوامل، وحتى الإصابة بجلطة دماغية في أثناء الولادة... (لكنني كُنتُ أشعر في تلك اللحظة بالخوف بما يكفي لدرجة أنني تعجبت كيف عرفت "ميريت" كل هذا).

لم تذكر "ميريت" لي أن الأنشطة الروحانية التي كانت تقوم بها في عيادتها لتعليم فن الاستمتاع بالحياة، أصبحت شيئًا فشيئًا على وشك أن تختفي من القرية. وبدلًا من ذلك كانت سعيدة سعادة غامرة بدورها الصغير، الذي كانت تلعبه في أحد البرامج التليفزيونية. وهو الدور، الذي استطعت أن أوفره لها.

شعر جَدُّ "يان" وجَدَّته بخوفٍ حقيقي عندما علما بحملي. وبشجاعة شعرت جَدَّته بالسعادة أيضًا:

– ستجدون الحياة رائعة عندما تصبحون ثلاثة أفراد. عندما أنجبنا، كنا صغارًا في السن جدًّا. وكان أبنائي صغارًا بعد ذلك، عندما أنجبوا بالتأكيد.

كانت تجلس بجوار المنضدة التي تحمل الصور العائلية. بدت والدة "يان" في الصور جميلة ورقيقة ولا تزال شابَّة. شابَّة للغاية وسط الصور الكثيرة لابنها المراهق الطويل.

تنهَّدت جَدَّة "يان". ربما كانت تتأوه فقط، لأنها كانت تنهض من جلستها في الوقت ذاته. غاصت قدماها في السجادة الناعمة فاتحة اللون؛

لكنها وصلت إلى النافذة بسرعة أكبر مما توقعت. إلا أنها لم تنظر منها نحو الخارج؛ وإنما نظرت إلى الأرض بجوار المدفأة. وظننت أن اللحظة قد حانت لتحكي لي عن ابنتها وهي موجودة أمام الستائر والنباتات الكثيفة الموضوعة في الأصيص.

كانت ابنتها **مقبلة على الحياة** و**متعطشة للاستمتاع بالحرية**، (لا سيما في أيام الأحد صباحًا). لكن هذا لم يتناسب كثيرًا مع غرفة معيشة والدها ووالدتها التي أسسوها بعناية وحب. (لكن ربما أدرك الناس الموجودون في أماكن أخرى غير هذا المكان عمق الأزمة التي مرت بها الابنة في فترة المراهقة. وربما رؤوا بصفة خاصة مخاوفها، وحالاتها المزاجية الكئيبة، واضطراباتها الذهنية، وميولها الفصامية، وشعورها بالاشتياق للماضي).

لم أكد أتحمَّل ما في الغرفة من بُؤس، وما مرَّت به هذه الأم المغلوبة على أمرها، وابنتها المتوفاة من بلاء... (ولم أكد أتحمَّل أن يتظاهر حفيدها بأنه متزن. لقد أنجبته والدته مُدمنة المخدرات نتيجة علاقة غير شرعية. ورغم كل ما تعرَّضت له من انتكاسات بدا أنها نجت دون عواقب من المخاطر القصوى، التي تعرَّضت لها في أثناء الحمل وذلك بعد توقفها عن تعاطي المخدرات. كان الجميع مُعتادًا على هذا. لكن لم يكن هذا الاعتياد عزاءً لهم. ولم يجعلهم أيضًا يتعجبون بشكلٍ كافٍ).

كلما طال صمت جَدَّة "يان"، تزايد شعوري بالخوف أن يكون كل كلامها، الذي كُنتُ أنتظره، ليس سوى عبارات، سبق وأن حكاها لي "يان". أي تلك الجمل التي كان يقول فيها "لم نستطع بالتأكيد أن نُدرك كل الأمور الخاطئة، التي سنفعلها". تلك الجمل، التي يتركز فيها الشعور بالذنب على الرغم من إدراك الإنسان في الوقت ذاته أنه يلعب دور الضحية.

جمل من قبيل: "كل الهموم، الهموم، الهموم. ليس بإمكانك أن تتخيَّلي كم عانينا معها. حتى اليوم. الأمر لم يتوقف. ولا شيء يفيد مُطلقًا". انتظرت العبارات، يملؤني الشعور بالإزعاج. فقد كُنتُ أظن أنني أعرف بالفعل ما الذي سوف يحدث. وكُنتُ أشعر بشكلٍ غير مبرر أن جَدَّة "يان" سوف تردُّ عليَّ بشيء غير الصمت بسبب شعورها بالتأثر.

إلا أنها اعتذرت فقط بصوتٍ منخفض أنها أثقلت عليَّ بهمومها، وأنها ترجو ألا تكون قد نقلت همومها لي. استنتجت من هذا أنها لا تعتبرني بالطبع فردًا من أفراد العائلة، وهو ما أشعرني بالإساءة، ولكنه منحني شعورًا بالرَّاحة... (ومن باب الاحتياط، لم يكن "يان" يؤمن بوراثة الأمراض والطباع من الأسرة... (ومن باب الاحتياط أيضًا)، تخلَّى عن اللجوء لأي مخدرات. وكان مستعدًا **للأمور، التي لا يمكنه الاستغناء عنها بالتأكيد**. لقد تعلَّمت أنه من الأفضل ألا أجعل السبب في هذا السلوك يرجع لي).

احتفل والدي ووالدتي بخبر حملي ببهجة تتناسب مع الخبر. لم يسمحا لي بأن أشعر حتى بأقل مخاوف بسبب مستقبلي المهني. (**لكنكِ تجيدين الإنجليزية بالطبع**). فجأة أصبحا لا يهتمان إلا بمهمة أن أنجب، وهو ما كان له أثر يهز القلب بشكلٍ مزعج. أخذت والدتي تتذكر فترة حملها هي نفسها وأوضحت لي في التليفون (بنبرة صوت أعادتني حقًّا لفترة طفولتي) ما الذي ينتظرني.

ساقان منتفخان، وآلام في الظهر، وأوجاع الولادة، ودمامل في الصدر. سوف أنسى هذا كله سريعًا. إلا أنها بدت تنسى شيئًا واحدًا باستمرار. فعندما سألتها، هل كانت تشعر بغثيان شديد في أثناء الحمل، كان عليها أن تفكر قائلة:

– من المحتمل. أجل. بالتأكيد.

منذ الأسبوع الخامس من الحمل، أصبحت أشعر بغثيان لم يسبق لي قط أن عرفته. لم يكن باستطاعتي أن أحدد مصدر شعوري بالغثيان في بطني. وتسبب لي الغثيان في أزمة عميقة عند التذوق. لكنني لم أضطر أبدًا لأن أتقيَّأ. وأحيانًا ما كُنتُ أستطيع أن أخفف هذا الشعور المستمر بأنني لست على ما يُرام عن طريق تناول للطعام. إلا أن هذا كان لم يكد يزيد شهيتي للطعام.

كان من الصعب تجاهل الوضع، الذي مرَّت به معدتي ومخي وتجويف فمي، لدرجة أنني لم أستطع أن أتخيَّل أنني سأنسى مثل هذا الوضع للأبد. ولمدة تزيد على ثلاثة أشهر، سيكون هذا الغثيان سببًا في كل ما شعرت به من مخاوف وما شعرت به من هدوء وسعادة بشكلٍ متزايد أيضًا.

عرض والدي ووالدتي على الفور أن يحملا من السندرة كل الألعاب، التي كانت متبقية هناك. وسيعيدان في الأشهر التالية تحويل غرفة الضيوف في منزلهما إلى غرفة أطفال. وفجأة سيجعلهما حفيدهما أكبر سنًّا بشكلٍ مثير بعد ولادته.

هنَّأتني رئيستي في العمل بوجهٍ مُشرق بعد أن عرفت سبب استقالتي. وقالت إنها كانت تريد وهي صغيرة أن تنجب طفلًا. كانت تريد هذا الأمر آنذاك أكثر من أي شيء آخر. وبعد ذلك كانت دائمًا ما تحدث أشياء كثيرة جدًّا. أخذت تتذكر وتذكرني بزوجها السابق، الذي كان يعمل مُصوِّرًا، والذي لم "تشعر سوى بالإعجاب نحوه منذ اليوم الأول وحتى اليوم الأخير". وبدا أنها ما زالت مفتونة به. وقالت إن الوقت سرقها فيما بعد. وإنها تشعر بسعادة **بالغة** من أجلي، وإنها سوف تحضر لي على الفور الخيار المخلل أحيانًا والشوكولاتة في أحيان أخرى حسب شهيتي (وهو ما نسيته هي لحُسن الحظ).

جعلتني رئيستي في العمل أُحدِّث إعلان الوظيفة القديم، وواستني بصورة نموذجية تجاوزت وداعنا المنتظر. ووعدتني بأن تساعدني في البحث عن وظيفة وأن تجعل اتصالاتها **تلعب دورها**. ثم واصلت عملها وصاحت بحماس:

– كوارث! ليست سوى كوارث!

ومنذ هذه اللحظة، أصبحت هرموناتي مسؤولة عن كل خطأ يقع في المكتب.

بدأت أستعد للانتقال من المكتب. وأثناء أعمال الترتيب عثرت عن طريق الصدفة على قصاصة ورق مكتوب عليها **تخلص من كل شيء! انطلق! انفجر! في النهاية عش حياتك!** كان هذا مكتوبًا بأحمر شفاه باهت يميل لونه إلى اللون البني (وكان في السابق يميل إلى اللون الأحمر؛

فتذكرت درجة اللون المفضلة لي آنذاك، أحمر مُلتهب). (ولا بد أنه كان أحمر شفاه، على الرغم من أن الأقلام الحبر كانت في متناول يدي. كان ينبغي عليَّ ربما أن أزيل هذه الورقة من القوائم الأخرى للأشياء التي كُنتُ أريد أن أفعلها).

ابتسم شيء ما بداخلي تأثرًا بتلك الذكرى الخاصة بـ"جاك كيرواك"، بينما لم يكن ممكنًا لشيء آخر بداخلي سوى أن يبتسم بتهكم على الكتابة المفككة بشكلٍ مُزعج. وبدا لشيءٍ ثالث بداخلي أن التَّشنُّج، الذي تعرَّضت له فيما بعد أيضًا بسبب الامتحانات، كان مرحلة حياتية مُجهدة نسبيًّا. فقد كُنتُ أُقيِّد نفسي وأُكثِّف مجهودي فيما سبق، ولم أكن أتصوَّر أن هناك حياة حقيقية في غير هذا المكان. ولأنني أيضًا وقعت في الحب، وهو ما أدركه شيء رابع بداخلي. كل هذه الأشياء انسجمت بداخلي على أكمل وجه. وألقيت بالسبب في هذا على الهرمونات، وهو ما فعلته مع أشياء أخرى كثيرة أيضًا.

كان هناك شيء ما بداخلي يستشعر الهرمونات بشكلٍ مباشر. شعرت بهذا، عندما كان "يان" على علاقة معي، وعندما كان رجال آخرون ينظرون لي. ما زلت لا أبدو كامرأة حامل، وما زال لديَّ وقت لأستمتع بقليل من الحرية. وذلك حتى انتهاء مهلة فسخ العقد، وحتى انتقالي من المكتب.

أساءت "آن كاترين" فهمي، ونصحتني بشدَّة بأن أنام على سبيل الاحتياط. (إلا أن شيئًا ما بداخلي ربما كان سيفضِّل أن يعيش كل شيء بسرعة، وهو ما سيصعب أن أحكيه لأحفادي. أقصد بهذا الشيء "أنا موازية" لشخصيتي. وهي "الأنا"، التي مرَّت بمرحلة مراهقة متأخرة

وتعذَّبت بسبب الوحدة وضغط العمل الآخر بسبب الماجستير ولطَّخت ورقة بقلم أحمر شفاه مُنتهٍ حتى مُنتصفه).

كانت هذه "الأنا" أيضًا تشعر بالغثيان. إلا أن هذا الغثيان كان يزيد من شعورها غير الواضح بالاشتياق للطفل القادم. ومن ناحية أخرى، فإن كل "ذواتي" شعرت في شهور الحمل هذه بالنفور من الكحوليات ومهدئات أخرى... (لأنني كُنتُ أودُّ أيضًا أن أحكي هذا للأحفاد). ولم أعد صغيرة بما يكفي لأستطيع (وأضطر. حتمًا) عند القيام بأتفه مغامرة لأن أذهب بتفكيري إلى الجانب الآخر غير المتوقع منها وما يرتبط بالمغامرة حتمًا من تعقيدات... (وهذا ما أرجعت السبب فيه إلى مجموعة هرموناتي).

اتصلت تليفونيًّا بـ"فابيان".. (وراجعت هل رقم تليفونه المحمول صحيح). وذلك قبل قليل من تغير كثير من الأمور بالنسبة لي. لم أذكر له أنني حامل ولا حتى أنني سأرحل بعيدًا. كان يضحك كثيرًا كأنه كان يشعر أنني ضبطته متلبسًا بشيء ما. وفي النهاية، اعترف أنه تقدم بطلب ليتلقى تدريبًا يؤهله للعمل مُدرِّسًا. وقال إن هذا لم يُفده في شيء، وإنه يجب أن يصبح مُدرِّسًا.

سألت نفسي، كيف يمكنني أن أُهنِّئه دون أن أزيد من شعوره الواضح بالهزيمة. في الحقيقة كُنتُ أشعر بأنني أحسده أكثر من شعوري بالشفقة عليه؛ فقد كُنتُ غاضبة من أنني سمحت بإبعادي عن هذه الوظيفة التي

كانت تمنحني الشعور بالأمان والمناسبة لظروفي الأسرية. كان الأمر صعبًا بالطبع على "فابيان".

على الرغم من أنه قال إنه لا يخاف من الأطفال! ولا يخاف أيضًا من الشباب ولا من آبائهم وأمهاتهم! ولا يخاف حتى من أن يخضع للمراقبة والتقييم بشكلٍ مستمر على يد إدارة المدرسة وقسم التدريب. وهو ما كان ينتظره في العامين التاليين. وأضاف أنه تدرَّب بالفعل على الاتجاهات التربوية السائدة. والتي قال إنها واجهته:

– الإبداع والاعتماد على الذات. لقد تصارعت مع هذا كله أكثر مما ينبغي.

وأضاف أنه إذا كان من الواجب – حسبما يُقال – الاستعانة بقليل من الفن المسرحي والرقص وما يوجد في وسائل الإعلام، والموسيقى، ووهم الحرية، وحق تقرير المصير ليتزود كل التلاميذ بالحماس الأساسي للتعلم وبالمهارات المنهجية، فإنه سيفعل هذا من تلقاء نفسه بكل سرور.

وبالطبع يبقى الشك في هذا قائمًا. وتساءل "فابيان" هل سينجح هذا الأمر وفقًا لكل التعليمات وآفاق التوقعات؟ وهل لن يكون من المُخيف أن ينجح؟! ففي النهاية، هذا الأمر ليس سوى نظام مُخادع بصورة أكبر واستغلال لكل شيء يحبه. وعلاوة على ذلك فهو استغلال كاذب.

– فلا أحد يُريدهم على الإطلاق؛ أعني تلك الجموع التي تريد أن تنشغل بشكلٍ جادٍّ بالفن ووسائل الإعلام بعد الانتهاء من الدراسة في المدرسة. هذا ما تعلَّمته حقًّا. لكن لا، لا، لا. كل هذا ليس له مكان سوى في المدرسة فقط.

وهكذا كان جسده يقشعر بالفعل من فكرة أنه يرى نفسه يُصمِّم واجبات إبداعية، ليست سوى تمارين تُؤهِّل التلاميذ لمادة تعليمية أكثر أهمية.

اقترحت عليه قائلة:

– فلتعتبر ما تشعر به ثأرًا من الفن، الذي لم يقابل حبك له بما يكفي من الحب.

عندئذ أصبح صوت ضحكته سعيدًا للمرَّة الأولى؛ وذلك حتى خطر بباله أن مثل ذلك الرأي يتجنَّى بالفعل على مدرس الموسيقى، الذي كان يعلمه فيما سبق. لقد كان هذا المدرس عازف بيانو فاشلًا، لم يكن يخفف من أسلوبه المُستبد في الحصة سوى أنه كان لا يُبالي بشيء.

– غريب!

قالها، وأضاف:

– في السابق كانت المواد الموسيقية مُملَّة. والآن يُراهن الناس على جاذبيتها ويظنون أن الأطفال لا يحتاجون سوى بضعة عروض موسيقية يقدمونها بأنفسهم لكي يكونوا قد شاركوا بذلك في كل شيء.

قلت له:

– لكنك تعرف أن هذا لم ينجح أبدًا.

اعترف قائلًا:

– على الأرجح. فنحن أيضًا لم نأخذ كل الكلام بمعناه الحرفي. ولم يزد حماسنا كثيرًا. كما كنا لا نسمح كذلك للحصص السخيفة بأن تفسد علينا كل شيء.

وأضاف:

– يجب بكل الوسائل طبعًا جعل المُراهقين شبه الأُمِّيين يهتمون بأي شيء غير الاهتمام بميولهم نحو تدمير أنفسهم، وغير انشغالهم بالبيئة المُدمِّرة المحيطة بهم. أيًّا كانت طريقة ذلك الاهتمام.

لكنه يشعر بالأسف بسبب بعض تلك الوسائل.

– فعلى سبيل المثال مسرحية "صحوة ربيع"، حسنًا لقد فقدت تلك المسرحية قيمتها. على الرغم من أن فرقة مسرحية من بين كل فرقتين مسرحيتين في البلاد كانت تمثل تلك المسرحية، لكنها تعد مهمة لمستقبل موسيقى الـ"هيب هوب" "Hip hop"؛ فهناك أطفال يجتهدون أكثر فأكثر للتعبير عن آرائهم وخبراتهم عن طريق شكل موسيقى "الراب". في حين أن هيئة التدريس المرتبطين بشدة بمشاهد المسرحية، أو أيضًا بإيقاعها فقط سيتوقفون عن ذلك.

كان "فابيان" يخمن هذا الأمر فقط. وبالطبع لم يكن يرضى بأن يجعل الحصة تتضمن كل شيء، وأن يجعل كل ما فيها متعلقًا بالمدرسة فقط، وأن يقلل من قدرات التلاميذ على إبداء المقاومة، أو يسيء استخدام تلك القدرات بطريقة تربوية.

– مع أنني مضطر لأن أسأل نفسي بالطبع ألم أستخدم أنا نفسي هذه الأداة... (كلما كانت الأداة أضخم، كان هذا أفضل!). استخدمتها لكي أتغلَّب على ما واجهته من سوء حظ في حياتي الشخصية ،ومع ذلك فقد غرقت وبرضا عن نفسي في تقدير الآخرين بشكلٍ كبير. وما هو الشيء البشع في ذلك؟ نعم، نعم، نعم! سأفعل، ما أستطيع فعله. أنا أجمع بالفعل الكارتون ومقالات صحفية وتمثيليات إذاعية قصيرة للفنان "هيلجه شنايدر". لا بد وأنه جعلهم ينجذبون للحصة بأعمال الفنان "هيلجه شنايدر"، أو على الأَقل ينجذبون لاسم "هيلجه شنايدر". حسنًا، ربما يكون وقت هذا الأمر قد انتهى أيضًا في الوقت الحاضر، لكن مسرحية "إيفون. أميرة بورغندي" قدمتها فرقة عظيمة، وكان موضوعها يدور حول المضايقات التي تقع بين زملاء العمل. إنها عمل يناسب سن التلاميذ

بشكلٍ مثالي! ولن أتوقف حتى أمام أعمال "بيكيت". على الرغم أنني كُنتُ أرى مسرحيته "أيام سعيدة" مثيرة للإعجاب. كان عدد شخصياتها قليلًا جدًّا. ويمكن بالطبع أن نستخدمها في أي مشروع بحثي، لكن في النهاية كانت هذه هي المدرسة.

كُنتُ سأشعر بسعادة لو كانت لديَّ فرصة وظيفة ثابتة. وكُنتُ سأشعر بسعادة لو كان أحد مثل "فابيان" ممَّن درَّسوا لي. وسأشعر بسعادة بالغة لو أن أحد ممَّن سيدرسون لابني مثل "فابيان". لكن كان سيسعدني أيضًا لو كان "فابيان" يعرف موضوعات مثيرة أخرى. رغم ذلك لم أُنهِ المُكالمة التليفونية، إلا عندما رنَّ جرس الباب.

كانت "ميلاني" تقف أمام الباب. ومعها "لوليك" و"بوليك".. (كان اسماهما الحقيقيان يختلفان عن هذين الاسمين، ويبدوان أيضًا بمظهر مختلف بعض الشيء).

فكرت كثيرًا جدًّا في شقيقها، لدرجة أنني لم أعرف حتى كيف ينبغي أن أُرحِّب بها. دفعت "ميلاني" توأميها وحقيبة سفر كبيرة في ممر منزلي الضيق، واعتذرت على الفور أنها لم تخطرني بزيارتها.

– لكن لو كُنتُ اتَّصلت بكِ تليفونيًّا، كُنتُ ستُجهِّزين نفسك.

قلت لها:

– نعم.

– وكُنتُ سترفضين.

لم تعطِني وقتًا ليكون لي رد فعل، ولأنفي، ولأحتج. وإنما واصلت حديثها على الفور؛ فقالت إنها لم تعد تحتمل الأمر ببساطة، فانطلقت مغادرة. وتركت كل شيء وراءها مع طفليها. يجب على الإنسان أن يتحمل العواقب. فالأمر المستحيل مستحيل.

امتلأ شيء ما بداخلي بشعور أكيد بالتضامن معها. بدت "ميلاني" مُرهقة، لكنها كانت حذرة. ولم تكن تضع كثيرًا من مساحيق التجميل. حاولت أن تضطلع إلى الشقة عبر الأبواب الثلاثة المفتوحة في الغرفة والمطبخ والحمَّام.. (فكانت تنظر إلى هذه الشقة الصغيرة التي كانت تصبح ضيقة بالفعل عندما كان "يان" يزورني). كما حاولت بذلك أن تجعل طفليها في مرمى بصرها. وكانت تنظر لنفسها على الرغم من كل شيء حولها بالمثل... (أي تنظر إلى نفسها بالمثل وتتأثُّر. هكذا رأى شيء ما بداخلي) على العكس من ذلك، فلم أكن أعرف الأطفال إلا من صور لهم. والآن...

زعمت "ميلاني" قائلة:

- إن جسديهما صغيران بالمقارنة بعمرهما.

(لعل هذا كان ينطبق على الأقل على أحد توأميها).

رأيت الطفلين يقفزان على سريري. شيء ما بداخلي، لا كل شيء بداخلي، كان يعرف أن هذه ليست اللحظة المناسبة للحديث عن "توبياس"؛ لكنني كُنتُ مضطرة لذلك. استغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى أدركت "ميلاني" عمومًا، عما كُنتُ أتحدث.

- نعم. ماذا ينبغي أن أقول؟

قالتها، وأومأت برأسها في الختام، وأضافت:

– هل يمكننا أن نبقى لديكِ؟ نحن لا نحتاج ببساطة سوى لأن نحيا حياة طبيعية قليلًا.

ارتجف شيء ما بداخلي متراجعًا. وشعر شيء آخر ما بداخلي بسعادة ساذجة من تصوُّر وجود حياة طبيعية مع أطفال في شقة مكونة من غرفة واحدة. وتنبَّأ شيء ما ثالث بداخلي (شيء ساخر) أنني لم أعرف كم كانت الشقة ضيقة حقًّا، إلا قبل قليل من انتقالي إليها. وتدافع نحو الأمام شيء ما بداخلي، كان لا يفكر سوى في مساعدة صديقة تمر بأزمة. وفي أن أستطيع التحدث مرَّة أخرى مع "ميلاني".

لكن الوقت كان طويلًا، حتى أخذ "لوليك" و"بوليك" يتسللان في آخر أركان شقتي، وحتى كُنتُ أمسك بهما من جديد، وحتى تقشرت ركبة "لوليك"، وحتى هدأ التَّورُّم، الذي أصاب "بوليك"، وحتى تحوَّل سريري إلى معسكر عائلي وأقمت لنفسي على الأرض شبكة من الحصيرة التي أجلس عليها لممارسة اليوجا، والوسائد الإسفنجية، والوسائد التي أضع عليها مؤخرة رأسي، وغطاء خفيف، وحتى أخرجنا فرشتي أسنان كليهما ووضعناهما في فميهما بعد كثير من الصراخ والقفز، وحتى نام الطفلان أخيرًا في السرير، وحتى وضعتهما "ميلاني" في وضع النوم أسفل أغطيتي وداعبتهما بهدوء. وبقيت راقدة بجوارهما على الفور في إنهاك.

أطفأت آخر نور مضاء، وجلست على حصيرتي، وأمسكت ببطني. كانت لديَّ أسئلة كثيرة جدًّا وحكايات كثيرة جدًّا. لكن لم يكن يصل إليَّ من السرير دائمًا سوى صوت تنفُّس منتظم، ثم صوت خشخشة، وصوت تزحلق، وصوت حركة باستدارة وتقلُّب. على ما يبدو، خلعت "ميلاني" قبل أن تستغرق في النوم فستانها الضيق جدًّا وحمَّالة الصدر والجوارب

الطويلة. وأخذت فيما بعد تتسلَّل بشكلٍ أكثر حسمًا في مشمع النوم الخاص بي.

وأخذتُ أنا أفكر في الأسابيع، التي سافرنا فيها بالقطار. فبعد سنوات قليلة من قضائنا عامًا دراسيًّا في المدينة الصغيرة نفسها في "كاليفورنيا"، سافرنا معًا عبر أوروبا. نحن ننتمي بالأساس لمناطق مختلفة وبدأنا في الدراسة في مدن مختلفة، لكن عندما سألتني "ميلاني" هل أريد أن أذهب معها، وضعت رواية "على الطريق"، التي ظلت موجودة منذ بعض الوقت على كومة الكتب بجوار سريري، في حقيبة ظهري وانطلقت مسافرة، لكنني فضلت أن أقرأ روايات "ميلاني" البوليسية في أثناء الرحلة.

وكانت "ميلاني" تترك تلك الروايات في بيوت الشباب والمقاهي، بمجرد أن كنا ننتهي من قراءتها. وبعد أن قرأت أول مائة صفحة من رواية "على الطريق" كدت أتركها وأواصل السفر من دونها. إلا أنني أعطيت "كيرواك" فرصة أخرى. ولم أعطِ فرصة لكتاب السفر الإرشادي، الذي كتبه "كارل بايديكر" عن إيطاليا وكان يخص والدي ووالدتي. وبعد أن شاهدت متحفين من دون "ميلاني"، فقدت أيضًا الرغبة في ذلك. ولم نشترِ أي دليل سفر آخر. فقد كانت "ميلاني" تزعم أنها تعثر بالغريزة على أفضل المحلات والمطاعم والناس.

وعلى الرغم من ذلك، أرادت "ميلاني" أن تذهب إلى ساحة "سان ماركو" في مدينة "البندقية". أخذنا نتأمَّل السُّيَّاح والحمام. كان أحد مَن يعزفون الموسيقى في الشارع يعزف على آلة "الباندونيون". أخذت "ميلاني" تؤدي بعض الخطوات من رقصة "التانجو". وعلى الفور

وجدت مَن يشاركها الرقص. كُنتُ أعرف – أجل، بما يكفي – أن "ميلاني" تحب الرقص.

لكن الآن، أي بعد عام تقريبًا من حادث الدراجة، الذي تعرَّضت له، بدا لي من غير المعقول، كيف كانت تحلق مع الموسيقى، وتبقى مسترخية مع الإيقاع، ولا تحتاج لأن تنشغل بحركة قدميها، وتستطيع أن تجعل حركاتها متلائمة مع شريكها في الرقص، الذي لم تكن تعرفه. كما بدا لي من غير المعقول مَن كان هذا الشاب ذو الوجه الشاحب دائمًا أيضًا، ومن أين أتى؟... (كانت ساقاه طويلتين نحيفتين. يرتدي بنطلون بذلة رمادية، وقميصًا أبيضَ ضيقًا جدًّا وكُمَّاه قصيران. كان أنفه كبيرًا، وشفتاه غليظتين ومستويتين حتى جانبي زاويتي الفم، لدرجة أن فمه كان يبدو مربع الشكل).

كان يتحدث مع "ميلاني" إحدى اللغات بطلاقة، وبتنويعات كثيرة. كان هذا مثل مشهد في أحد الأفلام الروائية. ففي تلك اللحظة، نشأ عرض راقص دقيق ومعبر بقوة؛ ولكن مع حذف تصميم الرقصات والتَّدرُّب عليها بصورة متعبة (والتي لم يكن يعرف سواي أنا وكلا الراقصين أنها لم تكن موجودة في الأساس في هذه المرَّة). أخذ الناس المشاهدون لرقصهما يتزايدون أكثر فأكثر. وشعر عازف آلة "الباندونيون" بالسعادة من سيل الأموال المُنهمرة عليه، والتي كان يقصد مَن دفعوها أن يمنحوها للعازف ولـ"ميلاني" وشريكها في الرقص. وواصل العازف عزف الموسيقى. وأخذ يواصل العزف من جديد.

وأخذت أظن شيئًا فشيئًا أنني أسمع مقطوعات موسيقية مُكرَّرة، عزفها في البداية. وأنني رأيت رقصًا مُكرَّرًا أيضًا. أخذت أبحث أين تنظر

"ميلاني". كانت تنظر في الفراغ (وبشكلٍ به تركيز وإرهاق أكثر مما ظننت). حاولتُ أن أُومئ لها بيدي وغادرتُ المشهد. من أجل أن ألقي نظرة فقط على الفُسيفساء الموجودة في كنيسة "سان ماركو". كانت طوابير الانتظار أمام المدخل أقصر قليلًا، وكان الدخول مجانيًّا.

عندما خرجت من الكنيسة، كان عازف الموسيقى والراقصان قد اختفوا، والجمهور قد تفرَّق. ركضت في الساحة، وأخذت أنظر في اضطراب. وانتظرت (أن يتكرر رقصهما؟ أن يقدما عرضًا تاليًا؟). لقد صمَّم آباؤنا وأمهاتنا قبل رحلتنا على إهدائنا تليفونين محمولين، لكنني لم أكن أجرؤ على إزعاج "ميلاني" (علمًا بأن هذا يحدث دائمًا أيضًا). وعندما جرؤت على الاتصال بها، لم تجِبني. لم أكن أعرف هل ينبغي أن أشعر بالغضب أم الفزع. أخذت أبحث عنها مرارًا وتكرارًا أسفل الأروقة الموجودة بين أعمدة المباني، وألقيت نظرة في كل المقاهي، وركضت في الحارات، وظننت أنني عثرت في الزحام على وجه "ميلاني" وحقيبة ظهرها وتصفيفة شعرها وآثار ظلها... (وعندما سأقوم في وقتٍ لاحق برحلة مع "يان" إلى مدينة "البندقية" سأتعجَّب من أنها ليست مدينة بائسة ومخيفة على النحو الذي كُنتُ أتذكره).

وفي النهاية سافرت وحدي إلى ضاحية "ميستري"، حيثما كان يوجد بيت الشباب، الذي كنا نقيم فيه. هناك وجدت تليفون "ميلاني" المحمول، وهو ما اعتبرته نذير شؤم أكثر من كونه تبريرًا لعدم ردها. وجدت نفسي مُستاءة من السفر في الرحلة التالية وحدي (ومن المحتمل أن أقطعها سريعًا)، بينما واصلت "ميلاني" الرقص الخفيف وهي تُحلِّق.

سمعت في وقتٍ متأخر من المساء كيف دخل شخص إلى غرفتي بخفَّة ونام في سريرها... (كانت لحظة قصيرة من الخوف، ثم الارتياح). همستُ قائلة:

- "ميلاني"؟

- مَن غيري إذًا؟

- هل أنتِ بمفردكِ؟

لم أسمع سوى صوت شخير. عرفت في صباح اليوم التالي أن أفراد الشرطة قد اصطحبوها معهم؛ فعلى ما يبدو لم يكن يحق لعازف آلة "الباندونيون" أن يعزف الموسيقى في الساحة. مرَّ بعض الوقت، حتى أدرك الثلاثة أنهم لم يقعوا رهن الاعتقال بأي حال من الأحوال وأن موظفي الشرطة الودودين – والحازمين أيضًا مع ذلك – لم يكونوا يريدون سوى مساعدتهم في الحصول على تصريح بذلك فيما بعد.

وحتى أدرك أفراد الشرطة بدورهم أن الثلاثة لا يتحدثون الإيطالية (وأن بعضهم يتحدث الإنجليزية بالكاد)، وأنهم مع ذلك لا يرتبطون بأي صلة ببعضهم بعضًا، وأنهم لم يريدوا أو أنهم لم يستطيعوا إبراز أوراقهم لأسباب مختلفة... (فقد نسيت "ميلاني" جواز سفرها أيضًا في بيت الشباب).

وفي في أثناء ذلك، غرق عازف الموسيقى في حالة من اللا مُبالاة وأصبح شريك "ميلاني" في الرقص منفعلًا، ثم عدوانيًّا. واتصلت "ميلاني" في النهاية بالقنصلية الألمانية وبوالدها ووالدتها في المنزل. وهو ما أعطاها الضربة القاضية؛ لدرجة أنها اضطرت بعد ذلك ألا تقوم بأي رد فعل وأن تستريح (في نهاية طريق مسدود وعلى درجات سُلَّم، كان هناك عند نهايتها ماء نتن الرائحة. هذا إن كُنتُ فهمت ما قالته بشكلٍ صحيح). ودون أن تفكر فيما شعرت به من هموم.

(لم يخطر ببالي إلا في وقتٍ متأخر أنني أنا أيضًا قد تركتها وحدها. أي إننا تعاملنا بالمثل مع بعضنا بعضًا). لقد شهدت "ميلاني" في مدينة "البندقية" حدثًا ما. أما أنا فقد تفقَّدت كنيسة، كان الكل يعرفها. كان من المفترض أن تبقى هذه الكنيسة آخر ما في الرحلة. الهواء، والشمس، والقطارات، ومحطات القطار، ومساكن رخيصة، وشوارع، وحارات، ومحلات سوبر ماركت، ومقاهٍ، ونوادٍ، وشواطئ، وشوارع، ومنازل، ومحطات قطار، ومحلات سوبر ماركت، وباصات، وأحاديث مع أشخاص كانوا جميعًا تقريبًا مسافرين في رحلة عن طريق الصدفة مثلنا.

كان صيفًا رائعًا... (وبعد ذلك وددتُ في بعض الحالات الاستثنائية فقط لو أنني أدركت أين كنا نوجد حقًّا). لن أُسلِّم البحث الخاص بي، والذي كان من المفترض أن أكتبه في هذا الصيف، إلا بعد عامين. على كل حال لم يكن وقتًا متأخرًا أكثر مما ينبغي.

قلت لها فجأة في الظلام:

- أنا أيضًا أنتظر إنجاب طفل.

(كان مَن تحدث بهذا الكلام شخصًا عنيدًا، يوجد بداخلي. على الأقل كان هذا الشيء يتحدث بصوتٍ منخفض. بسبب وجود التوأمين).

سمعت صوت "ميلاني" وهي تقول:

- جميل.

كان صوتها مُتعبًا جدًّا ومُرهقًا جدًّا.

تمنَّيتُ كثيرًا لو تحدَّثتُ معها، لكنني عندئذٍ شعرت بالسعادة لأنني لست مضطرة أن أقول شيئًا آخر. وهو ما تقبَّلته الأشياء الموجودة بداخلي؛ فأخذوا يتناقشون فيما بينهم، وكُنتُ أُصغي لهم. شعرت بأنني مُستسلمة

لهرموناتي، وأنها استحوذت عليَّ في الوقت ذاته. وبهدوء أخذت هرموناتي تناقشني في أثناء نومي.

في الساعة السادسة بالضبط من صباح اليوم التالي، بدأ التوأمان في القفز فيما حولهما، وفي التشاجر معًا.

قالت "ميلاني":

- نعم، يمكنكِ أن تضبطي الساعة على موعد استيقاظهما.

تعلمتُ كثيرًا من الأمور المُنفِّرة عن سلوك الأطفال عند تناول الإفطار، وذلك حتى اضطررت أن أذهب إلى العمل. (هذا ما أعتقده على الأقل شيء مُتعب وناقد بداخلي). كانت كل الأشياء الأخرى بداخلي مُبتهجة من مناورات "لوليك" المتكررة لصرف انتباهنا عنه، ومن نظرات "بوليك" التي تعطي انطباعًا كاذبًا بالانكسار، ومن ضحكاتهما التي كانت يثيرها عنادهما، وقهقهتهما المستمرة.

حاولتُ "ميلاني" أن توزع عليهما حصصًا محددة من الشوكولاتة السائلة والممتزجة بالمكسرات... (والتي اشتريتها أنا لكي تلطف من تقلبات هرموناتي بسبب الحمل؛ ولكنني لم أستخدمها حتى ذلك الوقت). كما حاولتُ "ميلاني" بذلك أن تحكي لي شيئًا عن الحزم في تربية الأطفال. إلا أن الشوكولاتة السائلة والممتزجة بالمكسرات كانت وسيلة خاطئة لعرض ذلك الأمر).

كُنتُ في المعتاد أقرأ وأسمع الأخبار في أثناء تناولي لوجبة الإفطار. ولذلك فقد تفاجأت رئيستي في العمل أنني لم أفطن إلى تصاعد الاحتجاجات في "شتوتجارت" مساء أمس.

- هذا ما أتابعه بالضبط!

هتفت بها، وأضافت:

– التكاليف مرتفعة بشدة. أنا على دراية جيدة بهذا حقًّا. كان هذا، كما يمكن أن يقال، القاعدة التجارية الأساسية في عالم السينما. أيًّا كان بالأساس فهو كارثة! ربما كانوا يفكرون مرَّة أخرى في أمر محطة القطار. حتى ولو كان كل شيء متأخرًا أكثر من اللازم، منذ البداية. لقد كان من الواجب عليهم أن يحتجوا قبل سنوات!

اكتفيت بأن أقول بطريقة باهتة إن إحدى صديقاتي في الدراسة تتظاهر بانتظام ضد مشروع "شتوتجارت 21". وبصحبتها والدها، ووالدتها، وأشقاؤها، وجَدَّتها، وأعمامها، وعمَّاتها، وبناتهم، وبنات أشقَّائها. وذلك لأنني لم أكن أعرف معلومات حديثة عن الأمر.

دفعت رئيستي في العمل بتليفون العمل نحوي، وأمرتني قائلة:

– اتصلي بهم على الفور، واسأليهم، هل الجميع بحالٍ جيد؟!

كان قراري أنه من الأفضل إرسال رسالة نصية قصيرة إلى "آنَّا". (وكاستجابة منِّي لاهتمامها الكبير بالأمر، اشتركت في عديد من الدوريات الإخبارية التي تغطي الاحتجاجات). اتجهت رئيستي في العمل نحو كومة من طلبات التوظيف الموجودة على مكتبها. كان علينا جميعًا في النهاية أن نعتني بأمر التصاريح اللازمة لأماكن التصوير لهذا الفيلم البوليسي الكوميدي، الذي يحكي عن أحد بنوك الحيوانات المنوية.

– آه، يا ليتني لم يكن لديَّ الكثير جدًّا لأفعله. وقضية "شتوتجارت" هذه تعد موضوعًا كبيرًا للغاية! لكنني ربما أجد سريعًا الفرصة لأن أعمل بحرية. كيف سيكون حال مشروع كتابتك للسيناريو؟ عن عائلة كبيرة، تتوحَّد فيها كل الأجيال على النضال! لا، صحيح أن هذا الأمر يمكن أن

يكون موضوعًا للسيناريو؛ لكن ليس به صراع درامي. ما زال غير موجود! نحن بحاجة إلى صراع عائلي! أي عندما تقع ابنة العم على سبيل المثال في حب مدير بنك. أو عندما يذهب جميع الأقارب إلى المظاهرة فقط لأن الجدة العجوز المنتمية لجيل احتجاجات عام 1968 تسعد كثيرًا بذلك. لا تريد السيدة العجوز أن تدرك إلى أي مدى أصبح مرض السرطان متقدمًا في جسدها. ولا تلاحظ بالطبع أيضًا أن أبناءها وأحفادها، الذين تكيَّفوا مع ذلك، والذين كانت تنزعج دائمًا من ضيق أفقهم، لا ينوون في الحقيقة أن يحاربوا من أجل أشجار حديقة "شلوس جارتن"؛ وذلك حتى يضطروا جميعًا للفرار من القنابل المسيلة للدموع، وهكذا يستمر الأمر.

أومأت برأسي في شرود. وفجأة سألت نفسي، كيف تم توزيع حق حضانة "لوليك" و"بوليك". وهل كانت "ميلاني" تخفي الطفلين في شقتي عن زوجها السابق... (وهو اشتباه، من المفترض أن يتضح أنه بلا داعٍ؛ ولكنه جعلني منزعجة حتى المساء).

أتلفت "ميلاني" أفضل مقلاة عندي، وذلك لكي تعد السمك الصغير المقلي، الذي كان مذاقه لا يروق للطفلين أكثر من والدهما. لم يبدُ على وجه "ميلاني" أي تعبير عن تأثُّرها بذلك. ومع ذلك فإنه عندما غنَّت للطفلين قبل نومهما أغنية "ما سيكون، سيكون "**que será, sera**"، واستطعنا أخيرًا أن نتحدث معًا. كان من الصعب عليَّ أن أسألها عن "أوليفر". حاولتُ أن أوضح لها الأمر بشكلٍ أساسي:

– معذرة، لكن كم من الوقت تريدين أن تبقي هنا؟

أجابتني بنظرة تنذر بوقوع خطر:

– لا تقلقي. سأقول لكِ هذا، في الوقت المناسب.

وقبل أن أتمكن من أن أواصل سؤالها (الوقت المناسب لماذا؟ لأن أفرح بهذا؟ ولأن أستطيع أن أستعد نفسيًّا بشكلٍ أفضل لأن أُرتِّب المنزل بعد رحيلهم؟) صرفت انتباهي بقولها:

– فلتعترفي. أنتِ تعتبرينني أُمًّا فظيعة.

ومرَّة أخرى لم تعطيني وقتًا لأخالفها في الرأي، وقالت:

– الناس يسمون هذا **بالموهبة الحركية**. أنا مُنهكة تمامًا. لكن شقتكِ صغيرة حقًّا. وأماكن اللعب الموجودة في هذه المنطقة كان لها على كل حال تأثير جيد. حسنًا، أي حتى نعثر على الأقل على مُتنزَّه صغير.

ضحكت "ميلاني" بصوتٍ مبحوح وبحزم وهي تحاول أن تطرد الضحكة. وقالت وهي تميل هذه المرة إلى إثارة عواطفي:

– أجل. أنا هنا الآن من جديد، بعد أن أصبح عمري ستة وعشرين عامًا. لم أعد في ريعان شبابي...

كانت ترتدي ملابس مريحة وغير رسمية، لا تتوافق مع حديثها، الذي بدا كالمحاضرة... (إلا أنها لم تكن تبدو أيضًا كبيرة في السن بما يكفي لتبدو متناقضة بشكلٍ لافت).

– ... وقد أدَّيتُ امتحاني أيضًا منذ وقتٍ ليس بقريب. أما فيما يتعلق بخبرتي الوظيفية...

– لكنكِ لديكِ أبناؤكِ!

كُنتُ أقصد هذا بشكلٍ جادٍّ. في وضعي هذا.

- نعم.

قالتها، وأضافت:

- لا يمكن الاعتماد على "أوليفر" في هذا الشأن. يا ليتني عرفت هذا! لو أن أحدًا قد أرسل لي في صباح يوم زفافي مقطع فيديو من المستقبل... آخ، إنه عبث. حينها كُنتُ سأتزوجه أيضًا بالطبع. بنسبة كبيرة. لكنني أتوهم دائمًا أنني ما زلت أستطيع أن أغير شيئًا ما. إلا أن هذا كله أدى إلى تعقيد الأمور. لقد كانت ليلة زفافنا بالفعل مُرعبة.

صمتُ وانتظرت إن كانت تريد أن تحكي المزيد. كان "يان" يتألم في السابق من علاقاتها الحميمية. وعلى الرغم من ذلك، لم يجعلني هذا أشعر بالغيرة. لم يكن سبب شعوري هذا أنها كانت تثق به... (وأنه لم يحكِ لي في البداية شيئًا عن علاقاتها)، وإنما كان السبب أنها تجنَّبت منذ سنوات أن تذكر لي تفاصيل أكثر حميمية في حياتها. والآن أيضًا كانت "ميلاني" الجالسة على أحد الكرسيين الموجودين في مطبخي مترددة أن تحكي لي، بينما ينام طفلاها بجوارنا في سريري.

لكن (بدا لي في نهاية الأمر) أن سبب ترددها هذا كان يرجع فقط إلى أنها كانت تريد أن تختار بين الدفاتر المختلفة، التي جرَّبتها منذ وقتٍ طويل، والتي حكت فيها قصة **ليلة زفافها، التي عكَّرت صفوها**. بدأت "ميلاني" تقول بنبرة صوت حميمية وبها انفعال بسيط:

- جعلنا أنفسنا مادة للسخرية. كنا في علاقة معًا لسنوات طويلة، وفجأة يحدث ما يسمى **ليلة الزفاف**. ولا أعرف هل ستصدقينني أم لا؛ لكن هذا الأمر حمَّلنا أكثر مما نطيق. تناقشنا هل كان ينبغي علينا فعلًا أن نشعر بأننا مُلزمون بالذهاب إلى الكنيسة بدلًا من أن نرتاح قليلًا قبل

الرحلة، وأن نضع الخطط ونحزم الأمتعة. كانت هذه الليلة التالية لحفلة الزفاف قصيرة بما يكفي.

– هل كُنتُ تشعرين بغثيانٍ بالغ هكذا أيضًا في أثناء الحمل؟

قلت سؤالي هذا بشكلٍ عارض (من المؤسف أن هذا الأمر كان يُثير اهتمامي جدًّا بداخلي).

– لم أعد أشعر به في ذلك الوقت.

قالتها وخرجت بذلك قليلًا عن سياق حديثها.

– كُنتُ في منتصف الشهر الرابع من الحمل. كنا مخطوبين – إذا جاز التعبير – وقررنا أن نقيم حفل زفافنا. وبعدها بسُرعة... حسنًا، لم نكن قد خططنا بعد لموعد الزفاف، لكننا لم نفعل أيضًا شيئًا يتعارض مع ذلك. على الرغم من أنني سرعان ما أصبحت لا أشعر بالأمان على الإطلاق، تعمَّدنا أن نُجازف، وشعرنا بعد ذلك أننا نؤيد بعضنا بعضًا في قرارنا. ولكننا في نهاية الأمر أصبحنا نجلس هناك...

والآن عادت إلى الحكاية مرَّة أخرى.

– ... في ليلة الزفاف. لم نمارس الجنس. أخذنا نتنازع لساعاتٍ طويلة، بدلًا من أن نفعل شيئًا آخر. وبالتأكيد لم نُمارس الجنس. كل بداية رقيقة كانت تؤدي بنا إلى الشجار. أخذنا نصيح في وجه بعضنا بعضًا كالزئير. لم نقل سوى شتائم وتهديدات واتهامات. وعندما رنَّ جرس التليفون، اعتقدنا أن الجيران كانوا يريدون أن يشتكوا منا. لكن كان والدي ووالدتي هما مَن اتصلوا ليخبرانا عن الاعتداء الإرهابي الذي وقع في مصر. تمنيت في تلك اللحظة لو أنني أنهيت الزواج على الفور وألغي الرحلة. لا، كان من الجيد بالفعل أن كل شيء انتهى الآن على الأقل. حتى وإن كُنتُ أفكر في

بعض الأحيان أننا كنا صغيرين في السن جدًّا. أو على الأقل كان "أوليفر" هكذا. إذًا لو كنا تزوجنا وتبلغ سن "أوليفر" أكبر بثلاث سنوات، وعمري أنا أقل بخمس سنوات، ربما كان من الممكن أن ننجح. كما كان حالي أنا و"يان" أيضًا؛ فأنا أعتقد أن مشكلتنا كانت فقط في الوقت الخاطئ. ليس لأنني أردت ذلك.

أضافت "ميلاني":

– معذرَة. بين الحين والآخر تُراودني مثل تلك الأفكار. أن نرتبط معًا بشخصيته القديمة وشخصيتي الحالية، أو فلنقل بشخصيتي بعد أربع سنوات. ربما كنا سنتوافق عندئذٍ. هل أنتِ غاضبة؟ أستطيع أن أفهم ذلك.

اكتفيت بهَزِّ رأسي.

تنهَّدت.

– حسنًا. من الأفضل أن تحكي لي كيف تسير أمورك.

لكنني كُنتُ فقط أشعر بالغثيان. وخلافًا لذلك كانت أموري تسير على نحوٍ جيد جدًّا. في الحقيقة، ربما كانت أعصابي ستثور حتمًا بسبب موقفي في العمل. إلا أن وضعي لم يكن ميؤوسًا منه بعد بما يكفي لأن تتحرك إحدى الصدف وتتحول لتتدخل وقت وقوع أي أزمة... (كُنتُ حتى أستطيع أن أفهم هذا؛ فـ"يان" كان يتقاضى أجرًا جيدًا. كما كانت الشقة الجديدة جميلة جدًّا. وما زاد من تحسُّن وضعي أنني ورثت بعض المال من جَدِّي وجَدَّتي). وحتى ذلك الوقت، لم يكن لديَّ سوى بضع مهام في عملي؛ مُراجِعة للسيناريوهات.

هتفت "ميلاني" قائلة:

– على كل حال. لو تحدثت بصراحة، كُنتُ واثقة دائمًا من أنني سأتمكن من العمل في شركة عائلتنا، لو اقتضى الأمر ذلك. حتى وإن كُنتُ قد درست موادَّ لا تناسب ذلك العمل، أي إنها ليست المواد المناسبة تمامًا للعمل في الشركة. إلا أن هذا ربما لا يكون المشكلة. ليت الشركة تبقى موجودة. إن والدي يُغيِّر بشكلٍ مستمر تصوُّره عن العمل في الشركة. والآن أصبح يتحدث فجأة عن الاستشارات السياسية. على الرغم من أن هذا الموضوع لم يعد له قيمة بالفعل في حزبه السياسي. أظن أنه يتعمد إفساد الشركة. أو أن الشركة كانت مدمرة منذ وقتٍ طويل وهو يحاول بشكلٍ غير مناسب أن يخفي هذا. لكن حالى يتغير تمامًا عندما يقول دائمًا أنه بنى هذا كله من أجل شقيقي فقط. هذا تخريف بالطبع. يجب عليكِ أن تتخيَّلي أنني كُنتُ أتصور حقًّا أن أتولَّى ذات يوم جميع الأعمال بالشركة، بينما لم يكن "توبياس" يرغب في أن تكون له أي صلة بهذا. فقد أتمم "توبياس" من ناحية أخرى دراسته لإدارة الأعمال. آه. أنا لا أعرف.

وهكذا توجَّه حديثنا في النهاية إلى شقيقها... "صدمة" كما قالتها على سبيل التأكيد، وأضافت:

– حسنًا. إننا نمُرُّ بمرحلة.

كان صوتها الآن له وقعٌ حاسم جدًّا، لكن شيئًا ما بداخلي كان يتَّسم بالفضول ومُتعطِّشًا للوصول إلى معلومات. لم أكن أعرف سوى القليل جدًّا عن "توبياس"... (ولم يكن هذا الأمر يزعجني عندما كان على قيد الحياة). أما الآن فأصبحت أتحكم بأي شكل من الأشكال في كل كلمة مهمة (وكرهت نفسي بسبب كل تعبير استخدمته به مُجاملة شديدة).

– لقد ذكر ذات مرَّة أنه يريد الزواج...؟

– آخ. كان يريد بشكلٍ مستمر أن يتزوج، لكنه لم يكن يعني هذا الأمر بجِدِّية.

– أجل. لا أستطيع أن أتخيَّله هكذا مع أسرة...

– لا. لديه طفلان كان يعتني بهما من حين لآخر. يا إلهي، كان هذا الأمر أيضًا عبثيًّا للغاية. فتارة يريد والدي ووالدتي أن يقيما دعاوى قضائية ضد صديقات "توبياس" السابقات لخوفهما من أن تكون لهن أي مطالب مادية، ثم يغرقان من جديد في مشاعر فيَّاضة وخيالات أبويَّة كبيرة. فيريدان أن يضما حفيديهما إلى حضانتهما، وأن يتولَّيا أمر تربيتهما بنفسيهما. كما لو أن أمهاتهما قد ماتتا أو أنهما لم تكونا موجودتين أبدًا.

اهتزَّت "ميلاني"، وأضافت:

– وهذا كله لا يُجدي. فنحن لا نقوى على الحديث. على الحديث بصورة صحيحة، ولكن ربما يتسبَّب هذا كله في الشعور بمزيد من العذاب.

أومأت برأسي، وبدأت أبكي شعورًا بالارتباك والحيرة، وأنني أتحمَّل أكثر مما أُطيق. وأثناء بُكائي، ومع كل مرَّة أنتحب فيها بشكلٍ أكثر، اتضح لي ما عانت منه هذه الأسرة، وما استمرت في المعاناة منه، وما سوف تعانيه للأبد. واتضح لي أيضًا أنني لم أدرك موت "توبياس" حتى ذلك الوقت إلا عندما أدركت أنه حدث مفجع، ولكنه مثير في المقام الأول. على الرغم من كل ما شعرت به من ذهول... (أو أن هذا ما بدا لي على الأقل في تلك اللحظة). كان حادثًا مأساويًّا غبيًّا، وقع في وقتٍ، بدا فيه أن الوفاة لا تتجه إلا في اللحظة المناسبة من أجل إيقاف الأجساد ذات القدرة الهائلة. وهو الوقت، الذي يتحكم فيه تدريب اللياقة البدنية ووسائل التأمين في باقي الأمور في الجسد.

نظرت لي "ميلاني" من جانب عينها وكأنها تحسدني على هرموناتي، لكنها قالت:

- لا تتمادي هكذا!

(وعندئذٍ بدوت لنفسي واهمة؛ فقد كُنتُ أعاني من ألمٍ عاديٍّ).

كُنتُ متضامنة معها تمامًا، لكننى لم أستطع أن أبقى هكذا بعد يومين؛ حيث أصبحت حصيرة اليوجا أقل راحة. وأصبحت شقتي أضيق. وأصبح صوت لعبة "لوليك" و"بوليك" الإلكترونية أعلى. وبينما تحركت مشاعري بسبب اقترابي منهما في البداية، وبسبب مشاعرهما الودودة والعفوية بشكل مضحك، وحنانهما غير المحسوب والأحمق (يتوقفان عن الحديث ويشعران بألم بين الصدر والبطن)، فإنني أصبحت في أثناء ذلك لا أشعر سوى بالخوف، وبأنني أتحمَّل فوق طاقتي، بمجرد أن كانا يسقطان باندفاع نحوي من جديد، وبمجرد أن كانا يريدان أن يعانقا الجنين الموجود في بطني، أو يلعبا معه لعبة المُلاكمة.

اقتربت عُطلة نهاية الأسبوع. كان شيء ما بداخلي يخطط للقيام بنُزهات في الهواء الطَّلق والمزارع الخضراء. لكنني بينما كُنتُ أتحدث عن نشرة أحوال الطقس وعن مواعيد الباصات، أخذت الأشياء الأخرى الموجودة بداخلي تعلن لي، واحدًا تلو الآخر، أنها ستتبعني. أخذت أبحث بعنادٍ متزايد عن أقفاص بها حيوانات، وملاهي أطفال بها ألعاب مغامرات، وكتب نُطالعها بصوتٍ عالٍ في المساء. كان هناك شيءٌ ما بداخلي

يهتم بجِدِّية بالغة حتى النهاية بجداول عرض المسرحيات في مسرح الأطفال، لدرجة أن كل الأشياء الأخرى الموجودة بداخلي لم تستطع سوى أن تهزَّ رؤوسها تأييدًا لذلك.

ربما كُنتُ سأطرد ضيوفي يومًا ما. إلا أن "ميلاني" سبقتني؛ فقد شعر التوأمان بشوق لروضة الأطفال، التي كانا يذهبان إليها وللحرية، التي كانت تقدمها لهما روضة الأطفال هذه. تجاوز هذا كل تحفظات "ميلاني" حول عودتها مرَّة أخرى إلى والدها ووالدتها.

(لن تحكي لي "ميلاني" إلا بعد زواجها بـ"كان" بعد ذلك بعامين، كيف أنها – قبل أن تُقيم عندي – ظلت واقفة لمدة ساعة مع ابنيها وحقيبة السفر الخاصة بها أمام باب منزل شخص يُدعى "بوركهارد"، وكيف نظر إليها ذلك الشخص، عندما قالت له إنها لا تستطيع العودة لوالدها ووالدتها:

– وبعد نظرته هذه لم أعد أستطيع بالفعل أن أعود. أو على الأقل فورًا. حسنًا، وكُنتُ أنتِ مَن أقمت لديها بعد ذلك)... (لم تكن "ميلاني" في تلك اللحظة في أزمة، تجبرها بالأحرى على اتخاذ قرارٍ ما. ولم يتضح لها هذا إلا فيما بعد).

نجحت بعد رحيل "ميلاني" أن أملأ نصف حاوية من الملابس القديمة وسلَّة من نفايات الأوراق... (لم أكن أريد أن أفكر كثيرًا على الإطلاق، كم أضعت من الوقت كي أُؤدِّي كل هذه المهام المطلوب مني أداؤها وخطط التنظيم وذلك الأرشيف. وذلك بسبب ما كان لديَّ من نيَّات طيبة وبسبب تجاوزي للوقت، الذي كُنتُ قد احتسبته). هذا حتى عثرت عن طريق الصدفة على مقال في إحدى الصحف عن "كيرواك"... (واضطررت لأن

أواصل البحث على الإنترنت. وفي أثناء ذلك صدرت الترجمة الألمانية للنسخة الأصلية من رواية "على الطريق". فاتتني هذه الترجمة تمامًا. ولم يعد هناك بالفعل أي سبب، يضطرني ربما لأن أفطن إلى ذلك، ولكنني شعرت بالارتياح والأُلفة عندما قرأت المقالات النقدية عن الرواية والتقارير المكتوبة عن خلفيتها).

كانت تصل إليَّ مرَّة في الأسبوع رسالة إخبارية من "فيلكس" وصديقته في الولايات المتحدة الأمريكية. كانا يصفان خط سيرهما بدقة، وتعرَّفا على كل المتناقضات الجوهرية في المجتمع الأمريكي وذكراها بصورة عابرة. وعلاوةً على ذلك كانا يرسلان صورًا كثيرة للمناظر الطبيعية ومتاجر السوبر ماركت.

عندما قابلت "ساشا" بالصدفة، أخذ يتحدث كثيرًا عن أنه أضاع اللحظة المناسبة للانتقال إلى برلين. وتحاشى الإجابة عن كل الأسئلة الأخرى. وتجاهل حملي. واختلف بذلك تمامًا عن "أولريكا" و"آن كاترين"، اللتين كُنتُ أقابلهما بصورة متكررة. فكُنتُ أقابل إحداهما في أثناء ذهابها للجامعة، والأخرى عند ذهابها لأداء **تمارين ما بعد الولادة**. وكان "لاب توب" "فينسنت" يرسل إيميلات في أثناء فترة غيابه، صياغتها تثير الدهشة.

فسخت عقد شقتي، وتركت عملي. وبعد أسابيع قليلة كان هناك بالتأكيد شخص سيسكن بعدي الشقة ويأخذ الوظيفة (وكان شخصًا واحدًا لكلا الأمرين). كُنتُ مضطرة عندئذٍ لأن أبذل أقصى ما في وسعي لكي أُؤجِّل وقت رحيلي لمدة أطول. خطَّطتُ لكل شيء بدقة. كُنتُ أريد أن أستغلَّ الفُرصة من أجل أن أتخلَّص من الأعباء، وأن أُرتِّب كذلك أشيائي بطريقة شاملة. كان "يان" يساندني (بهَزِّ رأسه) في عُطلة نهاية الأسبوع من كل أسبوعين. أما عُطلات نهاية الأسبوع المتبقية فقد كنا نقضيها في الشقة الجديدة، حيثما وضع بالفعل أثاثه، وشيئًا فشيئًا أيضًا سجاجيد، وستائر، وصور، وأباجورات.

وبعد شهرين من عودة "ميلاني" بصُحبة توأميها إلى والدها ووالدتها، أخبرني "يان" في التليفون أن ابننا **قادر على الحياة**، وأن **قدرته على الحياة** تزداد يومًا بعد يوم (بالاستعانة بأحدث التقنيات الطبية)... (في ذلك الوقت، كان "يان" بعيدًا عن ابننا أكثر منِّي).

نظرت إلى بطني، الذي اتخذ شكل الكُرة، ولم يُصبح بعد ضخمَ الحجم. وأخذت أفكر في الكائن الصغير، الذي رأيته باللونين الأبيض والأسود، حسبما أظهر لي آخر فحص أجريته بالموجات فوق الصوتية. شعر شيء ما بداخلي بالارتياح أننا نجحنا على كل حال إلى ذلك الحد. وذلك على الرغم من مرور فترة تزيد قليلًا على نصف مدة الحمل. وهكذا أخذت كل الأشياء الأخرى الموجودة بداخلي تسقط في براثن أفكار مُفزعة عن

حالات الولادة الطارئة وحضَّانات الأطفال المولودين قبل اكتمال نموهم. لم أكن أعرف، هل كُنتُ سعيدة حقًّا أن "يان" أخذ يبحث على الإنترنت عن معلومات بشأن فترة الحمل.

على كل حال، لم أعد أشعر بالغثيان. وكان لهذا ميزة ألا يتكرر هذا الشعور مرَّة أخرى.

تحمَّل والدي ووالدتي تكاليف انتقالي من الشقة بطريقة مُريحة لكي يتجنَّبا إصابة حفيدهما بأضرار... (ومع ذلك فقد كان انتقالي من الشقة مُرهقًا، وينقصه التنسيق؛ مما تسبَّب في حدوث فوضى دائمة).

وكانت رئيستي في العمل قد اعتادت لتَوِّها على وجودي.

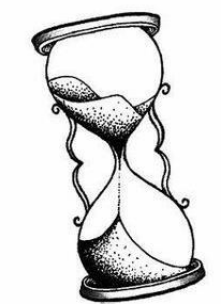

6

"يا
سادتي، نحن سننصرف! [...لحظة!...]
آه، رائع! إن الرقيب رأى حلمًا لطيفًا
للغاية، ويودُّ أن يحكيه لكم".
"لويس بونويل/ جان كلود كاريير"
"سحر البرجوازية الخفي"

حكيت قائلةً:

– لقد رأيت في الحلم حفلة. كُنتُ أنا نفسي صاحبة الدعوة، وكُنتُ كذلك الضيوف جميعًا. فقد كانت في الحفلة نسخ متنوعة منِّي في مراحل عمرية مختلفة. هناك طفلة ذات عاطفة جيَّاشة، وشابَّة على درجة عالية من المعرفة، وطالبة جامعية شاردة الذهن، ومتدربة متكبرة، وطالبة لديها امتحانات وتُعذِّب نفسها بنفسها، ومُبتدئة في العمل تتمتَّع باليقظة، وأُمٌّ

مُرهقة، وامرأة مُتسرِّعة عائدة إلى العمل، وجَدَّة مُفرطة النشاط، والسيدة الضخمة العجوز للغاية الموجودة في "لعبة الذاكرة" الشهيرة في ألمانيا، وبضعة أشخاص آخرين.

كانت كل هذه الشخصيات لا تطيق بعضها بعضًا، ولم تستطع أي منها أن تُبدي اهتمامًا بالأخرى. كانت كل الشخصيات تفهم بعضها بصعوبة. ومع ذلك فقد كان واضحًا تمامًا لها جميعًا طوال الوقت أن لها علاقة ببعضها بعضًا، أي إن لها علاقة بي أنا. كما كان واضحًا تمامًا للجميع أن هذا كله كان حلمًا؛ فقد شاركت أنا أيضًا في الحلم (بطريقة يصعب استيعابها)، وألقيت على نفسي باللوم قائلة: "إن الناس لا ترى مثل تلك الأحلام وبهذا الوضوح!". لاحظت من قولي هذا أنني أصبحت مستيقظة، ولكنني شعرت بالسعادة لبعض الوقت وأنا في الحلم لأنني استطعت أن آخذ هذا الاعتراض في اعتباري وأدمجه في الحلم.

كانت "آنَّا" تمُرُّ بحالة "ديچاڤو". لكن ربما أكون قد حكيت لها هذا الحلم بالفعل ذات مرَّة (وهذا لا يثبت أنني قد رأيت هذا الحلم فعلًا). وفي مقابل ذلك، حكت لي "آنَّا" حلمًا، رأت فيه أن جمهورية ألمانيا الديمقراطية "سابقًا" ما زالت موجودة، وأنها لم تستطع أن تحزم حقيبة ظهرها بسرعة كافية على الإطلاق، وقالت:

– لأنني كُنتُ أعرف لو لم أنجح في الذهاب، حتى أستيقظ من النوم، سوف تنقضي جمهورية ألمانيا الديمقراطية!

قال "فينسنت":

– وبعد ذلك استيقظتِ من نومكِ وكُنتُ في "شتوتجارت". جلسنا معًا في شقتنا الجديدة شبه المفروشة.

ما زال هناك مكان، وما زال هناك وقت حتى الولادة. انتهى العام، وجاء "فينسنت" من "بروكسل"، ومرَّ عليَّ. كان يعرف بعض الأشخاص في المدينة (مدينتنا الجديدة). وهربت "آنَّا" في رأس السنة من المسكن الجماعي، الذي كانت تعيش فيه. كان الكثيرون ينزحون من المدينة. وهو ما واساني قليلًا في أنني لم أعد أستطيع أن أنظم حفلة لوداع أصدقائي.

نظر "فينسنت" بجِدِّية في سُترته الكلاسيكية القديمة، بعيدًا عن الصناديق والأكياس البلاستيكية المغلقة والموجودة في جميع أركان الغرفة. كانت "آنَّا" تشعر بالارتياح أكثر عند ارتداء فستان مشغول ومصنوع من مواد عضوية، كانت تلفُّه حول جسدها. حاولتُ "آنَّا" أن تتحدث في موضوع بعيد عن الفوضى الموجودة في الغرفة بسبب أغراضي التي أجمعها قبل الرحيل، فقالت:

– آخ، ليتكم تعرفون كيف يبدو الوضع لدينا. منذ ثلاثين عامًا لم يفعل أي شخص شيئًا مفيدًا هناك. وبمجرد أن ينتقل أحد من هناك، يحل مكانه شخص آخر على الفور. والآن يريد المستأجرون أن يجددوا كل شيء. ولكنهم سيضطرون إلى التخلص من كل ما لديهم من أشياء قديمة. أتعرفون، ما هو أسوأ شيء؟

يجب أن يكون الإنسان عند التعامل مع "آنَّا" في الآونة الأخيرة مُستعدًّا على الدوام لشيء مثير حقًّا. ولذلك فقد اكتفينا بهَزِّ رؤوسنا ونحن نشعر

بالدُّوار... (وبالمناسبة فإن "آنَّا" حققت مؤخرًا أفضل درجات في امتحانها). قالت:

– الأسوأ هو شرائط تسجيل الفيديو المنزلي. أي قمامة تبقى دائمًا إما في الشقة، وإما في البدروم. لكن ما يتركه الناس جميعًا منذ بضع سنوات هنا هي شرائط تسجيل الفيديو المنزلي. لا أستطيع أن أتذكر أنني شاهدت الفيديو كثيرًا هكذا. أجل، كُنتُ أشغل الجهاز بين الحين والآخر. لكنني كُنتُ أستخدمه في التسجيل فقط. وقبل بضع سنوات أصيب المُسجِّل في النهاية بعُطل. وعلى ما يبدو كان هذا إشارة لآخر مَن سكنوا في الشقة ليبتعدوا عن الشرائط القديمة. والآن سرعان ما أصبحت أجلس وحيدة في شقة خاوية تمتلئ بشرائط تسجيل الفيديو المنزلي. ولا أعرف محتوى هذه الشرائط جميعًا. فقليل ما أجد شيئًا مكتوبًا على أحدها.

– نعم، نعم، نعم!

شعر "فينسنت" بسعادة.

– عصر الفيديو القديم الجميل! عندما كان من الممكن تخزين ما يريده الإنسان. لكن هذا كان متوقفًا على البرنامج التليفزيوني، الذي كان من الممكن أن يراه الإنسان إلى حدٍّ ما. نعم، آنذاك كان الناس يجعلون مُسجِّل الفيديو يشاهد البرامج بدلًا منهم! وكان الناس لا يستخدمون مُسجِّل الفيديو في بادئ الأمر إلا عند رغبتهم في مشاهدة برنامج، يتم عرضه للأسف في وقت غير مناسب. وبعد ذلك أصبحوا يستخدمون مُسجِّل الفيديو لأن كل شيء مثير للاهتمام أصبح يُعرض بوجهٍ عام في وقت غير مناسب. وفي النهاية، لأن الناس لم يكن باستطاعتهم أن يجعلوا التليفزيون يلتهم الوقت القليل المتاح لهم. ومع ذلك تبقَّت بعض البرامج

التي جعلت الناس يشعرون أنه من الحماقة أن يفوتونها. أما الآن فكل شيء أصبح أخيرًا مُتاحًا في كل وقت. ويمكن للناس أن يتجاهلوا كل شيء دون أن يشعروا بتأنيب الضمير إطلاقًا.

هزَّت "آنَّا" رأسها:

– هذه الشرائط تثير أعصابي.

قال "فينسنت":

– نعم. يجب عليكِ رؤيتها أيضًا. جميعًا!

– إن محتواها يستغرق مئات من الساعات!

قلت لها على سبيل الاقتراح:

– ربما تجدين فيها أشياء عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية مرَّة أخرى.

قال "يان":

– إنها موجودة على الإنترنت أيضًا.

– نعم، بالطبع. لكن **نشرة الأخبار** قبل عشرين عامًا لها سحرها الخاص.

شعر "فينسنت" بسعادة بالغة.

– لكن عندما كان أحد الأشخاص يمد يده للشريط المسجَّل في خريف عام 1989، عندما سقط سور برلين، بأصابع مرتعشة – سواء أكان المُسجِّل قد سجَّل شيئًا عليه أم لا – من أجل أن يُشارك وحده في عملية مونتاج الأخبار الجارية، فإن هذا يعد شيئًا مختلفًا عن محتويات أرشيف تليفزيوني كهذه المحتويات!

لم تكن "آنَّا" وحدها مَن لم تعايش جمهورية ألمانيا الديمقراطية. فعند سقوط جدار برلين، كان عمري اثني عشر عامًا. تناولنا جمهورية ألمانيا الديمقراطية سريعًا في حصة التاريخ... (ربما كانت الثورة الفرنسية ستحل محلها في الحصة. لكن على كل حال لم يتطرق إليها أحد تمامًا بمناسبة الذكرى السنوية). كان والدي ووالدتي يشاهدان برامج البث الخاص في وقت مبكر من الصباح، ونسيا بسبب ذلك تناول وجبة الإفطار. كان التليفزيون ينقل على الهواء أجواء الثورة في ألمانيا.

– واقترحت أن نقوم بنُزهة عائلية...

قلت ذلك، وأضفت:

– ... كُنتُ أريد الذهاب إلى برلين. إلا أن والدي ووالدتي لم يُبديا تفهُّمًا لذلك. وقالا إن هناك لا توجد سوى شوارع مغلقة.

(عندما حكيت هذا بعد حوالي واحد وعشرين عامًا، اتضح لي أن هذه المرَّة الأولى التي يتكشف لي فيها سر والدي ووالدتي المحافظين). قالا:

– التليفزيون يُتيح على كل حال نظرة عامة أفضل.

ردَّ "يان" باقتضاب:

– وجهة نظر.

صاح "فينسنت":

– أوه نعم! برامج الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة وكتب التاريخ تُتيح أفضل نظرة عامة على الأحداث. فيما بعد!

مع ذلك، قبل ما يزيد على اثني وعشرين عامًا... (وهو ما حكيته عندئذٍ أيضًا) سافر والدي عبر نصف مناطق ألمانيا متطفلًا على السيارات المارة، لكي يشارك في جنازة "بينو أونهزورج"، الطالب الألماني الذي توفي في مظاهرات 1967 احتجاجًا على زيارة شاه إيران، وليشارك كذلك في اجتماع "اتحاد الطلاب الاشتراكيين الألمان" التالي للجنازة.. (أخفيت الصدفة التي جعلتني أعرف هذا. لقد عرفت ذلك الأمر عندما ادَّعيت معرفة كل شيء بسذاجة، ورويت لوالدي ووالدتي في عُطلة الفصل الدراسي الأول ما تعلَّمته في حلقة دراسية تمهيدية للعلوم السياسية عن قصة نشأة حزب "الخضر"، الذي كان قد دخل عندئذ لتوه في الحكومة الاتحادية الألمانية. ونتيجة لما قلته اضطررت لأن أسمع عن الشخصية التي قابلها والدي بشكل شخصي). قلت:

– لقد عايش والدي بنفسه هذه اللحظة التاريخية، التي عاد فيها "يورجن هابرماس" من موقف السيارات مرَّة أخرى من أجل أن يواصل المناقشة مع "رودي دوتشكه"، بينما كان يريد حقًّا أن يذهب إلى المنزل. إلا أن "رودي دوتشكه" لم يعد بالتأكيد موجودًا هناك.

سألت "آنَّا":

– وماذا؟ هل ذهب "يورجن هابرماس" من جديد؟

قلت لها:

– لم يذهب إلا بعد أن حذَّر باقي المجتمعين من خطر **الفاشية اليسارية**. كان والدي أيضًا لا يريد أن يتصاعد العنف. لكنه كان في تلك اللحظة مؤيدًا تمامًا لـ"دوتشكه".

ألقى "فينسنت" بعبارة:

- الذي لم يكن موجودًا هناك للأسف.

قلت:

- بعد بضع سنوات، رأى الأمر بشكلٍ مختلف تمامًا بالفعل.

سألت "آنَّا":

- مَن هو؟ والدكِ؟ أم "دوتشكه"؟ لكنه كان بالفعل...

أوضح "يان" الأمر قائلًا:

- الجميع. فبعد ذلك، تنصَّل "هابرماس" أيضًا من كلماته التي اختارها.

(توهَّمت أنني قد حكيت له هو الآخر شيئًا جديدًا. على كل حال، اكتملت ثقافة "يان" المتعلقة بالتاريخ المعاصر بمعرفة أن والدي كان موجودًا ضمن الجمهور آنذاك).

- أجل. يا لها من لحظات!

صاح بها "فينسنت" في حماس، وأضاف:

- ينبغي إعادة تمثيل هذا المشهد!

حاولتُ أن أتخيَّل ذلك المشهد؛ متظاهر ميت (ضخم الجسد بصورة لافتة للانتباه، يظهر باللونين الأبيض والأسود). وفي الخلفية، ما زالت شرطة برلين الغربية وجهاز أمن الدولة في ألمانيا الشرقية "سابقًا" (ينتظرون قيام ثورة في عمق المشهد). وفي بؤرة المشهد، يوجد **أشخاص ينتمون للتاريخ المعاصر**، يمرون ويتحدثون معًا بشكل غير مرتب زمنيًّا. وعلاوةً على ذلك، هناك خمسة آلاف فرد من أفراد الكومبارس تتراقص حولهم شخصيات من الصحافة والإعلام... (وتلعب بينهم شركة "أكسل شبرنجر" للصحافة دورًا مميزًا). وكان هناك كثير من الوقت.

صاح "فينسنت" في حماس:

– وتقدم المشهد مجموعة تمثيل في إحدى المدارس الثانوية في إطار توجيهات من "فابيان"!

وأردف قائلًا:

– سأعود لمشاهدة التليفزيون من جديد، لو أذاع هذا المشهد بصورة قانونية وعلى الملأ في أي قناة تليفزيونية متخصصة، وذلك كفترة ربط بين الساعة الواحدة والخامسة ليلًا.

أصبحنا بذلك نتذكر معارفنا القدامى. لقد سمعت "آنَّا" أن الأنشطة الروحانية، التي كانت تقوم بها "ميريت"، راحت ضحية لمبادرة قدمها لها أحد جيرانها.

قالت "آنَّا":

– بدلًا أن يزيل جيرانها الحدود بينهم وبينها بشكل واضح، لم يستطيعوا سوى أن يثيروا غضب السلطات بسبب ما كانت تقوم به "ميريت" من مُحاكاة لشعائر الطوائف الدينية.

قال "فينسنت":

– حسنًا. أهل القرى ليسوا يقظين وحذرين فقط، بل إنهم أيضًا مُستنيرون.

ابتسمت "آنَّا" بتكلُّف:

– والآن هم أنفسهم لا يعرفون، هل لا يفهم هؤلاء الجيران ببساطة شيئًا عن الفن أم أنهم حافظوا على "ميريت" من مصير أسوأ؟

قلت:

– على كل حال، فهي تجربة مرَّت بها.

سأل "فينسنت":

– هل ما زال "ساشا" مُنشغلًا حقًّا بأمور دينية؟ أنا لا أتصور ببساطة أن يصل أي إنسان الآن للحظة المناسبة للارتداد عن الإيمان بأي دين، ولا يتم فهم ذلك على أنه يعكس حالة المجتمع.

– لا، لا. لن يستطيع "ساشا" أن يخرج من وضعه هذا إلا شيئًا فشيئًا.

– المفروض أنه يمارس الآن كثيرًا من الرياضة.

– لقد سمعت هذا أيضًا. لكنني لم أسمع هذا منه هو نفسه.

وهكذا أخذنا نتسامر؛ عن "فيرونيك"، التي أضاعت كثيرًا من الوقت في الشكوى من أنها لم يعد لديها وقت أبدًا. وعن "زيمونه"، التي أصبحت في أثناء ذلك رئيسة صفحة الأدب والثقافة في إحدى الصحف، وأصبحت **لها مكانة بارزة**. وعن "آن كاترين"، التي كانت ترسل صورًا كثيرة جدًّا لطفلها الرضيع. وعن "دانييلا"، التي كانت في اليابان. أما "أنالينا" فلم يكن أحدنا يعرف أين كانت تعيش عندئذٍ. وعن "أوليفيا"، التي كان عملها الرئيسي هو القيام بالتنويم المغناطيسي لمساعدة المرضى على استرجاع ذكريات الماضي. وهو ما كان يزيد افتتان "فينسنت" أكثر فأكثر، بينما لم يكن منشغلًا بها هي أبدًا... (وكذلك فقد أسدى لنا "يان" معروفًا بأن تظاهر أنه لم يكن يشعر بأنه مُنعزل عن حديثنا، وذلك على الرغم من أنه كان يعرف الجميع بالاسم فقط تقريبًا).

تساءل "يان":

– وأنتِ يا "آنَّا"؟ هل ستنتقلين إلى "شتوتجارت"؟

لكن "آنَّا" لم تكن تريد أن تلتزم بذلك. مع أنها لم يكن أمامها في المجمع السكني القديم سوى أربعة أسابيع. همهمت "آنَّا" ببعض الكلمات:

– التدريب، أريد أن أصبح مدربة.

لكن أكثر ما كانت تتمناه هو أن تنتقل بصورة دائمة إلى مجمع سكني في الريف، أو إلى أفريقيا، أو إلى منظمة غير حكومية، أو...

أمرها "فينسنت" بصرامة قائلًا:

– فلتتوقفي عن مناورات تشتيت الانتباه هذه. فأنتِ سوف تصبحين مُدرِّسة.

تنهَّدت "آنَّا":

– أعرف أيضًا أن هذه كلها مشكلات تتعلق برفاهيات. أنا أريد أن أساهم قدر استطاعتي في التقليل مما يتعرض له العالم من تدمير. وأعرف بالطبع أنني لا أستطيع فعل شيء آخر على كل حال. لكن في النهاية تقليل الأضرار عن طريق تقليل استهلاك الفرد ما هو إلا مشروع بائس لتحقيق الذات. مشروع يساهم بطريقته في تضييع مواردي. نعم، أعرف هذا! لكنني لن أخرج من هذا المشروع! وكل مُكالمات المواساة ومنشورات التعبير عن الحسرة على الإنترنت، التي أحتاج إليها بسبب ذلك، تجعلنا نستهلك مزيدًا من الكهرباء!

قال "فينسنت":

– وجهة نظر. لكنها تبدو مُراهِقة بشكل مثير للفزع. وأنا على دراية جيدة بهذا! فما يدفعني في حياتي أمور تعود لفترة المُراهقة.

تظاهر بأنه يترفَّع عن الحديث. لكنه كان يحترق شوقًا ليحكي لنا عن عمله في الوكالة الدولية الجديدة. بدأ "فينسنت" حديثه، الذي بدا كالمحاضرة، بقوله:

– لا يعنينا أن نقدم أي منتجات بشكل جذَّاب قدر الإمكان.

وأضاف:

– لا، نحن نبتكر اتجاهات عامة. لا، نحاول أن نتيح للمتعاقدين معنا هذا الاتجاه أو ذاك، عن طريق أن نتظاهر كما لو أن هذا الاتجاه موجودٌ بالفعل. أجل، إنه عمل قذر. إننا نذهب ونأخذ الناس معنا، من حيث يوجدون وفي خضم شعورهم بالخوف من أن يفوتهم شيء ما. هذا هو الشعور الذي يمُرُّ به العملاء في حياتهم. وفي أثناء ذلك لا يجوز للإنسان أن يكون مُرهف الحس. فنحن نترك أمر المشاعر للمنتجات، التي ترتبط على كل حال بشكلٍ مستمر بمجموعة ذكريات ما من ذكريات الطفولة. وترتبط بذلك بأول ذكريات طفولية مسكينة في تقدير السلع.

قالها ونظر إلى بطني. وأضاف:

– بالمناسبة، هذا يحدث في الغرب مثلما يحدث في الشرق. ومن المُثير للسُّخرية أن الناس يفضلون تذكُّر سلع جمهورية ألمانيا الديمقراطية. هل من المفترض أن أدخل في **حالة جدال** حول هذا الموضوع؟ قد يكون هذا أمرًا لائقًا، كالمُعتاد دائمًا. وكذلك الأمر بمجرد أن تنشأ موضة ويصبح لها شعبية – حتى وإن كان أول عُملائها ما زالوا يستكشفونها – مع أننا نكون ساعتها قد أوشكنا على الانتهاء من تطوير موضة أُخرى قادمة.

اهتزَّت "آنَّا"، وقالت:

– أسأل نفسي، بماذا سيشعر الناس الذين عاشوا في فترة زمنية أخرى لو تم نقلهم إلى عصرنا هذا؟ في ظل هذا القلق الكبير المتعلق بالأمور الخاصة بنمط الملابس، وشروط ارتدائها، والنصائح من أجل الاستهلاك المثالي لها...

قال "يان":

– لا. يمكن أن نرى الأمر أيضًا على هذا النحو؛ يجب على مجموعة من الأشخاص أن يقدموا أداءً جيدًا بعض الشيء، من أجل أن ينشغل الناس بأمورهم.

وعمومًا، لم يشعر "فينسنت" إلا بالتأييد:

– هذا هو الأمر بالطبع! فحتى الناس المنتمون للمستقبل وللماضي – نعم أولئك الناس، الذين ربما يجب عليهم أن يتكيفوا مع عصرنا هذا – سوف يضطرون لاستكشاف ما نعلن عنه! دائمًا ما كانت هناك اتجاهات ما، وستكون موجودة دائمًا. وبالطبع هناك أشخاص دائمًا، لا يدركون شيئًا منها أو لا يُبالون بها. ولكنهم كثيرًا ما يستسلمون لاتجاهٍ مضاد. لا، لا، إن الحياة في عصرٍ آخر ليست بديلًا. فعلى كل حال، الوقت ما هو إلا وهم.

نظرت إليه "آنَّا" مُتشكِّكة:

– لا. عندما بلغ عمري ستة عشر عامًا، كُنتُ أعتقد أيضًا أن بقاء الإنسان في حالة شباب للأبد ليس مهارة.

قلتُ على سبيل الاعتراف:

– أدركت هذا عندما أصبح عمري تسعة وعشرين عامًا.

قال "فينسنت":

– لكنني ما زلت أعتقد هذا حتى اليوم! هذا هو السبيل الوحيد، يجب أن نتجاهل هذا الأمر.

تساءلت "آنَّا":

– ألن تكون مضطرًا أبدًا لأن تموت حينها؟

– بالضبط! أنا أعرف أنه ليس أمامي سوى الفشل. لكن الإنسان يفشل على كل حال طوال حياته!

(صاح بها بسعادة رجل يسخر من نفسه وهو يعلم جيدًا أنه يستطيع استغلال الفرص المتاحة له أكثر بكثير مما هو مُعتاد).

سأل "يان" عن استحقاقه في الوقت الحالي للحصول على معاش. وكان "فينسنت" مُنشغلًا بهذا الأمر.

صاحت "آنَّا".

- أرأيت.

- أرأيت! أرأيت!

- نعم.

قالها "فينسنت" في سعادة، وأضاف:

- ولكن هذا هو رأيي.

فمن ناحية أخرى، كان "فينسنت" يتقبل الآراء المتنوعة بصدرٍ رحب، حتى لو اختلفت أيضًا مع آرائه. وكان مضطرًا مع ذلك أن يزعجنا بحديثٍ بدأه بنظرية النسبية، ونظرية "العود الأبدي"، وتصورات أن الوقت يتحرك في كل ثقافة ما بحركة دائرية؛ بطريقةٍ أو بأخرى. ففي ثقافتنا نحن أيضًا، تدور عقارب الساعة في دائرة أبدية. بدت "آنَّا" عندئذٍ غير مكترثة بما يقوله.

صِحتُ قائلة:

- ومع ذلك فإن الإنسان مضطر لأن يعيش كل شيء بحسب ترتيبه الزمني! لعلك تعتبر هذا الآن أمرًا تافهًا وأحمق و**ألمانيًّا**. لكن الوقت، الذي أعيشه في حياتي، له اتجاه واحد. مستقيم وحازم. وأنت أيضًا لن تهرب من التسلسل الزمني للحياة. يمكن لوعي الإنسان أن يطرد شيئًا ما في حالة من الاضطراب والفوضى. والذاكرة كذلك على كل حال. لكنني حتى

عندما أستغرق في الذكريات، فإن الحياة تستمر دائمًا، ورغمًا عن كل ما يقوم به العقل. وعندما أفكر في طفلي، أجل! هذا أمر مثير للغضب!

ظهر انتفاخ في الجانب الأيسر من بطني كبير الحجم.

– إنه لا يتحرك بشكل دائري! إنه يستمر في النمو دائمًا، ومن ثم يخرج من بطني. ليس هناك مجال للتراجع أبدًا! ولا توجد حتى أي فترات راحة!

– لا، أنتِ... أنتِ حامل، وليس لديك الدورة الشهرية.

كنا نحتفل بليلة رأس السنة الجديدة. كان من حق الآخرين أن يشربوا الخمر. أما أنا فلا بسبب هرموناتي.

– هل ما زلتِ تعتقدين أيضًا أن هوية الإنسان تظل موجودة باستمرار؟

قلت له:

– من الناحية النظرية مستحيل. أما من الناحية العملية بالتأكيد. ما دمت أستطيع أن أسيطر على الصور المختلفة لذاتي.

لكن الأمر كان جادًّا بالنسبة لي:

– نعم، نعم، نعم. كل هذه الأوقات موجودة. وقت كثير جدًّا ومقدار من الوقت الماضي ومن المستقبل، ربما يزعجنا هذا الوقت ويضغط علينا ويتربَّص بنا. ولكنه لا يكون تحت تصرُّفنا. ونحن نعترف بذلك عندما نشتري المنتجات التي تُقاوم علامات الشيخوخة.

أيَّد "يان" كلامي قائلًا:

– ربما يكون لهذا أثر مُشرق، لكنه لعنة بالطبع! أجل، إن الطبيعة تتجدد كل عام. بطريقتها القاسية. تبدو الطبيعة خضراء اللون وجميلة. لكن ما الثمن المدفوع مقابل ذلك؟!

صِحتُ قائلة:

– أنا متعلقة بوعيي! وليس لديَّ شيء سواه. وللأسف يعرف وعيي أنه يمكنه أن يُسخِّر الموت لصالحه، لكنه ليس لديه فرصة ضده!

– نعم، يا له من تخيَّل لو أن الإنسان توقف فقط عن إبعاد الموت! لن تعود في النهاية أي ضرورة لذلك. كما لو أن الموت يسمح للناس بأن تنتبه إليه انتباهًا شديدًا، أو يجعلهم يهملونه في حالة من الفوضى.

– مثلما كان يحدث في الحلقات الدراسية **لخوض تجربة تعلم الموت،** والتي يحكي فيها شباب – لهم ميول فردية بشدة، وتبلغ أعمارهم منتصف العشرينيات – لبعضهم بعضًا عن تخيُّلاتهم أن الموت يقترب منهم، وأن هذه التخيُّلات تزيد على الرغم من شعورهم بأنهم لن يموتوا!

سألت "آنَّا":

– أوه! هل شاركتِ أنتِ أيضًا في هذه السخافات؟

– هراء! لقد تعرضت حينها لحادثة الدراجة.

(والتي لم تجعلني بالتأكيد أقترب من الموت بشكلٍ كبير).

أشار "فينسنت" بالنفي، وقال:

– مفهوم! هل لديكم حجج أخرى؟ تأتون دائمًا بها إلى هنا. يجب عليكم أن تنضجوا. هيَّا. لقد حان الوقت لذلك!

– نعم، نعم، نعم! فلتنتظروا فقط! عندما أدفع بالطفل خارج جسدي...

وسيقول طفلنا بعد ذلك بأربعة أعوام: "عندما كُنتُ كبيرًا وأنتما كنتما صغيرين" ويتلاعب بالوقت.

أشارت "آنَّا" إلى ما حدث في العالم؛ فهناك حراك ما في تونس. (وسرعان ما سيمتد هذا الحراك إلى دول الجوار ويتجاوزها). أخذ الجنين الموجود في بطني يتحرك. كان مذاق الشمبانيا الخالية من الكحول بشعًا. أما "فينسنت" فقد هرب إلى حفلة تناسبه.

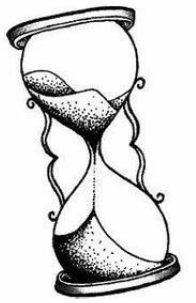

7

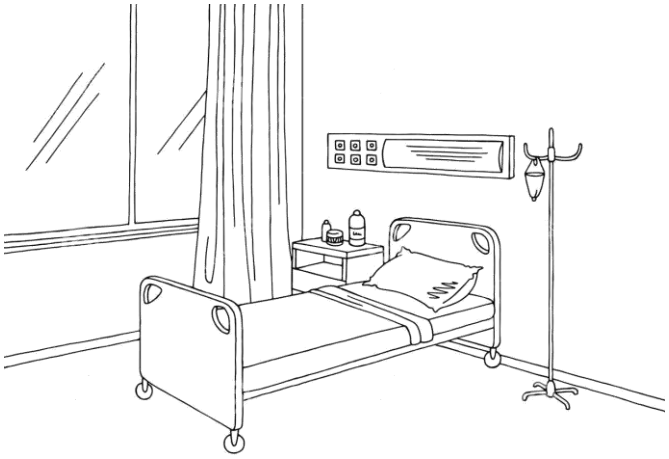

"وكل ما حدث، استغرق ثلاث ثوانٍ.
ثانية قبل ذلك، وثانية بعد ذلك، وثانية في وسط ذلك".
"بيترليشت" - "حمام شمس"

تأخَّر موعد ولادة الطفل. كنا مُستعدِّين بشكل جيد جدًّا. نعرف أن هناك لحظة عظيمة تنتظرنا. وحتى أخصائية الولادة الطبيعية الموجودة في كورس العناية بالأطفال تحدثت عن ولادتها. كانت تقصد بذلك ولادتها لابنها. لقد أكدت مرارًا وتكرارًا أنها تتحدث عن أكثر شيء طبيعي يحدث في العالم. أي عن الولادة الطبيعية، عن ذلك الحدث. خدعتني عندئذٍ بتهوينها من أمر

الولادة. بعد الولادة (لن أعتبر ثانية أن حادثة الدراجة، التي تعرَّضت لها، حدثًا له قيمة). كنا نعرف أن حياتنا ستتغير، وأنها لن تعود كما كانت قبل ذلك (وهو ما يجب أن يكون موجودًا في الأحداث التي تجذب أعدادًا كبيرة من الجمهور، وفقًا للطريقة التقليدية في معالجة السيناريوهات).

كنا نعرف شكل طفلنا الرضيع بالفعل، فقد كان يظهر في الأشعَّة ثُلاثية الأبعاد وهو يمصُّ إصبع الإبهام. أظهرت الأشعَّة بالموجات فوق الصوتية أن كل أجزاء جسمه تنمو في موعدها المناسب. وأثناء فترات خضوعي للفحص، كُنتُ أبحث على الإنترنت عن معلومات عن الجنين، الذي ينمو بداخلي. (كم وددت أن أضع في بطني مباشرة كاميرا "ستاند". ولكنني اكتفيت باللحظات الكبرى، التي مرت بها نساء أُخريات، وبكل الخطط والحسابات والقناعات والقرارات.

كلما كان هذا كله أكثر تفصيلًا، كان أفضل. حتى وإن كُنتُ أظن أنني أعرف منذ وقتٍ طويل رأي العالم في أفكار ومعتقدات الولادة. ارتفعت حرارتي وأخذت أتنفَّس وأتأوه بعد ذلك مع مشاهدتي للصور المتتابعة المغطاة بالدماء. ملأني الشعور بالارتياح عندما استطاع الجميع في النهاية رؤية ما الذي انطلق خارجًا من هذه الأعضاء التناسلية الغريبة والمفتوحة عن آخرها بشكلٍ مفزع. لم أهدأ إلا عندما أدركت فجأة وجود أقاربي أيضًا، أو عندما أردت أن أهتم بتسريحات شعر جديدة، بينما كان أمر الولادة يتعلَّق بالحياة، وبآلام، وأوجاع، ومخاوف، وأزمات، وفتحات في الجسد، وجروح، ومفاجآت، ومضاعفات).

كُنتُ مُستعدَّة لكل شيء. كُنتُ مُستعدَّة للمخاطر بمختلف أنواعها (كأنني كُنتُ سأستطيع بذلك أن أمنع حدوثها. على كل حال، نجحت في

هذا مع آلام الحمل، التي أصابتني في ظهري. فعندما أخذ بطني ينمو، توقعت بشكلٍ أكيد أن تحدث هذه الآلام لدرجة أنني لم أعد في النهاية أشعر بظهري على الإطلاق).

منذ شهر، أصابتني آلام سابقة لآلام الولادة. ثارت كل قوى الطبيعة بداخلي. ذهبنا مرَّتين إلى المستشفى في وقتٍ سابق للأوان. لكن جهاز مراقبة قلب الجنين قرر أن وقت الولادة لم يحِن بعد على الإطلاق. وهكذا مرَّ الموعد المتوقع للولادة. وبدأنا نشعر بالقلق لأن شيئًا لم يحدث بعد (بشكلٍ كافٍ). وفي الوقت نفسه، انتابنا شعور بارتياحٍ غريب (كأن هذا الموعد سيتأجَّل كيفما نشاء، وكأننا قد نستطيع في النهاية أن نغفل عن هذا الموعد أو ننساه).

قبل ذلك بأسبوعين، كُنتُ مُتعجِّلة كي أرسل لشركة الإنتاج، في الوقت المناسب وقبل موعد الولادة، تعليقاتي كمحترفة عن فكرة مبدئية لأحد المسلسلات التليفزيونية. وهي الشركة، التي نصحتني رئيستي السابقة في العمل بالتعامل معها. عندئذٍ لم يكن على مكتبي سوى نسخة سادسة من سيناريو "باتريتسيا" (والتي سأجعلها تشعر باضطرابٍ كثير بنقدي الشخصي المستفيض جدًّا)، وكذلك الملاحظات، التي دوَّنها "فيلكس" عن شقيق جَدِّنا.

لقد أصبح "فيلكس" مهتمًا منذ وقتٍ قصير بتاريخ عائلتنا. كما حاول أن يبحث عما يجب البحث عنه ("قبل أن يموت الآخرون جميعًا أيضًا"). وحاول في الوقت ذاته أن يكتب بحث التخرُّج عن تلك الملاحظات. وهو ما انعكس في كثير من تأمُّلاته المنهجية. وفي النهاية (لن يعرف "فيلكس" كثيرًا أيضًا عن أبطال العائلة. لكنه سيعرف على كل حال ما يكفي ليؤكد له وجود اتصالات مع دوائر المقاومة. وهو ما أثار بداخلي تخيُّلات لأماكن لقاءاتهم السرية ولممراتٍ ضيقة ومخابئ مظلمة واتفاقات، همسوا بها. وكذلك تخيُّلات لقصة حب سرية ولشعور بالثقة، كانت له عواقب سيئة، ولشكوك عميقة في أن كل فرد يستطيع الاعتماد على نفسه. وتخيُّلات أيضًا لنقاط ضعف ولعادات غريبة.

(احتوت ملاحظات "فيلكس" على كثير من العبارات الدينية، ومع ذلك كانت هناك نبرة حادة تعبر عن هذا العصر أو إشارات أولى إلى أن شقيق جَدِّي قد أدمن الكحوليات فيما بعد). لقد ذكر "فيلكس" أن شقيق جَدِّنا دخل السجن أيضًا، حتى وإن كان هذا لمدة أسابيع قليلة فقط. (تخيَّلت على الفور المقصلة وهي تسقط على "صوفي شول"، معارضة لـ"هتلر") وشعرت بالاستياء من "فيلكس" لأنه أراد أن ينكر بذلك أن شقيق جَدِّنا أتم الدراسة الجامعية. كان هذا غريبًا لأنني لم أكن أتصور أبدًا أن أضيع وقتي في استفسارات كبيرة هكذا تخص أقاربي وتخص الأرشيف).

كنا نذهب في المساء لتناول الطعام، ونذهب إلى السينما، وإلى المسرح، ونتنزه حتى وقت متأخر من الليل، بقدر ما كان بطني يتحمَّل. أبقينا هذه الأيام خالية تمامًا، لدرجة أننا أصبحنا مضطرين لأن نملأها بأي طريقة. أصبحت أتجنَّب زيارة صفحات الأمهات على الإنترنت؛ فقد كُنتُ أعرف

بالفعل كثيرًا جدًّا أكثر من اللازم، أو هكذا توهَّمت. وكُنتُ أبحث فقط على الإنترنت إلى أي مدى يشيع استخدام بعض الأسماء وتركيبات الأسماء... (تخيَّلت للحظة) أنني اكتشفت بالفعل رابطًا لأحد مقالات موقع "ويكيبيديا" عن طفلنا وسيرته الذاتية ودوره في تاريخ العالم. كان أمرًا مُغريًا. كانت صدمة. كان تضليلًا... (ولا شيء غير ذلك).

كُنتُ بين الحين والآخر أستسلم للأخبار والعبارات الكئيبة المُكرَّرة عن الربيع العربي... (وهي العبارات، التي كان يقولها مراسلون متفائلون حتى اللحظة الأخيرة، كانوا يحاولون أن يدافعوا عن بذرة أمل لمواجهة شك الإنسان في نفسه، ولمواجهة كل أشكال العنف والشعور بأن هناك عنفًا قادمًا أيضًا). وكُنتُ أستسلم كذلك لتقارير عن الكارثة النووية، التي وقعت في مدينة "فوكوشيما"، وقد كانت تتناسب بشكلٍ مفزع مع اقتراب حلول الذكرى السنوية لكارثة مفاعل "تشرنوبل". وفي أثناء ذلك، نأتي نحن إلى هذا العالم بطفل... (لكنني فضَّلت عندئذٍ أن أفكر في السِّتارة المُلوَّنة الأخيرة، التي لم تكن موجودة بعد في غرفة الأطفال).

أدركت على الفور آلام الولادة الحقيقية، وذلك عندما أيقظتني في اليوم الخامس التالي لموعد الولادة المتوقع. ظلَّت الآلام محدودة، لكنها كانت مصحوبة بهزَّة عميقة في جسدي، جعلتني لا أستطيع مُعاودة الاستغراق في النوم. ومع ذلك لم أكن أريد أن أذهب مبكرًا جدًّا إلى العيادة، وإنما انتظرت حتى استيقظ "يان".

وبينما كان "يان" يتناول إفطاره، اتَّصلت تليفونيًّا بـ"ميلاني" (لأنني لم أكن جائعة). هنَّأتها بمناسبة عيد ميلادها، ولكن عندئذٍ لم يعد من الممكن أن أُؤجِّل شيئًا، أو أن أُرجئ شيئًا؛ فقد زادت شدة التَّقلُّصات وزاد

معدل تكرارها. وأصبحت الآلام منتظمة، مما جعلنا في النهاية نطلب تاكسي. أدرك سائق التاكسي من النظرة الأولى أننا كنا متعجلين.

– أرجوكِ لا تفعليها هنا في السيارة! لديَّ طفلان، وأعرف أنني لن أتحمَّل هذا!

يا له من تاكسي يدعو للتفاؤل!

كُنتُ بالفعل متأهبة لأن أحكي بعد ذلك عن تلك الولادة... (فبعد كل الروايات والحكايات التي عرفتها من الإنترنت ومن صديقاتي وممن تعرَّفت عليهن عند الاستعداد لحفل عيد الميلاد، لم يكن باستطاعتي شيء آخر). أهم ما سأحكيه عن الولادة هو الآلام، والوقت الكبير، والتدخل الجراحي طبقًا لتقدير الأطباء، وتعليق سأضطر أن أقوله عن تصرفات شريكي. وفي النهاية (من المستحيل أن تحدث نهاية أخرى على الرغم من كل المخاوف كان هناك بالتأكيد حظ مضطرب، وتركيبة من هرمونات فائضة، وإجهاد، وارتياح، وحنان، أشعر به كأُمٍّ جديدة).

(بعد ثلاثة أيام، شعرت باكتئاب ما بعد الولادة، والذي كان يتوقف أحيانًا، وينمو أحيانًا أخرى ليصبح اكتئابًا. كُنتُ أتوقع حدوث كل شيء. قبل الولادة على الأقل. وكُنتُ أتوقع أنني لن أفكر في أي شيء بعد ذلك). وأنني سأنسى كل الآلام مرَّة أخرى. ومن الضروري في النهاية ألا أنسى هذا. تبعًا لحالتي المزاجية، كان شعوري يُتوَّج بعبارة "**لو لم تنسَ النساء تلك الآلام، ما كانت أي امرأة ستنجب أكثر من طفل**". أجل، (إن ذاكرة الألم ذاكرة عابرة، ولا بد أن تكون كذلك. وبلا شك، كانت حادثة الدراجة، التي تعرَّضت لها، كافية لأعرف هذا).

لكن هذا كان وقتًا عابرًا. والآن صرت في قلب الحدث. في تلك الأثناء، أصبحت أشعر بتقلُّصاتٍ حادَّة (شبيهة بأشد أوجاع الدورة الشهرية، ومُضافًا إليها ركلات ضعيفة. كما أصبحت أشعر بوضوحٍ متزايد دائمًا برأس الجنين ملاصقًا لحوضي بشدة. فكانت رأسه تضغط على عظامي وعلى المثانة والأمعاء). لكننا وصلنا أيضًا، إلى المستشفى.

أصبحت الآلام في تلك الأثناء أشد لدرجة أنني وددت لو تخطَّيت كل شيء (على الرغم مما في ذلك من مُخاطرة أن أضطر ألا يكون لديَّ الكثير لأحكيه). لكن هذا لم يجدِ نفعًا. كان علينا أن نجتاز الموقف. كل شيء مُعَدٌّ لتحويل غرفة الولادة إلى غرفة عمليات بالاستعانة بأدوات قليلة من تلك الأدوات الخاصة بحالات الطوارئ (لكن الأمر لن يصل إلى هذا الحد. لا داعي للخوف). بذلوا في المستشفى مجهودًا عبثيًّا للغاية كي يُزيحوا الآثار الطبية من الغرفة.

ظلَّت الحوائط مدهونة بلون باستيل. كانت هناك أجهزة مطاطية تستخدم لممارسة الرياضة البدنية أمام الركن الصغير الخاص بالاستجمام، والذي كان يحتوي على حمَّام سباحة صغير. بدا أن تلك الأجهزة لا تتلوَّن أيضًا سوى بمجموعة ألوان الباستيل تلك. ربما كانت تلك الغرفة ستُذكِّرني بغرفة التدريب الموجودة في أحد مراكز إعادة التأهيل، لو لم تنبعث صرخات إحدى السيدات من الغرفة المجاورة. كانت صرخات منتظمة جدًّا، وعالية جدًّا.

رقدتُ في السرير العريض الموجود في منتصف الغرفة. كان السرير مُطلًّا على صليب مُلوَّن صغير وساعة كبيرة. من جديد، أصبحت معلقة بجهاز مراقبة قلب الجنين عبر سلكين. كانت أخصائية الولادة تشعر

بالرضا عن الذبذبات الصادرة من الجهاز. بعثت أخصائية الولادة شعورًا مُريحًا جدًّا وفحصت عنق رحمي، والذي كان يستعد لأن ينفتح.

– سوف تحدث الولادة اليوم.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة إلا عشر دقائق. نبَّهتني أخصائية الولادة إلى أن أتنفَّس، وسألتني إن كُنتُ أريد مُسكِّنًا للألم، واختفت.

لم يشاركني "يان" في التنفُّس. كان موجودًا هناك فحسب. يمسك يدي ويفعل أمورًا طيبة... (أظهر قليلًا جدًّا من العصبية لدرجة أن أخصائية الولادة ربما ستسأله في النهاية هل هو أحد أفراد الطاقم الطبي، لكنه كان مُستعدًّا جيدًا فقط للولادة. حتى وإن ردَّ عليها مُدَّعيًا أن متابعة الحدث تستهويه).

نصحونا في كورس العناية بالأطفال أن تكون هذه اللحظة العظيمة مصحوبة بالموسيقى. إلا أن كل الأمثلة التي اختاروها – التي ذكروها لنا، والتي قيل إنها أمثلة من واقع الحياة – من أجل التخويف والتسلية فقط. بدأت تلك الأمثلة بأوبرا "**لوهنجرين**" لـ"فاجنر"، ومرَّت بالموسيقار "كيتارو"، والموسيقى التصويرية لسلسلة أفلام "**الحديقة الجوراسية**"، وموسيقى "**جرس الحرية**"، ووصلت لموسيقى "**ركوب الفالكيري**".

وربما أنني كُنتُ سأفضِّل قليلًا أن يعلو الصوت فوق صوت الصرخات المنبعثة بجواري. وبدلًا من ذلك، منيت نفسي بأن تساندني وتدعمني أشعار "رور فولف"، التي ألَّفها عن الكوارث. كانت قوافيها بسيطة، وتعبر عن انهيارات سريعة، وبمثابة تسلية، لكنها كانت هي فقط من بين كل هذه الكوارث بلا قيمة... (**لكنه سيجد سبيلًا للخروج بالفعل/ ربما بالأمام، القراء، ربما بالخلف**). قبل أن يتمكن "يان" من فتح

الكتاب، جاءت أخصائية الولادة من جديد ومعها "لاب توب"، كي تدخل فيه آخر ما ينقص من بيانات التسجيل.

وبينما كانت تكتب بياناتي على لوحة مفاتيح "اللاب توب"، تعطَّل. وعندما عاد للعمل من جديد في النهاية، كان عليَّ أن أجيب عن جميع الأسئلة مرَّة أخرى. بمجرد أن جاء دور البيانات الخاصة بالحساسية والمواد، التي لا يتقبلها جسمي، انهار "اللاب توب" مجددًا. فقدت أخصائية الولادة للحظة هدوءها؛ فأطلقت اللعنات وطلبت المساعدة. استغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكننا وصلنا في المحاولة التالية لسؤال هل يجوز للأطباء المتدربين أن يشاهدوا ما يحدث في أثناء إجراء عملية الولادة. ترددتُ. وانهار البرنامج من جديد. وأخيرًا صمد البرنامج حتى الإجابة عن آخر نقطة، وهي هل نوافق أن تضع المستشفى صورة لطفلنا الرضيع على الإنترنت.

- لا!!!

صرخت بها. رفعت أخصائية الولادة بصرها في ارتباك، وسألتني مرَّة أخرى إن كُنتُ أريد مُسكِّنًا للألم. لم تكن الانقباضات قد أصبحت حادَّة جدًّا بعد (لو ظل الأمر مستمرًّا هكذا حتى مساء اليوم، وبهذه الشدَّة) لأن هذه الانقباضات كانت جديدة.

كان الأوان قد فات بكثير لأن أتناول أدوية؛ فقد انفتح عُنق رحمي بالكامل. كان الوقت قد تجاوز في تلك الأثناء الساعة الثانية عشرة بقليل. صاحت أخصائية الولادة:

– الآن نحن بحاجة إلى آلام الطَّلق!

أغلقت "اللاب توب" وأبعدت السلك، الذي يربطني بجهاز مراقبة قلب الجنين دون أن تلقي نظرة واحدة على ما سجَّله الجهاز.

انتابتني موجة من الألم مرَّة أخرى، كادت تكتم أنفاسي، لكنني تنفَّست الهواء بعمق وأخذت أضغط وأضغط وأضغط (حسبما تعلَّمت) وعندئذٍ هدأ كل شيء واسترخى وجه "يان" أيضًا.

قلت:

– الآن هو الموعد الحقيقي.

أومأ "يان" برأسه دون أن يعلق.

– سيكون الأمر مُرهقًا حاليًا مرَّة أخرى، لكنني سوف أجتازه.

وأومأ "يان" برأسه مرَّة أخرى، ثم تغيرت ملامحه من جديد؛ لأنني بدأت فجأة في الصراخ بقوة.

قلت، عندما قلَّ الألم:

– نعم، نحن حيوانات ضعيفة جسمانيًّا، فنحن مضطرون لأن نتألَّم هكذا. يمكن لأي خروف أن يتألَّم بشكلٍ ألطف. أوه، وحيوانات فرس البحر أيضًا! بسهولة ولطف. ذكور هذه الحيوانات هي مَن تتولَّى مسؤولية الشعور بالألم!

ومرَّة أُخرى غلبني الألم.

– أطلقي!

صاحت بها أخصائية الولادة، التي اتخذت بالفعل مكانًا بين ساقيَّ، وأخذتُ أُطلق. بدا أن الجنين لم يتحرَّك كثيرًا.

– استغرقت "آن كاترين" في إجمالي عملية الولادة ثلاثين ساعة، واستغرقت "جابرييلا" سبع ساعات، ومن ثمَّ كانت هناك حالة على الإنترنت...

قلتها، بمجرد أن عُدت أتنفَّس، وإن عُدت مرَّة أخرى على الفور إلى مزاج الثرثرة، والذي لم يدُم طويلًا. واصلتُ الحديث، عندما تراجعت الموجة الأخرى من الألم قائلة:

– لا يهم.

وأضفت:

– أتعرف كيف وصفت "آن كاترين" هذا الأمر؟ كانت ولادة مثل صعود مرتفع يبلغ أربعة آلاف متر دون تلقِّي تدريب على ذلك.

تخيَّلت نفسي أتسلَّق الصخور في وقت فراغي، وأنني لا أستطيع أن أتقدم إلى الأمام، أو أن أرجع إلى الخلف. وشعرتُ بالسعادة أنني راقدة في سرير قسم أمراض النساء والتوليد هذا ومعي "يان" بجواري. صاحت أخصائية الولادة بهدوء، ولكن بحزم:

– أطلقي من جديد!

همستُ:

– لا يمكن أن يكون هذا الأمر بشعًا جدًّا. لا بد أن أستطيع تحمله، ولا بد أن أُتمَّه بنجاح.

وأضفت:

– لقد نجحت نساء أُخريات أيضًا في ذلك. ولولا نجاحهن، لم يكن العالم سيمتلئ هكذا.

وجدت أن تلك الحجة تبعثني على الهدوء بشكلٍ جاد. تجاهلت أن "يان" لم يعلق على ذلك بكلمة. تنسَّمت الهواء، هواءً كثيرًا. كان عليَّ أن

أتنفَّس. وفي النهاية، أخذت أتنفَّس لاثنين. وتنفَّست مجددًا لاثنين. صرخت من جديد، ودفعت بكل قُوَّتي. بدا لي مرَّة أخرى أنني لم أفعل الكثير.

هتفتُ بحدَّة، وبصوت مبحوح شيئًا فشيئًا قائلة:

– لكن في النهاية ستسير كل الأمور بشكل جيد. وسأتمكَّن من أن أدَّعي أنني كُنتُ أعرف هذا منذ البداية.

أومأ "يان" برأسه... (وسوف يحكي بعد ذلك أن قدراتي اللغوية النحوية قد فاجأته بعد صراخ لم أنطق فيه بشيء).

– النجدة!

ناديت بها بصوتٍ عالٍ في فترة السكون التالية.

– ماذا تفعل "دانييلا"؟ إنها في اليابان.

لم يخطر هذا الأمر ببالي إلا الآن.

الساعة الثانية عشرة والنصف صباحًا. في أثناء ذلك، أخذت أفهم الإيقاع. وفي النهاية أصبح لديَّ الانطباع بأن الجنين أصبح يتقدم في قناة الولادة. ومع ذلك، فقد أصبحت أشعر بخوفٍ أكثر قبل أن يُصيبني التقلُّص التالي. نقلت لي السيدة الجالسة في الغرفة المجاورة آلامها بسهولة. وبدا من الصعب أن تخفض الجدران صوت صرخاتها.

– هل أنا الآن على ارتفاع 2000 متر؟ أم على ارتفاع 3600 متر؟ ولماذا لم أتدرَّب بشكلٍ أفضل؟

سألت نفسي وأنا أعضُّ بأسناني على بعضها بعضًا... (سوف أحكي لــ"آن كاترين" فيما بعد باستخفاف أنني لم أصعد إلى ارتفاع أربعة آلاف متر، وإنما إلى ارتفاع ألف وخمسمائة متر، وأن قمَّة المرتفع كانت مُنحدرة نوعًا ما).

بدلًا من أن أسأل أخصائية الولادة عن توقُّعاتها... (حيث إنني لم أعد أثق كثيرًا في تصوُّراتها عن الوقت)، أخذت أحسب دون تخطيط كم مرَّة سأكون مُضطرَّة لتحمُّل هذا الضغط.

- ستكون المرَّة التالية على ما يُرام، والمرَّة بعد التالية أيضًا. وخمس مرَّات وعشر مرَّات. لا مشكلة. لكنني لن يعود باستطاعتي أن أفعل ذلك للمرَّة الأربعين.

قلتها لنفسي، وكتمت الهواء، وأخذت أدفع وأدفع وأدفع وأتنفَّس نفسًا عميقًا، وأُواصل الحساب:

- المرَّة العشرون. قد تكون شاقَّة، لكنها مُمكنة. وكذلك أيضًا المرَّة الخامسة والعشرون. نعم، ولو اقتضت الضرورة المرَّة الثلاثين. المرَّة الأربعون ربما تكون كثيرة أكثر مما ينبغي. لكن الوصول إلى المرَّة الخامسة عشرة أو العشرين ربما يكون مجرد تصوُّر، حتى لو استغرقت الولادة في النهاية وقتًا أطولَ. سوف أجتاز هذا الوضع أيضًا، لو لم يزِد عدد المرَّات على عشرين.

(هكذا حاولتُ أن أُساوم نفسي على وضع عدٍّ تنازلي لما أمُرُّ به من ظروف من أجل ألا أشعر أنني مُستسلمة هكذا تمامًا). أصبحت أضغط في المرَّة التالية بيأسٍ أكبر. بكل قُوَّتي.

همس "يان" قريبًا جدًّا من أُذني:

- ستنجحين في هذا. ستنجحين في هذا.

(همس بها في انزعاج؛ لأنني توقفت عن الثرثرة، وفي اطمئنان بسبب ابتسامتي بعد أن قلَّت الانقباضات). تنحنح وبدأ يحكي أي شيء من موقفٍ ما، يتعرض له شخص ما سريعًا، ولكنه يخرج منه بالسرعة نفسها أيضًا. وهو الموقف، الذي لن يصبح فيما بعد سيئًا للغاية. وأضاف "يان" أن هذا لن يفيد كثيرًا في الموقف بالطبع، حتى لو عرفه الإنسان، ولن يفيد فيما بعد لأن هذا يمكن أن يكون عائقًا أيضًا.

(شعرتُ بأنه كان يفهمني بعمق. لن أفهم إلا بعدها بوقتٍ كبير أن باله كان مُنشغلًا بأمرٍ آخر في الوقت ذاته أي في تلك اللحظة، التي شعرت فيها بالخوف). بعد ذلك، كُنتُ مضطرة لأن أدفع من جديد، وصِحت:

- آه، كيس الجنين!!

أصبح كل شيء مُبتَلًّا. كان رد فعل أخصائية الولادة سريعًا، فأخذت تمسح الماء ومعها في يدها مفرش نظيف.

وفجأة، امتلأت الغرفة؛ فأصبح هناك طبيب، وعلى الأقل ثلاث طبيبات متدربات يقفون حولنا. ربما كانوا يقفون لتَوِّهم حول سريرٍ آخر أو حوض ماء أو كُرة التمارين المطاطية في الغرفة المجاورة، التي كان لا يزال ينبعث منها صراخ منتظم. لكن هنا كان الوضع يسير بصورة أسرع. أو على الأقل كان من المفترض أن يسير بصورة أسرع، حسبما أشارت لي أخصائية الولادة بكل هدوء.

لم يرُق لأخصائية الولادة لون السائل الأمينوسي. أخذت أصرخ وأضغط قدر استطاعتي، وأخذت أتنفَّس الهواء سريعًا بين الحين والآخر. اعتقدت في يأس أن هناك شيئًا ما يتحرك. ومن جديد دار حساب ما بداخلي؛

فأخذت أحسب (عشر مرَّات من الدفع ستكون جيدة. لا، لا شيء جيدًا على الإطلاق. لكنني سأنجح في الدفع عشر مرَّات وفي الدفع اثنتي عشرة مرَّة أيضًا، وعلى أقصى حد عشرين مرَّة. نعم، كُنتُ مُستعدَّة أن أدفع حتى عشرين مرَّة، وأيضًا اثنتين وعشرين مرَّة! لكن ليس أكثر من ذلك).

أخذت أحسب الألم والدفع والخوف وهذا الإرهاق. وأصبحت أصرخ بقوة من جديد... (سوف يحتاج صوتي إلى حوالي أسبوع ليتماثل للشفاء). أخذت أدفع وأدفع وأدفع. وأهدأ من جديد. اتجهت عقارب الساعة نحو الواحدة صباحًا. كم من الوقت يُفترض أن يستمر الوضع هكذا؟ لو كُنتُ أعرف هذا الوضع جيدًا وعن قُرب، لربما استطعت أن أتهيَّأ له... (كأن كل شيء بحالٍ جيد). صرخت من جديد. أطلقت أخصائية الولادة عبارات مطمئنة، وأخذتُ أُصدر صوتًا عاليًا من أنفي... (لم أستطع في تلك اللحظة أن أشرح رغبتي في أن يكون الوضع أكثر وضوحًا).

تفحَّصني الطبيب من كل الجوانب. كان بعيدًا عن سريري، من كل الجوانب، بمسافة خطوة. وقفت الطبيبات المتدربات في الخلف، وانتشرن حول أجهزة ممارسة الرياضة البدنية. كان "يان" وحده مَن اقترب منِّي. لكنني أبعدته إلى الجانب الآخر من بطني، الذي بدا كسلسلة جبلية، وذلك كي يستطيع أن يلقي نظرة إلى داخل جسدي.

حتى وإن كُنتُ أعرف كيف يبدو شيء كهذا، وحتى وإن كُنتُ أريد أن أُوفِّر عليه مشاهدة منظر كهذا. لكنني لم أذهب إلى هناك لأرى، وكُنتُ أحتاج إلى معرفة ما يحدث بدقة. قلت لـ"يان" متوسلة بصوتٍ أجشَّ:

– هل يمكنك رؤية أي شيء؟

وأخذت أدفع بيأسٍ أكبر. قال لي:

– نعم. نعم.

لكن لم يخرج من جسدي أي شيء على الإطلاق. ولذلك اضطررت لأن أسأله من جديد. كُنتُ أريد أن أعرف الإجابة منه.

– نعم، الشعر. يمكن رؤية شعر الجنين.

ظلَّت أخصائية الولادة هادئة ولم تنزعج من أنني لم أسألها. أخذت أتنفَّس واضطررت لأن أضغط من جديد. الآن والآن والآن والآن و... الآن...

– آه، أودُّ الآن أن يفوتني هذا الموقف، وأن أفقد الوعي، وأفقد التحكم في نفسي، وألا أكون مسؤولة بشكلٍ مُخيف هكذا. أنهوا هذا من دوني!

لكنني لم أقل هذا سوى لنفسي... (كان وعيي مُدركًا لكل شيء، واصل وعيي نقل كل شيء إلى الذاكرة). أخذت أدفع وأدفع وأدفع. لكن لا شيء يتحرك نحو الأمام. عندئذٍ استطاع "يان" أن يبذل جهدًا، كيفما يشاء. لم يرَ سوى بضع شعرات. لكنني شعرت بأن الجنين كان عالقًا. لم يكن يستطيع أن يتقدم أو يتراجع في قناة الولادة. كان حجم الجنين كبيرًا جدًّا وجسدي صغيرًا جدًّا.

لكنني دفعت. فما عساي أن أفعل غير ذلك؟ عندئذٍ، تدخَّل الطبيب وأخذ يتحسَّس قدمي الجنين عبر جدار بطني. وأخذ يضغط ويدفع، وأخذت أنا أدفع. فجأة أصبح الموجودون في الغرفة فريقًا واحدًا. وأصبحوا يهتفون ليُشعلوا حماسي، مثلما حدث مؤخرًا في دور نصف النهائي من سباق سباحة ثمانمائة متر ظهر... (لا يتبقى سوى ست حارات فقط، خمس فقط، أربع فقط). لكنني كُنتُ مضطرة للتركيز. ففي النهاية هذا ليس سباقًا في مدرسة ثانوية. بل كان أكبر من ذلك.

(فيما بعد، سوف يدور الحديث عن ولادة سريعة خالية من أي صعوبات). ومع ذلك فإن هذه الذكرى الرياضية، والتي بدت لي غير مناسبة، دفعتني لأن أبذل كل جهدي حقًّا وأن أدفع... (وحتى عندما كُنتُ أدفع، وعندما شعرت بأنني لا أتمالك نفسي بسبب العذاب، كُنتُ ما زلت أفكر في المسائل الشكلية وأدرك أنني أرى هذا الموقف غير مناسب).

شعرت برأس الجنين الصلب بداخلي وشعرت بتوتر. شعرت بألم في أنسجة جسدي. أخذت أضغط والطبيب يدفع، وفكرت:

– ليت ما يحدث لا يتسبَّب في إصابتي بشرخ كبير جدًّا.

وقد حدث بالفعل. لقد تغلَّب الألم الناتج عن الجرح على التَّقلُّصات. لكن عندئذٍ تحرَّك شيء ما. أخذت أدفع مرَّة أخرى. تقلَّص كل شيء بداخلي بسبب الشعور بالألم... (كان ألمًا حادًّا جدًّا أكثر من أن يجعلني أنساه ببساطة هكذا). قررت أن أدفع بجسدي دفعة أخرى. حسنًا، هذا، **سأتذكر هذا**!

(وسوف أستطيع أن أتذكر أيضًا أنني قلت هذا لنفسي. في تلك الأثناء، سوف يزول الإرهاق وتزول كل الآلام – كما توقعت – لأشعر بالهدوء والسكون بعد الولادة). شعرت، كيف انزلق رأس الجنين أخيرًا عبر جسدي وهو ما تسبب لي في الشعور بالألم، ولكن بالتحرر. وددت أن أرجو "يان" قائلة: "قل لي إن رأس الجنين قد خرج بالفعل". لكنني لاحظت عندئذٍ أن كل شيء انتهى حقًّا. كان هناك صوت أنين لشخص لم يعتد بعد على الصراخ... (لكن فاتتني تلك اللحظة بالتحديد، التي اندفع فيها رأس الجنين فيما بعد ليخرج بسهولة. وهي اللحظة التي التقطته فيها أخصائية الولادة بالتأكيد).

كانت الساعة الواحدة صباحًا وعشرين دقيقة. ما زالت السيدة الموجودة في الغرفة المجاورة تصرخ. بدا أن صوتها لم يصبح مبحوحًا بعد. قطع "يان" الحبل السُّرِّي. وبعد ذلك أصبح الطفل راقدًا على بطني، يبدو مختلفًا تمامًا عمَّا ظهر في الأشعَّة ثُلاثية الأبعاد... (لكننا كنا متوقعين هذا أيضًا).

حاولتُ أن أهتف هتافات هيستيرية صغيرة لأصل إلى حالة من النشوة، التي كُنتُ قد تأهَّبت لها، والتي كُنتُ أريد أيضًا أن أكون فيها. أقصد (عندما ينزلق عبر المهبل شيء صلب هكذا حقًّا وبدين حقًّا. لكنني أصبحت عندئذٍ معرضة أيضًا لتوقُّعات خاطئة). كان الشعور بالارتياح هو كل شيء استطعت أن أبلغه... (وهو الشعور الذي ستزداد قيمته مع مرور الوقت ليبدو كافيًا). بدا أن هذا لم يزعج الطفل. كان راقدًا على بطني بصورة بديهية إلى حدٍّ كبير... (لكنه ربما كان راقدًا أيضًا بإرهاق وبشعور أنه مكلف بما يفوق طاقته. مرحبًا به في الحياة).

حان وقت الشعور بآلام ما بعد الولادة. لقد مضى وقت الدفعات العنيفة، والآن يمكنني أن أسمح لنفسي بالشعور بالاضطراب والألم، في أثناء خياطة الجرح، وفي أثناء فحوصات ما بعد الولادة. وذلك حتى أصبح من الواضح أنه لا توجد أي بقايا من عملية الولادة مُختبئة بداخل جسدي، وحتى التأمت كل الجراح، وحتى تراجعت أيضًا البواسير الناتجة عن عملية الدفع... (لكن فلننسَ هذا؛ فقد زال الألم، مثلما يزول كل شيء).

جاء والدي ووالدتي إلى المستشفى في وقتٍ مبكرٍ أكثر من اللازم، وانصرفا في وقتٍ متأخر أكثر من اللازم. انبهرا بحفيدهما انبهارًا بالغًا لدرجة أن شخصية الطفلة الكامنة بداخلي شعرت بالغيرة من ذلك... (بينما غرقت كأُمٍّ في المُجاملات). أهدانا والدي ووالدتي نتيجة أطفال، جعلتنا نشعر بالحنين إلى الماضي. كانت تلك النتيجة عبارة عن طبعة جديدة أصدرتها دار النشر، التي كان يملكها فيما سبق جَدِّي وجَدَّتي. كما أهديانا زجاجة من زيت الزيتون الجيد جدًّا حقًّا. ووعدانا وعدًا جادًّا بأن يُسافرا لنا في أي وقت، لو كنا في حاجة إلى جليس أطفال. (فلم يكونا قد عرفا بعد كم ازدحمت دفاتر مواعيدهما عبر السنين بمواعيد وأعمال روتينية، جعلتهما لا يتوافقان بسهولة على حياة جديدة).

علت الفرحة وجه جَدِّ "يان" وجَدَّته، وارتجفا ارتجافًا زائدًا من أثر السعادة، الآن، حيثما يوجد الطفل. كما لو أن مأساتهما العائلية قد انتهت بذلك بالفعل نهاية طيبة ولا رجوع فيها، وأن القصة قد مضت.

8

"وخلافًا لذلك، كانت السعادة هدفهم. زيجات سعيدة. عائلة سعيدة. على كل حال، كانت طفولة أبنائي سعيدة؛ كانوا فقط يعتبرون الحظ هشًّا بصورة مُبالغ فيها [...] شغف بالسعادة، يكمن في قاعه الشك مجددًا في أن كل شيء كان بلا جدوى، مثل ترسُّبات عكرة".

"كريستا فولف" - "نموذج طفولة"

مضى الصيف من جديد. ومن جديد أصبحت محلات السوبر ماركت مُمتلئة بكعك الـ"ليب كوخن"، وتماثيل "بابا نويل". ومن جديد جاء وقت ذوبان الجليد وارتفعت درجات الحرارة. كان طفلي الرضيع يعيش

اللحظة الرَّاهنة فقط مُستسلمًا لغرائزه. يريد أن يحصل على كل شيء على الفور، ولا يدرك أنه يجب أن يُبقي شيئًا ما، يمكنه أن ينتظر حدوثه ليشعر بالسرور. (كان ما قلناه هذا مجرد حيلة رخيصة منا. وسرعان ما سننسى نحن أنفسنا هذا الأمر من جديد).

كنا نستعجل أنفسنا لنمنح الطفل وقته؛ فمنح الوقت هو أهم شيء. ولو انضبط إيقاع اليوم، وانضبط إيقاع النوم بالنسبة لي، لكان من الممكن أيضًا أن أُمهل طفلًا كهذا بعض الوقت. وحينها سيكون من الممكن أن تسير الأمور بصورة أفضل (فما دام هناك وقت، سأتمكن من أن أهتم به بكل هدوء). لحين أن يأتي فيما بعد الوقت الذي سنتخلَّى فيه تمامًا عن كل هذا.

وفي المقابل، يوجد في هذا العالم المُثير كثير جدًّا من الطيور والقطط والكلاب والناس والحفارات. كما يوجد كثير جدًّا من حُفَر الماء الصغيرة، التي يمكن للطفل أن يقفز فيها ويرش الماء منها. وأحجار صغيرة، يمكن أن يستخدمها في اللعب. وجدران منازل، يمكنه التَّجوُّل بجوارها، وأن يمسح عليها ويمُرَّ بها عند ركوب السيارة والمشي فيما بعد. في كل لحظة، كان الطفل يقول نعم، ومن جديد نعم، نعم، نعم، نعم ومرَّة أخرى نعم، نعم، نعم، نعم... (لماذا كان ينبغي عليه أن ينتظر لأن يشعر بالسرور غدًا، ما دام يشعر بسرورٍ بالغ في كل مرَّة يكرر فيها الكلمة؟).

كنا نعرف قبل ذلك بالطبع أننا لم يعد لدينا أي وقت أبدًا. ولذلك كنا نشعر بالسعادة من أي ساعة ننعم فيها بالهدوء. وعلى الرغم من ذلك، مرَّ

الوقت سريعًا جدًّا. فبمجرد أن نُدرك مرحلة النمو، التي كان يمُرُّ بها طفلنا، فإن تلك المرحلة تكون قد انقضت بالفعل. أزحت المفرش، الذي كان طفلي يحبو عليه، وركَّبت أجزاء الدراجة، ولم أشترِ حفَّاضات أُخرى. كان الطفل يتطور، في حين أننا لم نكن نستطيع سوى أن نقوم برد فعل على ذلك التطور.

سرعان ما أصبحت الولادة، وحتى مرحلة الرضاعة، لا تُثيران اهتمامي كثيرًا... (وعلى الرغم من استعدادي الدقيق لذلك الوقت، فإنني وجدت أن تجربة تَحوُّل حيوان حقيقي إلى آلة تنتج الغذاء تجربة تثير الاندهاش أكثر من كل التطورات التي حدثت في بطني فيما سبق). كما أصبحت كل وظائفي الحيوية الرائعة غير مُبهرة بالمقارنة بالبرنامج السِّرِّي الساحر، الذي بدأ الطفل طبقًا له في الحبو على بطنه من تلقاء نفسه، وكذلك في الزحف، ورفع جسده لأعلى، وفي الركض، وفي التكلُّم بصوتٍ عالٍ غير مفهوم، وفي الثرثرة، وفي الحديث...

قال الطفل:

– حدث بالفعل!

وجاء اسمه بين الكلمات الأولى التي قالها. وفيما بعد قال على نفسه "أنا". وبدأ في اللعب كأنه يستطيع أن تكون له أسماء أخرى أيضًا. وأخذ يحكي حكايات مُجزَّأة بشدة وملصوقة. كانت تلك الحكايات تمتلئ بوحوش الكُتُب المُصوَّرة، وشخصيات أفلام الرسوم المتحركة، ولا وجود لنا فيها.

(لم يكن الطفل يأتي لنا مُتمهِّلًا إلا بعد ذلك ليحصل منَّا على بعض التأييد). كان في الثالثة من عُمره ويتحدث بصيغة الماضي. وذلك قبل أن

يجيد بناء الصيغ الزمنية بصورة مضبوطة. (إن الحكاية الصحيحة تدور أحداثها في الماضي؛ هكذا قال "يان" متذكرًا:

– عندما كُنتُ طفلًا، وبصفتي من الهنود الحمر، وبصفتي مخلوقًا فضائيًّا، وبصفتي قُرصانًا، كُنتُ دائمًا ما أفكر بصيغة الماضي البسيط وأنا ألعب. أي بصيغة الماضي الناقص آنذاك. لكنني لم أتعلم هذا أيضًا إلا فيما بعد).

انقضى أيضًا ما كنا نعتبره **الأمس**. لكنه حدث حقًّا. الأمس، وقبل أربعة أيام، وثلاثة أسابيع، وشهرين، أو صباح اليوم نفسه السابق لبدء روضة الأطفال. قريبًا سينسى الطفل هذه المرحلة. وذلك على الرغم من أنه يخزنها باستمرار، ويستوعبها، ويواصل تخزينها، ويرتب أموره ببطء، وبالتدريج مع الوقت... (ما دام كان هذا ممكنًا). فنحن الكبار على دراية جيدة بالتقويم، ومع ذلك فإننا نسأل دائمًا متى حدث هذا الأمر أو ذاك... (وماذا فعل الطفل آنذاك؟ لقد كان يجيد كل شيء بالفعل، إلى أي مدى كان هذا موجودًا في جدوله الزمني).

الذاكرة أيضًا تصبح مضطربة. لذا الصدف تكون مفيدة في التذكر؛ فمثلًا أن يحدث ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة (كان هذا الارتفاع في درجة الحرارة هو المرض الوحيد، الذي مرَّ به الطفل في سن مُبكِّرة وتجاوزه سريعًا) في المساء، الذي كُنتُ مضطرة فيه أن أذهب إلى مكتب البريد لأرسل لشركة الإنتاج سيناريو "باتريتسيا"، الذي أنهيته، والذي حمل عنوان "**الوسواس**"، ولأرسل معه فاتورة الحساب الخاص بي... (وصلت "باتريتسيا" بإصرارها إلى كتابة هذه النسخة المعدلة من السيناريو للمرَّة الحادية عشرة كما بقيت بذلك الإصرار كاتبة السيناريوهات الخاصة بالشركة).

كان من الممكن تحديد هذا الأمر. وكذلك أيضًا حادث الأُرجوحة (البسيط)، الذي وقع بعد ذلك بعامين. وفي تلك الأثناء، حقق الفيلم المُنتهي نجاحًا مفاجئًا عند عرضه في مهرجان صغير للغاية. وقبل ذلك بوقتٍ قليل، أصبح من المعروف إلى أي مدى تراقب أجهزة الاستخبارات الإنترنت. بدا الفيلم التراجيدي الكوميدي بصورة مفاجئة سياسيًّا ويحمل تنبُّؤات مستقبلية.

وعند عرضه في التليفزيون للمرَّة الأولى، بعد سنة ونصف السنة، انتبه الناس بصفة خاصة إلى أن الفيلم قد تأسَّس على مشاعر القلق الغامضة. وكُنتُ قد تحدَّثت مع "باتريتسيا" كثيرًا عن هذا. وفي النهاية، شعرت بالسعادة لأنها قد تجاهلت طلبي منها أن يكون في الفيلم دافع يمكن فهمه بصورة أكثر، ولأنها لم تحدد أسبابًا واضحة لما شعر به البطل من مخاوف.

وبذلك أصبح هناك شيء مُخيف منذ البداية في شخصية البطل، التي أدَّاها الممثل بهدوء شديد أيضًا. وذلك عندما كان يتحكم بدقة متناهية فيما كان يخزنه، أي في هذا الحصن، الذي كان يتكوَّن من بطاريات، وخيوط دوبارة، وورق تواليت، وشرائط لاصقة.

كان هذا الحصن يبدو دائمًا أشد خطورة والبطل يتحصَّن به ضد ما في العالم المُتقلِّب من أمور غير معقولة. كلما قلَّ فهمي الشخصي لهذا الأمر، وكلما هدأ شعوري العام كأُمٍّ شابَّة بالقلق، كان هذا الشعور يبدو لي أكثر إقناعًا. وكُنتُ أشعر بالخوف دائمًا من أن يصعد طفلنا ذات مرَّة عن طريق الخطأ إلى طائرة، أو أن يركب قطارًا عن طريق الخطأ، أو أن يُخطئ في التعرُّف إلى أحد الرجال أو إلى فتاة أحلامه. لكن شيئًا فشيئًا، بدا لي من الأسهل أن أترك هذه الأمور للمستقبل.

واصلت التقاط الصور الفوتوغرافية طبعًا. صورة تلو الأخرى لذلك الطفل، حتى يستطيع أن يبدو للأبد لطيفًا وجذَّابًا للغاية. وعانيت في الوقت ذاته من كل ما بدا راكدًا في حياتي. لقد بنيت آمالًا على أن ألتحق بمشروعات لم تأتِ... (صحيح، إن "باتريتسيا" ظلت تعرض عليَّ النسخ المُعدَّلة لسيناريوهاتها، إلا أنه ما زال هناك وقت طويل حتى تبدأ في تصوير السيناريو القادم).

كُنتُ في بعض الأحيان أعمل كثيرًا محررة نصوص بشكلٍ حُرٍّ. وغالبًا ما كان عملي هذا يقل جدًّا... (وهذا وفقًا لما أتلقَّاه من طلبات عمل، وليس وفقًا لاحتياجاتي). كما كُنتُ أكتب تقارير قصيرة قدر الإمكان لتقييم سيناريوهات أفلام روائية ومعالجات لها، ودون أن يطلب منِّي أحد هذا.

كانت الشخصيات الرئيسية في هذه السيناريوهات تترك كل شيء خلفها، وتثبت لنفسها بذلك أنها على صواب لمرَّة واحدة. وكانت تلك الشخصيات تقع في خطر، ومن خلفها توجد مشاهد ضخمة. ويفوزون في مُراهنات غريبة ويغيرون حياتهم أو يعثرون من جديد على شيء ما، يذكرهم بطفولتهم؛ فتتغير بذلك حياتهم من تلقاء نفسها... (وغالبًا ما كانت صورة أو دُمية قديمة تفتح الباب المُغلق على ذواتهم المدفونة أو ذواتهم السابقة الأكثر صدقًا بالتأكيد. وبعد ذلك يكونون على استعداد للحب أيضًا).

إنها صور مختلفة للمُعالجة نفسها، تنتصر فيها لحظات رمزية عاطفية على الصراع والعمل والخبرة مدى الحياة... (في حين أن حياتي كانت غير مضغوطة وغير مُرفَّهة. وتمتلئ بألعاب أطفال وأحاديث صغيرة عن مسلسلات تليفزيونية للأطفال لا يمكن نسيانها، وتساهم بلا انقطاع

في تشكيل هوية الأطفال. هذا دون أن يشعر أحد منَّا، أي نحن مَن كنا أطفالًا فيما سبق وكنا نشعر بالحنين إلى الماضي، بالرغبة في مشاركة الصغار في مشاهدة هذه السخافات مرَّة أخرى).

تلقَّيت عروضًا لأُؤدِّي تدريبًا عمليًّا، ولأُواصل التعلُّم بدلًا من أن أتلقَّى عروضًا لوظائف. لكنني كُنتُ أشعر بأنني لم أعد شابَّة. بل كُنتُ أشعر أيضًا كأنني مُبتدئة. بدأت في دورة البرمجة كي أطلق فيما بعد اللعنات في النادي عن إضاعة الوقت... (حتى وإن لم يضرَّني فيما بعد أن أتمكن على الأقل من تحديث مواقع الإنترنت). كُنتُ أعلم أنه يجب عليَّ أن أهتم بمستقبلي وأن أُقوِّي اتصالاتي مع شركات صناعة الأفلام والمحطات التليفزيونية أو أن أُصمِّم على تغيير توجُّهاتي، وذلك قبل أن تصبح مؤهلاتي قد عفا عليها الزمن بمرور السنوات.

وهي المؤهلات التي كانت غير واضحة على كل حال. وقبل أن تنساني رئيستي السابقة في العمل تمامًا، والتي كُنتُ أعتبرها مرجعيتي المهمة الوحيدة... (في حين أنني كُنتُ أفكر كثيرًا فيها ولم أدرك إلا فيما بعد كم كُنتُ أُحبُّها، وكم كانت لطيفة دائمًا، عندما تُقدِّم لي اعتذارات. ولولا الشهادة، التي كتبتها لي رئيستي السابقة، لم أكن سأتلقَّى دعوات للقاءات توظيف كثيرة جدًّا، تسبَّبت لي في إحباط كبير).

صحيح، إنها كتبت الشهادة في وقتٍ متأخر، لكنها كتبتها بمزيد من المشاعر. بدأت أضع لنفسي فترات زمنية محددة، كُنتُ أطيلها بصدرٍ رحب

كل بضعة أسابيع؛ فقد كانت تمُرُّ سريعًا. هذه الأسابيع والشهور. لم أنجح حتى في إفساد وقت فراغي؛ فقد شعرت بتأنيب الضمير بما يكفي من منعي من الممارسة الحميمية على الأريكة ذات مساء... (ولوقتٍ طويل بالفعل، تصنَّعتُ عند مشاهدتي للتليفزيون أنني لم أعد مهتمة بصفتي محترفة بتطوير البرامج التليفزيونية أو بخطة عرض البرامج. لم يصدقني حتى "يان" في هذه الحجة). ولم يبدُ لي أنني قد فاتني شيء ما، إلا عندما كُنتُ أتنقَّل ذات مرَّة بين القنوات التليفزيونية، واكتشفت وجود اسم **المخرج الذي عملت معه،** في التِّتر الختامي لإحدى فقرات البث من دار الأوبرا. على الفور أخذت أستخرج بعض من ذواتي الثانية المنبوذة، كأنها كانت تنتظر في مخزنها العميق. كانت إحداها تتمتع بخبرة مسرحية والأخرى تعمل في وظيفة مدرسة. وهي وظيفة لا يمكن لأحد أن يفصلها منها بالفعل.

وكانت هناك أخرى غير معروفة (لي أنا أيضًا)؛ أنيقة وتجيد الصينية بطلاقة. وكذلك مديرة لإدارة ثقافية مستقلة... (وإن كان من المُحتمل أيضًا أنها تؤدي القليل من العمل). وبصورة أكثر استحياءً تأتي إحدى تلك الذوات في صورة أُمٍّ ومعها طفلان أم إنهم ربما ثلاثة أطفال؟ لم أكن أريد أن أفكر في هذا، وتركت القناة التي تبث تصفيقًا، لينتهي بي الأمر لبرنامج "توك شو"، تتحدث فيه "جابرييلا" عن كتابها (الذي كُنتُ أسمع عنه للمرَّة الأولى).

كان على ما يبدو واحدًا من الكُتُب الفُكاهية والهادئة، والتي تُعبِّر عن مشاعر غضب. في هذه الكُتُب يعصف شخصٌ ما بكل شيء حوله بهدوء ويكسب بذلك المال... (كان هذا الشخص في كتاب "جابرييلا"، أم أصابها

الضرر من النظريات التربوية لـ"رودولف شتاينر"). و(نادرًا ما يكون هذا المال كثيرًا للغاية، لكنه كان بالنسبة لـ"جابرييلا" بمثابة إنقاذ، أو على الأقل فرصة وبداية، كانت مضطرة لأن تعتمد عليها.

وربما كانت "جابرييلا" تستعدُّ بالفعل لكُتُب مثل "**عودة والدة فالدورف**" و"**والدة فالدورف، ليس هناك بديل**"). وعلى العكس من ذلك، توقفت سلسلة كتب "السفلة الأوغاد" لـ"آنا لينا". لم أستطع أن أعثر على كتب جديدة لها، على الرغم من أنني تعمَّدت البحث عنها... (فقد أعاد ظهور "جابرييلا" في التليفزيون إلى حياتي واحدة من أحب "المتوفيات العائدات إلى الحياة" إلى نفسي. أي تلك الطالبة الخالدة، التي ترتبط مع جميع معارفها بعلاقات صداقة عبر الإنترنت، وتظل تتواصل معهم ليكون لديها بذلك على الأقل معلومات عنهم. وهذا على الرغم من أن الجميع منشغلون ويعيشون منذ وقتٍ طويل حياة تليق بهم وبها ضغط وقت وعلاقات جديدة).

في ذلك الوقت، كان عالمي مشغولًا بأمهات لأطفال في سن الروضة، وآباء يوجدون في ملاهي الأطفال. ومن بينهم "يوهانا"، التي كانت تشعر بسعادة غامرة في بداية حملها لأنها استطاعت الحصول على درجة الدكتوراه، ولكنها أصبحت مضطرة كذلك للأسف أن تكتب البحث حينها. و"ياسمين" التي أصبحت تعتمد على نفسها عن طريق انتقالها للعمل بمفروشات الكروشيه، وتنتظر منذ سنوات بتماسك وهدوء أن ينتهي ما وصلت له من نجاح. و"دوروتيه" و"هانز"، اللذان انفصلا بعد وقتٍ قليل من قدرتهما على الاتفاق أخيرًا على موعد الزفاف.

شيئًا فشيئًا، قلَّ انشغالي بأصدقاء الدراسة. حسنًا، لقد حصل "فينسنت" على إجازة تفرغ طويلة من العمل واستمتع بالحياة في جزيرة أخفى اسمها... (كان السبب في ذلك أنها لم تكن تخصُّه وحده بشكلٍ كافٍ، أو لأنه لم يكن يرغب في تلقِّي زيارات فيها. من المحتمل أن يعود "فينسنت" أيضًا بكتاب انتهى منه، وأن يؤسس اتجاهًا عامًا جديدًا عن "إبطاء وسرعة وتيرة الاقتصاد" مثلًا و"نظرية التسارع من أجل تحقيق الاسترخاء").

كانت "آن كاترين" ترسل صورًا لطفلها الرضيع الثاني. كما كتبت "دانييلا" كذلك مُدوَّنة عن موضوعات عائلية. كانت "دانييلا" في أثناء ذلك في السويد، (ولم أكتشف أبدًا كيف عايشت الحادثة التي وقعت في مدينة "فوكوشيما"، وأيضًا في "كيوتو". وكيف قرَّرت أن تبقى هادئة، لا سيما في أثناء حديثها مع الأقارب، الذين كانوا يشعرون بالقلق. وذلك حتى أصيبت بحالة من الذُّعر بسبب اشتباه لا مبرر له أخيرًا في إصابة شقيقتها المقيمة في ألمانيا بالسرطان. وهو ما دفعها إلى العودة على الفور. إلا أنني لن أعرف هذا أبدًا، وبسبب ذلك ربما أو لا بد أن الأمر كان مختلفًا تمامًا).

كانت "ميلاني" تواصل الرقص... (وبانتظارها وظيفة ما في إحدى مدارس التمثيل، وذلك بعد أن أتمَّت التدريب، الذي يتلقَّاه مدربو رقصات التانجو). أما "ميريت" وصديقها الجديد فقد حصلا على جائزة بسبب مواصلتهما لتطوير **مشروعنا الثقافي لمجموعة أفراد الكومبارس**، والذي أصبح اسمه الآن "**إبيجونين 3.0**"... (في أثناء ذلك، كان يعمل معهم "خبراء الأمس" المنسيون من أصحاب الوسائط المتعددة الذين تتماشى آراؤهم مع "ميريت").

جعل "فابيان" تلاميذه يؤمنون بأفكار تحاكي الحركة الفنية الطليعية. وبينما كان تلاميذه يسعون على الإنترنت من أجل **تدقيق الحقائق**، كان هناك تلاعب في بعض الأمور... (وهو ما سبَّب الشعور بالتشوُّش والارتباك في الموقع الإلكتروني للمدرسة). بينما حاولتُ "آنَّا" أن تجعل أحداث حياتها الشخصية المرتبة زمنيًّا تضم الأحداث الحالية في العالم، حتى وإن كانت تتمتع دائمًا بمزيد من الشجاعة كانت تجعلها تصنع بذلك فراغات في أحداث حياتها.

كما انشغلت "آنَّا" بالأكاديمية المهنية وبالطفلين الأفغانيين اللذين تبنَّتهما. عندما سألتها في التليفون عمَّا تفعله وحدها مع كلا الطفلين، اعترفت بأن الأمر مُرهق:

– لكنه أصعب قليلًا مما ظننت.

قلت لنفسي إنه لا بأس من أن أتحلَّى ببعض الكفاءة، وأن يكون هناك ما يُحفِّزني. فأخذت أشاهد وأسمع وأقرأ الأخبار. لكن في حقيقة الأمر كانت المجلة الاستهلاكية الصادرة عن مؤسسة "شتيفتونج فارنتيست" هي الإصدار النقدي الوحيد، الذي ترك في هذه السنوات أثرًا على خبراتي العملية في الحياة.

وخلافًا لذلك، كُنتُ أتوارى وراء التزامات "يان" الوظيفية... (أي كنوع من مشاركته في العمل الاحترافي. كان هذا مُريحًا أكثر من روتين حياته المُتزايد). كان "يان" مسؤولًا عن نظام دعم الموهوبين، والذي يشمل بشكلٍ مُتزايد تقديم دورات لغوية للاجئين وبرامج أخرى لمواصلة تأهيلهم. استطعت أن أثبت هويَّتي بذلك... (حتى وإن لم أفعل شيئًا من أجل هذا الغرض).

وبالطبع كُنتُ مضطرة لأن أرجو "أوليفيا"، وأذكِّرها، وأُلِحَّ عليها أن تحذفني من قائمة مَن ترسل لهم رسائل. كانت "أوليفيا" آنذاك تتعاطف مع أي نظام، ما دام أنه يُعادي الولايات المتحدة قليلًا، ويُعادي إسرائيل (بشكلٍ أكثر صراحة). وكانت حريصة على وضع نظريتها الخاصة جدًّا عن جرائم القتل المُتسلِّسلة، التي يرتكبها اليمين المتطرف العنصري، والتي انتهت أخيرًا بعد سنوات من التجاهل العام ويحاكم مرتكبوها منذ فترة. لم أكن عندئذٍ مهتمة سوى بالمجرمة المعروفة باسم "**الشَّبح**"، أي بتلك المجرمة المتطرفة، التي لم يكن من الممكن القبض عليها، والتي عثروا على الحامض النووي لها في أحد أماكن الاعتداءات.

مثلما حدث ذات مرَّة، بعد وقوع عملية سطو في مكان قريب جدًّا منِّي على بعد شارعين. تسبَّب هذا في إثارة بعض الخوف، حتى اتضح أن أساس هذه الحكاية كان مجرد مادة مُلوَّثة، تُستخدَم لرفع الأدلَّة الجنائية. إلا أن شعور "أوليفيا" بالثقة تعرَّض للتدمير (لكن منذ متى؟) وتعرَّض لإطلاق الرصاص. فاندفعت الأشلاء الناتجة عن ذلك بشكلٍ أعمى في عالم يمتلئ بمعلومات مُتاحة بشكل مُريب. وارتبطت تلك الأشلاء بلهفة مُتزايدة بكل شائعة وبكل نظرية، تقدم وعودًا بأن تجعل الإنسان يرى بصورة أكثر تميُّزًا، وترتقي بالعجز والاحتياج ليصبحا منهجًا يتبعه الناس.

– نعم، من الممكن. لا، لا مفر من أن تكون كل طريقة للإثبات غير كافية، وأن يكون في كل وسيلة معرفية شوائب، وألا يكون مسموحًا لنا بالثقة إلا مع وجود تحفُّظات. لكن بعد ذلك يجب التخلُّص من تلك التحفُّظات. أقصد أنها سبق وأن درست أيضًا!

هزَّ "يان" كتفيه فقط، وقال:

– حسنًا. لا يمكن أن نلاحظ هذا كثيرًا لدى كثير من الأشخاص.

وبعد ذلك جاء الطفل راكضًا؛ فقد رأى حلمًا سيئًا، لكن بقفزة واحدة منه أصبح كل شيء جيدًا مرَّة أخرى... (وربما كانت "أوليفيا" لا تبحث أيضًا سوى عن قفزة مثل هذه القفزة، وربما أنها قد نسيت أنها لم تعد طفلة).

لم تكُن "ساندرا" تُفكِّر في إنجاب أطفال، ومع ذلك فقد جعلتني أحكي لها في مُكالمة أجريناها عبر الإنترنت عن ضيق الوقت، وقلَّة النوم، والإجهاد على الرغم من قلَّة الانشغال... (فعندما كان أحد تكليفات العمل يرغمني أن أجلس ليلًا إلى "اللاب توب"، كانت "ساندرا" تبدو لي على شاشة جهازها وهي في "بوسطن" أقرب من كل الصديقات الموجودات هنا).

إلا أنني حكيت لها أيضًا عن بعض اللحظات. أي هذه اللحظات، عندما يصرخ الطفل بعد ساعات طويلة من الضحك والقفز والغناء والضحك من جديد ليقول:

– زغزغيني!

وذلك بمجرد ألا يجد شيئًا يجعله يواصل الضحك، وعندما يصمم على أنه لا يشعر بالتعب، وليس منفعلًا بشدة، وليس جميلًا، وليس ابننا، وليس في غرفته، وليس في سريره، وعندما لا يريد أن يستلقي أو يعانقنا **سوى في أثناء اللعب**. وعندما يفتح عينيه في أثناء نومه لفترة وجيزة ليقدم بضميرٍ يقظ اعترافات لنا ولنفسه وللعبة بأسراره. وعندما يستجدينا ويبكي دون سبب.

عندما تراوده أي رغبة (تصبح في اليوم التالي غير مهمة بالفعل) ويولول ويتشبَّث ويوجه الضربات في كل مكان ويتوقف عن هذا؛ فيبتسم بسحرٍ شديد قائلًا:

- هل ستقولين الآن حسنًا؟

ولا يشعر بأنني أخذت كلامه محمل الجدِّية فيصبح غاضبًا حقًّا. وعندما يركض بعيدًا متقدمًا بضع خطوات نحو الأمام ومتوجهًا نحو المغامرة اليومية بالذهاب للتسوق وللاهي الأطفال. وعندما يظل واقفًا أمام كل ركن ويلتفت ليرى هل نطيعه ونسير خلفه.

وعندما يغيب عن نظري ذات مرَّة ونحن في المنتزه وأنشغل في الحديث بتهور وغفلة؛ فيتضاعف شعوري بالخوف، الذي كُنتُ قد نسيته وأبعدته. ويبدأ شعوري بالخوف يتزايد ثلاث مرَّات. لكن عندئذٍ أسمع الطفل يصيح ويبحث عنِّي ويصرخ في يأس. وبالفعل يملؤني الارتياح من جديد والطفل ينظر لي. ثم ينسحب من بين ذراعيَّ ويستجمع قُواه وينظر في وجهي قائلًا:

- أنا أبكي!

يقولها (بعتاب من ناحية، وبذهول من ناحية أخرى). ويشعر بالاندهاش، وتواسيه هذه الجملة... (ويكون قد توقف عن البكاء).

كانت "ساندرا" عندئذٍ تبتسم بأدب. وبين حين وآخر، تنظر فقط فيما حولها نحو مكتبها. لكنها في النهاية كانت تغير موضوع الحديث. منذ فترة، أصبحت "ساندرا" تُبدي اهتمامًا بثقافة جيل "البيت".

اعتبرت هذا الأمر في البداية أيضًا مجرد لُطف منها لأنني لم يكن لديَّ كثير لأقوله عن الأدب الذي كانت تنشغل به. لكنني أقدمت بشدة على

الحديث معها عن الموضوع؛ فقد ظلت ملخصات الأفلام البوليسية – التي كان ينبغي أن أكتب تعليقات عليها – خالية من عنصر المفاجأة... (ولم يخطر ببالي أيضًا كيف يمكن أن تصبح تلك الملخصات أكثر إثارة).

شيئًا فشيئًا، أدركت أن الموضوع يُثير شغفها بشكلٍ جادٍّ. ومع ذلك فقد انقلب شعوري بالحماس، عندما أخذت "ساندرا" تحكي عن السير الذاتية لأدب "البيت"، والتي كانت وكالة "ساندرا" تمتلك حقوقها، وكذلك عن شرائط التسجيل الخاصة بالشاعر "ألان جينسبرج".

وتحوَّل هذا الحماس إلى حسد خالص، بذلت كثيرًا جدًّا من الجهد لأُخفيه، لدرجة أنني تأخرت في ملاحظة ماذا كان قصدها عندما قالت:

– تدرَّبتِ بالفعل على هذا العمل.

أي إنها ستنصح الآخرين بالعمل معي فيما بعد بوصفي **متخصصة في "كيرواك"**، لو وافقت أنا على ذلك. ولكنها قالت لي إن المقابل المادي لعمل الترجمة هذا ليس جيدًا. ولم أدرك إلا عندئذٍ أنها كانت تقصدني بحديثها فعلًا.

أُصبت بآلام في الظهر في أثناء تفكيري في هذا العمل بالفعل. وسيتضح أن هذا التكليف بالعمل هو ثالث أسوأ تكليف عمل أتقاضى عليه مقابلًا ماديًّا، منذ أن أصبحت أنشغل بالأعمال النصية المكتوبة. وافقت على العمل على الفور، وأخفيت (على نفسي) أنه يجب عليَّ قبل ذلك أن أكتب تقييمًا لعشر مُعالجات لسيناريوهات.

كان هذا كفيلًا منذ البداية أن أتعرض لمشاكل في الوقت... (تقاضيت عن تقييم هذه المُعالجات العشر أفضل مقابل مادي عن تكليف عمل في هذا العام). وبعد ثلاثة أسابيع (مثل الأسابيع الثلاثة السحرية لـ"كيرواك") كُنتُ قد بدأت بالفعل في قراءة العمل الأصلي المكتوب بالإنجليزية.

من النظرة الأولى، بدت الكلمات الغريبة، التي تشبه الوحوش، أسهل مما توقعت. لكنني كُنتُ متشككة، وتوقعت أن أجد مشاكل، وجعلت "يان" يستعد لشهور مُرهقة. وعلى سبيل الاحتياط، طالبته بشروط خاصة، ووورديات في المساء، لا أعتني فيها بالطفل، وبأن تزداد مساعدته لي في المطبخ، وأن يُدلِّك مؤخرة رأسي. فقد كانت السيرة الذاتية لـ"كيرواك" ضخمة، ولم تكن لديَّ أي خبرات في الترجمة.

تقبَّل "يان" الأمر بهدوء تام قائلًا:

– الآن أدركت كيف كان الوضع لديكما في السابق؛ أي لديكِ ولدى "كيرواك".

في الخفاء، توقعت أيضًا أن يحالفني الحظ في الكتابة السريعة مصحوبًا بالإفراط في الكتابة ليلًا، وبأن أخوض معاركَ مع ذاتي المُرهقة. كما توقعت أن تنتابني حالات من التركيز ومعجزات في إيجاد الكلمات في ظل شعوري بالإعياء. أجل سيكون الأمر مُضنيًا. سيكون أشبه بحالة طوارئ.

استطعت بالكاد أن أتوقع ذلك... (على الرغم من أنني لم أكن قد عرفت بعد أن هذه السيرة الذاتية ستجعلني في النهاية أيضًا على صلة بمؤسسة "البيت الأمريكي" وبوظيفة أحلامي. سيكون هذا الأمر في بادئ الأمر مقتصرًا على مدة برنامج صيفي للأفلام، لكنه سيؤثر على مستقبلي).

وبعد ذلك، جلست إلى "اللاب توب" وأنا أرتدي "تيشيرت" فضفاضًا... (فمنذ وقتٍ طويل أصبحت ملابسي القديمة تناسبني من جديد)، وذلك على الرغم من طبقة الدهون الموجودة في بطني. كُنتُ موجودة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية في العشرينيات من القرن الماضي في أثناء جلوسي على "اللاب توب"... (ألقيت نظرة على الأربعينيات والخمسينيات؛ فمن دونها لم يكن أحد سيهتم بطفولة "كيرواك").

كتبت أجمل صياغات أستطيع القيام بها، وحاولتُ أن أنعطف بها في الاتجاه الذي حدَّدته قبل ذلك. لكنها قاومت؛ أقصد وحوش الكلمات. ومع ذلك، كُنتُ أستطيع في بعض الأحيان أن أحتال عليها. تجمَّعت وحوش الكلمات العنيدة جدًّا في ملف على "اللاب توب" به أشكال متنوعة سيئة جدًّا. وهناك أيضًا انتهى الحال بالمفردات اللغوية، التي كُنتُ أجدها قادمة من القاموس، ثم إلى النص مباشرًة، أي عندما كُنتُ أستعرض بقربٍ شديد الجمل المكتوبة بالإنجليزية.

لم أنجح إلا ببطء في أن أجد المسافة المناسبة بيني وبين النص، وفي أن أجد قليلًا من الحرية المناسبة لي... (أي أن أجد توازنًا - لم يكن ثابتًا - حتى الكلمة الأخيرة). من الناحية اللغوية، كان البحث يتطلب أقصى درجة من اليقظة. كانت مهمتي بوصفي **متخصصة في أعمال "كيرواك"** أن تبقى لديَّ نظرة عامة على السياقات الموجودة في النص، وأن أنتبه إلى ما به

من تلميحات، وأن أعيد إيضاحها بصورة هامشية مناسبة، وأن أتحكم في نفسي خلافًا لذلك.

وضعت في اعتباري نبرات صوتي. بصفة خاصة في المواضع التي لم أكن أتفق تمامًا فيها مع وجة نظر المؤلف. ومن جديد مرَّت ثلاثة أسابيع. وأصبحنا في الربيع بالفعل. ونجحت في تهذيب نفسي، وفي ألا أشاهد التليفزيون ثانية، وألا أتصل تليفونيًّا إلا وأنا في أماكن لعب الأطفال، وألا أتصفَّح الإنترنت سوى للمرَّة المئة - وليس للمرَّة الألف أبدًا - ونجحت في أن أركز انتباهي.

ومع ذلك، لم يعد "جاك كيرواك" كما كان فيما سبق. فكلما كُنتُ أنجز العمل بشكلٍ أفضل، أشعر بالفروقات بصورة أوضح. كُنتُ أبطأ مما سبق... (وبدا لي أن شعوري باليأس من أن أُؤدِّي العمل بسرعة، كان مألوفًا بشكلٍ أثار فزعي). كما كُنتُ مُجهدة بشكلٍ أقوى، وكُنتُ أتعرَّض للإرهاق بصورةٍ أسهل.

وبذلك وصلت أسرع من ذي قبل إلى حالة، تشبه الغيبوبة، وتقع بين الإجهاد الزائد على الحد واليقظة المُبالغ بها، لكنني لم أعد وحيدة. هذا على الرغم من أنني فعلت كل شيء كي أفك ارتباطي بأسرتنا الصغيرة؛ ولم أعد أستطيع أن أُؤدِّي عملي بشكلٍ مُبالغ فيه إلا بعد المحاولة والمثابرة بين الحين والآخر.

(لكن في نهاية الأمر لم تكن أسابيعي المثمرة جدًّا، التي كتبت فيها فيما بعد بحث الماجستير، ممكنة أيضًا إلا عن طريق استعدادات طويلة أي ممتدة لوقتٍ طويل جدًّا. ولكنني نسيت منذ وقتٍ طويل ما عانيته من هذه الاستعدادات). وللحظات، كان منسوب الكافيين في جسمي، وضغط

الوقت، وتركيز انتباهي متناسبين معًا بشكلٍ جيد جدًّا في بعض الأمسيات، في الشقة الجديدة، عند جلوسي إلى "لاب توب" آخر، وأمام عينيَّ استشهادات مأخوذة عن "كيرواك"، وحول مكتبي قصاصات ورق مُدوَّن عليها ملاحظات. كُنتُ أظن أنني أشم رائحة شوربة البسلَّة، على الرغم من أن طفلي لا يحبها، وبسبب ذلك لم نعد نطبخها منذ وقتٍ طويل بالفعل.

لكنني لم أفكر في هذا ونسيت للحظات حتى إن "يان" كان يقرأ شيئًا لطفلنا بصوتٍ عالٍ في الغرفة المجاورة. وعندما دعا "يان" طفلنا ذات مرَّة لأن يُقبِّله قُبلة ما قبل النوم، تفاجأت تقريبًا. وتحركت مشاعري فجأةً؛ لأننا نجحنا في ألا تفوتنا اللحظة المناسبة لإنجاب هذا الطفل.

مرَّت ثلاثة أسابيع من جديد، وانتهيت أخيرًا من ترجمة النصوص كتجربة، وضعتها دار النشر كشرط للعمل. شعرت بالسعادة لأنهم سمحوا لي بمواصلة العمل. كُنتُ أيضًا بطيئة جدًّا (وأصبحت على يقين مُتزايد بأن الوقت سيكون في النهاية ضيقًا أكثر من اللازم). لكن ترجمتي أصبح لها أسلوب معين... (وفي النهاية، ستُضفي ترجمتي أيضًا معنى على ما عانيته من عذاب في رسالة الماجستير. كأن شيئًا قد انطلق عندما ظهر "كيرواك" من جديد).

جملة تلو جملة، أصبحت أجد عبارات بالألمانية عن حياة "كيرواك". وعندما كان الأمر يصبح صعبًا، وعندما كان السياق لا يصبح مناسبًا إلى حدٍّ كبير، كُنتُ أستبعد بقوة بعض الكلمات وكميات ضخمة من المفردات،

التي كان بإمكاني أن أختار من بينها. كما كُنتُ مضطرة أن أجد الفروقات اللغوية الدقيقة بينها... (لكننى كُنتُ أُبالغ دائمًا). ومع ذلك فقد كان كل شيء مُحددًا مُسبقًا ومكتوبًا بالفعل تقريبًا... (منذ وقت طويل، مضت الحياة، التي وصفتها. تلك الحياة التي أخذت أستكشفها وأعلق عليها باستفاضة. كما كُنتُ أعبر عنها بالطبع بصراحة كبيرة).

أشعلت الحماس في نفسي. وقلت لنفسي ربما أنتهي من النص بأكمله ببعض المجهود، وبعض التهاون في الوقت نفسه. ففي النهاية النص ليس شعرًا، يتوقف معناه على كل مقطع. لكنه كان من الأسهل أن أقول إن "الكتابة على لوحة المفاتيح أسهل من التأليف". بقيت ملتصقة بالجمل، بدلًا من أن أملأ الصفحات بطريقة موضوعية... (ومن جديد، مرَّت ثلاثة أسابيع، ومرَّت بعدها من جديد، ومرَّت مرَّة أخرى، ومرَّت من جديد).

لكنني لم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا إلا خطوة فخطوة؛ فكُنتُ دائمًا أركز انتباهي وأستعين بعديد من القواميس... (لم يكن من الممكن أن أفعل شيئًا إلا هكذا. كُنتُ أعرف هذا بالطبع. ومع ذلك فكُنتُ أتوقع في كل لحظة أن أتلقَّى دفعة حاسمة، وأن أحقق تقدمًا، سوف ينطلق العمل منه نحو الأمام). لقد حلَّ منذ وقتٍ طويل الموعد، الذي كُنتُ أريد أن أصل إليه وأنا مُنهكة، لكنني كُنتُ سعيدة.

والآن، أصبحت مُنهكة فقط، بينما استمر كل شيء. انتهى الصيف، لكنني كُنتُ أتصبَّب عرقًا. كُنتُ أفتقد "يان"، على الرغم من أنه كان

موجودًا هنا. حتى وإن كُنتُ نادرًا ما أراه... (لم يخطر هذا الأمر ببالي إلا الآن). لقد عشنا مقيدين زمنيًّا في حكايات عملنا ورعايتنا للطفل لفترة أطول. ومع ذلك بدا لي فجأة كأنني لم أعد أراه. وكأنني كُنتُ مضطرة بسبب ذلك لأن أشعر بالخوف.

في ذلك المساء انتظرت أن يأتي "يان" إلى المنزل. كان الطفل نائمًا بالفعل؛ وربما كان باستطاعتي أن أعمل. أهملت الفصول الأخيرة والمقدمة والخاتمة وعدد الصفحات وأفضل ما حقَّقت وأسوأ ما حقَّقت. أخذت أحسب المدة التي سيستمر فيها "يان" في المعاناة دون أن يشتكي (أو أن يهجرني)؟

أخذت أفكر قليلًا، متى كانت آخر مرَّة تحدثت فيها مع "يان" وكم من الوقت تحدثنا؟ (وهل تتدثنا من جديد عن المترادفات وتركيبات اسم الفاعل واسم المفعول في اللغة الإنجليزية واللغة الألمانية فقط؛ أي هل كان "كيرواك" هو موضوع حديثنا؟) كم من الوقت توهَّمت أن أسلوبي في العمل يُنمِّي علاقة الارتباط بين الأب وابنه، وأنه لم يأتِ على حساب أحدهما؟ وإلى أي مدى كان من المحتمل أنه وجد فجأة، هناك بالخارج - أي عندما كان في اجتماعه أو في مجرد لقاء أو في أي مكان آخر - نفسه أو المرأة التي تشاركه حياته أو مخدر حياته؟

كان "يان" مُتعبًا، عندما أتى سريعًا بعد ذلك إلى الشقة، وفاته فقط اللحاق بالباص... (وددت كثيرًا أن أُصدِّقه). انسحب "يان" إلى حجرته وإلى "اللاب توب" الخاص به، لكنني وددت كثيرًا أن أسمعه يقول لي من

أين جاء شعوري بالخوف، ولماذا كان شعوري بالخوف كبيرًا هكذا، ولماذا يصبح أكبر في كل دقيقة؟

كُنتُ أخاف أن يتضح فيما بعد أن كل شيء كان وهمًا، وأنني عشت كل هذه السنوات مع شبيه له، لم يكن موجودًا على الإطلاق، وأنه عندما حكى قصة نشأته لم يكن فيها وجود لأي حياة عائلية. (وفي الوقت ذاته، كُنتُ أخاف قليلًا على عملي في الترجمة. كُنتُ أحتاج إلى دعم "يان" الكامل، وبصفة خاصة في الفصول الأخيرة. لم يكن من حقه عندئذٍ أن يُصاب بالإعياء. ولا من حقِّي أنا أيضًا). وبعد حوالي ساعتين، كانتا كالدهر، لم أعد أطيق الأمر أكثر من ذلك.

– هل تشعر بالغيرة من "كيرواك"؟

سألته لأستفزَّ فيه أي شيء، لكنه كان مسرورًا لأن "كيرواك" يهمني. وقال إنه يعرف أيضًا أن بعد أسابيع قليلة سيصبح كل شيء كما كان قبل ذلك، وأن كل شيء سيصبح جيدًا من جديد، أو سيسبب على الأقل إرهاقًا أقل. وأضاف أنني أحتاج بالطبع إلى وقت لنفسي. ولكن والدي ووالدتي حلا محلي بالفعل لمدة عطلة نهاية أسبوع كاملة... (ووجدا شيئًا فشيئًا إيقاعًا للعناية بحفيدهما. فقد اتضح لهما من الاسم، "كيرواك"، بوصفه اسمًا يتردد كثيرًا، أنني بحاجة إلى المساعدة).

منذ ذلك الوقت فصاعدًا، أخذ "يان" يُحدِّق في شاشة جهازه. كان هو أيضًا بحاجة إلى وقت. دون أن يتسلَّل أحد إلى الحجرة التي كان يعمل فيها.

ودون أن أنظر أعلى كتفيه. وعلى كل حال، لم أستطع أن أعرف، هل ما زال يلهو عابثًا بمحضر الاجتماع وفي الملاحظات التي دوَّنها بعد اللقاء أم بماذا كان يلعب (بعد سنوات طويلة من تعامله المحدود مع الألعاب الإلكترونية).

لم يكن يُثير اهتمامي ما الشيء أو مَن الشخص الذي يبحث عنه "يان" على الإنترنت. فقد بدا لي من الأهم في تلك اللحظة أن أعرف ما المدة التي سار عليها الأمر هكذا، ومتى كان باستطاعتي أن أنتبه لذلك، ومتى كان من الواجب عليَّ أن أنتبه، وهل ما شعر به "يان" من اضطراب أو ما مرَّ به من أزمة بدأ منذ بضعة أيام أم منذ بضعة أسابيع؟ هل بدأ مع وجود "كيرواك"؟ أم قبل ذلك مع وجود الطفل وتغيير محل السكن والعمل الجديد؟ أم أننا مررنا في حياة بعضنا بعضًا هكذا منذ البداية ولم ألاحظ هذا فيما مضى بسبب حبي للأوهام؟

ربما شعرنا بالأمان بصورة زائدة على اللازم. وربما عشنا متجاهلين المنعطفات، التي مرَّت في حياتنا، دون أن نتأثَّر كثيرًا وبلا مشاكل (على نحوٍ يُثير الرِّيبة)، ودون صراعات شديدة أو احتفالات ضخمة. ولكن ربما كنا نحتاج أيضًا إلى منعطف جديد وإلى تغيير مكاننا وإلى أن نتذكر ذاتنا البديلة المدفونة.

وربما الوقت لم يتأخر كثيرًا بعد من أجل أن نبحث وندرس هذا، أم أن "يان" ما زال يعتبر نفسه من الهنود الحمر؟ بدلًا من أحكي لـ"يان" عن تأمُّلاتي، وبدلًا من أن أسأله ماذا جرى، بدأت أفكر في المستقبل بعشوائية وفي ارتباك. وبدأت أصنع مقترحات من أجل أن نقضي وقتًا جميلًا بعد هذا الضغط:

– ربما يمكنني أن أسأل "ساندرا". لديهم في الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا مؤسسات...

أشار "يان" بيده رافضًا بشدَّة.

– لست مضطرًا أن أثبت لنفسي أن لا مفرَّ للإنسان من نفسه. كلما كان الرحيل أكثر بهاءً، كانت العودة أكثر بؤسًا.

– كُنتُ أفكر فقط في شيء آخر ذات مرَّة...

– كأن هذا أمر موجود... "كيرواك" أيضًا... حسنًا، أنتِ على دراية أفضل به. لكن عندما يتوجَّه أحد بالسؤال حتى لُمدمني المخدرات عن أحلامهم، فإنهم يحلمون جميعًا تقريبًا بأسرة صغيرة سالمة، وبسيارة "مرسيدس" موضوعة في الحديقة أمام منزلهم.

خرجت هذه العبارات كلها من فمه مُدوِّية باحتقار.

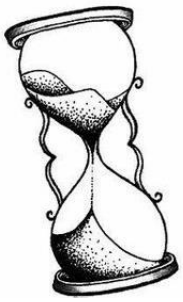

9

"فظيع يا سيد "هاوبتمان". فظيع الريح!".
"چورچ بوشنر" - "فويتسك"

قال "يان":

– النُّكتة هي أنني حكيت لكِ كل شيء بالفعل. وبالطبع أنتِ لا تعرفين شيئًا عن هذا.

سألت نفسي هل ينبغي أن أشعر شيئًا فشيئًا بالخوف حقًّا. وعلى كل حال، استدار "يان" نحوي بنصف جسمه. رأيت نظرة، اجتهد "يان" في أن يجعلها ساخرة؛ لدرجة أنني فضلت أن أتخطَّاها، وأنظر إلى شاشة "اللاب توب" الخاص به. كان "يان" يلعب على "اللاب توب". لا، كان

يبحث على الإنترنت بلا هدف محدد عن أي خرائط. هذا إن كُنتُ قد استطعت أن أتعرف إلى ما يوجد على الشاشة بشكلٍ صحيح.

لكن بعد ذلك، وقعت أسيرة لنظرته. أصبح ينظر عندئذٍ دون أن يعوقه شيء، وبصورة تكاد تكون جادَّة للغاية. ولأنني كُنتُ أشعر بالذُّعر، ابتسم "يان" في ارتباك ابتسامة هدَّأت من حدَّة مشاعره.

زعم "يان" قائلًا:

– أجل. أنتِ لم تكوني موجودة هناك؛ لكنني حكيت لكِ كل شيء.

أشار إلى شاشة "اللاب توب"، وأضاف:

– هناك ..هل ترين؟

كان "يان" قد جعل الجزء المقتطع من الخريطة في وضع التكبير؛ لدرجة أنني لم أستطع أن أعرف في أي جزء من الأرض كان موجودًا.

وضع "يان" صورة المشاهد الطبيعية في وضع التكبير بصورة أعمق. كان من الممكن رؤية بعض الأشجار. وجعل الخريطة في وضع التصغير مرَّة أخرى، وهو يهزُّ رأسه. انحنيت إلى الأمام وأدركت أن المكان يقع في جنوب شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

– عمَّ كُنتُ مضطرًا أن تبحث في "لويزيانا"؟ بماذا كُنتُ تخطط في أمريكا؟

هزَّ رأسه.

– ربما كُنتُ موجودًا هناك. أجل، المشكلة...

قالها وانتظرت منه توضيحًا أو أي معلومة عمَّا حدث له، لكنه اكتفى بهزِّ رأسه من جديد. وأضاف:

– ... إن الخريطة لم يكن بها شارع. سرت بالسيارة في شارع، شارع ضيق. يكاد يخلو من المرور، لكنه كان شارعًا. ربما لم يكن موجودًا

ببساطة على الإنترنت، مع أن هذه الخرائط أصبحت أفضل في الآونة الأخيرة. وبسبب ذلك، كُنتُ أريد فقط في الحقيقة أن ألقي نظرة. استحوذت الفكرة عليَّ من جديد. هذا أمر مُثير للسُّخرية جدًّا، لكنني قد أكتشف في وقتٍ ما أين كُنتُ موجودًا. من المحتمل أن أكون قد أخطأت، وأنني كُنتُ في مكان مختلف تمامًا. لكن هنا، انظري، هنا انتهى بي المطاف في آخر الأمر، لكنني كُنتُ مضطرًا أن أسافر إلى هناك مرَّة أخرى. وهناك لا وجود لتكدُّس مروري. كان هناك كل شيء آخر إلا التكدُّس المروري.

ضحك. وهو يهزُّ رأسه.

– لا، هذا عبث. هناك قليل جدًّا من الأدلة. من هذه الزاوية، أي من الأعلى... وعلى كل حال، كل شيء مُنطبع في ذاكرتي بصورة مختلفة تمامًا. كُنتُ أتوهَّم حقًّا، أنني في "تكساس" منذ وقتٍ طويل. مع أنني ربما كُنتُ هناك بالفعل. إممم، أم إنني كُنتُ هنا؟

ومن جديد أخذ "يان" يضع الخريطة في وضع التكبير بصورة أكبر عُمقًا. سألته:

– "يان"؟ عن أي آثار تريد أن تبحث هنا؟

(لم أجد سوى آثار ما بحث عنه في الإنترنت، حيث تم تسجيلها وتخزينها).

وأخيرًا التفت "يان" نحوي بكامل جسده.

– حسنًا، أنتِ لا تعرفين هذا أيضًا. لقد كُنتُ في "نيو أورلينز".

سألته:

– متى؟

– حسنًا، عندما كُنتُ تكتبين رسالة الماجستير... "**كيرواك**"!

صاح بها على سبيل الذكرى... (كأنني كُنتُ أحتاج إلى هذه الذكرى في تلك الأسابيع). لم نستطع نحن الاثنين أن نضحك على هذا... (ومع ذلك فقد شعرت بالارتياح من أنني قد استطعت شيئًا فشيئًا أن أُرتِّب ما كان يتحدث عنه). ومن جديد، أخذ "يان" يُحدِّق في "اللاب توب" الخاص به.

– كانت هذه الرحلة بأكملها غير صالحة منذ البداية. لقد شعرت بالذُّعر وأنا في رحلة الذهاب إلى هناك بالطائرة بالفعل. وظننت عندئذٍ أن السبب في هذا الشعور هو الاعتداءات الإرهابية. لم تبعثني كل عمليات التفتيش هذه، التي تعرَّضت لها عند تسجيل إجراءات وصولي في المطار، على الشعور بالاطمئنان؛ فقد ظللت أفكر فيها أكثر فأكثر، لكن من المُحتمل أنني كُنتُ أشعر قبل ذلك بأن توقُّعاتي المُبالغ فيها لن تنتهي تقريبًا. أقصد أن أمريكا كانت تعني لجَدِّي شيئًا ما!

مع أن "يان" لم يكن يبحث عن **إمكانيات غير محدودة**، مثلما كان يفعل "شباب منظمة هتلر" سابقًا، والذي لا بد أنه كان يشعر بالسرور للهروب لبعض الوقت من ألمانيا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية). هزَّ "يان" رأسه من جديد وقال:

– بعد ذلك سرعان ما أصبح كل شيء لا يسير على النحو الصحيح. وهو ما حدث بالفعل مع العنوان الذي اتَّصلت به في "سان فرانسيسكو". حسنًا، على الأقل كان الأمر مختلفًا بعض الشيء عمَّا خطَّطت. لقد أعدت ترتيب خططي. كان معي في أثناء ذلك هذا الكتاب. أقصد كتاب "كيرواك" وكُنتُ أنتِ أيضًا معي بشكلٍ أو بآخر.

(حاول عندئذٍ أن يضحك لوقتٍ قصير. حاولتُ أن أبتسم بدوري ابتسامة تبعثه على البهجة، لكنه لم ينظر إليَّ). قال:

– أقصد أننا كنا نكاد نعرف بعضنا بعضًا، وأصبحت فجأة أرسل لكِ "إيميلات" أكثر مما كُنتُ أفعل مع أي شخص آخر.

تنحنح.

– وفي نهاية الأمر، لم يمضِ طريقي بشكلٍ مختلف على الإطلاق. حسنًا، بالتأكيد ما كُنتُ سأبحث من دونكِ أبدًا عن المنزل الذي زار فيه "كيرواك" و"كاسادي" الكاتب "بوروز" في حي "الجزائر". لكنني كُنتُ سأسافر على كل حال إلى "نيو أورلينز".

أي إنه كان في "نيو أورلينز"، بينما كُنتُ أنا غارقة في نشوات الكتابة. لم أكن مُنشغلة سوى بـ"كيرواك"، وبنفسي، وبذاتي العاملة الواقعة في درجات متنوعة من الحماس، والشك في النفس، والفزع، والشعور بالأهمية.

– لكن ألم يكن في ذلك الوقت...؟

– أجل. بالطبع. في تلك الأثناء تحوَّل كل شيء إلى فيلم... "على الطريق". **إعصار كاترينا**...

– ليتني علمت أنك كُنتُ مُختبئًا هناك!

(فظيع!).

اكتفى بهزِّ رأسه. أجل، لقد كان موجودًا في "نيو أورلينز" في الوقت المذكور، وذلك حسبما اعترف. لكن ما قيل في النشرة الجوية كان له وقع يُنذر بالخطر بشكلٍ يتزايد من يوم ليوم. وعندئذٍ جلس "يان" في سيارته، التي أجَّرها، وغادر المدينة. أجل، قال إنه كان هناك، لكنه كان في حالة هروب. وقال إنه قضى وقتًا كثيرًا في الزحام المروري وضلَّ الطريق فيما بعد، لكنه عثر في النهاية على فندق صغير في المناطق المجاورة، حيثما اختبأ من الظواهر الأخيرة في العاصفة، التي خفَّت حدَّتُها.

صِحتُ قائلة:

- أي إنك عايشت العاصفة!

- لا، ليس بالضبط!

تنهَّد وقال:

- نعم، في صورتها المُصغَّرة... أي بمعنى أنني قد فاتتني الأشياء الأساسية. هذا ما يمكن أن أقوله. ومع ذلك أُخطئ في التعبير. وينتهي كل شيء في وقتٍ ضيق أيضًا.

لم أكن قد فهمت بعد ما أهمية هذا الأمر له. فسألته:

- هل كُنتُ تُفضِّل لو ابتلعك الإعصار وأنت تستمتع بكل مظاهر الجمال هناك؟ أم كُنتُ تُفضِّل لو مُتَّ غرقًا في "نيو أورلينز" تقديرًا منك لتلك اللحظة التاريخية؟

- لم يكن من الضروري على الإطلاق أن يحدث شيء مُثير للسُّخرية هكذا. هذا لم يكن له أي علاقة بالكارثة مُطلقًا. لا علاقة له بشيء على الإطلاق! لقد كُنتُ هناك وحيدًا في المنطقة...

تنهَّد "يان" وقال:

- وبمجرد أن أصبحت أكثر دقَّةً، لم تمضِ الأمور هكذا ثانية. لقد حاولت. وحكيت لكِ عمَّا حدث مرارًا وتكرارًا. حتى لم أعد أنا نفسي على دراية به.

ومع ذلك تنحَّى "يان" جانبًا، وخلَّص كرسي مكتبه الثاني من الأوراق، وجذبه ليقربه منِّي.

لم أكن أودُّ أبدًا أن أعرف لماذا تحدَّث "يان" قليلًا هكذا عن الجزء الأخير من رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. واعتقدت أنني أُوفِّر على نفسي بذلك الشعور ببعض الألم... (وهو ما فعلته ربما أيضًا؛ فمن أين لي أن أعرف أنني قد سمعت عندئذٍ الحكاية الكاملة؟).

كان الطقس آنذاك، حسبما تذكر "يان"، به رياح ساكنة.

ومع ذلك فقد كانت الرياح هي السبب في دفع كل هذه السيارات للخروج من المدينة. كان من المستحيل أن يُخفي شخصٌ ما وجود الرياح. فالرياح كانت ذات أهمية. حتى لو كان من المتوقع حدوث العاصفة. وحتى لو لم تتحرك السيارات إلا بسرعة السائرين على أرجلهم.

عندما ركَّز "يان" انتباهه، استطاع أن يشعر بوجود الرياح. ذلك الإجهاد الذي يُصيب الذراعين، دائمًا عندما يكون الإنسان مُستعدًّا لأن يتوجَّه اتجاهًا عكسيًّا. وحركة الأشجار الموجودة على أطراف المدينة. والقمامة التي تتطاير بفعل الرياح.

كان "يان" قد عرف منذ أيام أن هناك إعصارًا يتحرك باتجاه الساحل. وعرف أنه من الممكن أن يكون الوضع خطيرًا، حتى وإن كانت التقديرات عن مسار الإعصار وقوته تقديرات مُتقلِّبة.

كان "يان" يلمس أن الناس يشعرون بالقلق، يُراوده الأمل - مثل أغلب الناس - أن يكون هذا إنذارًا خاطئًا. وبالفعل بدأ "يان" بشكل مُسبق يضع في رأسه صياغة إيميل، يرسله لعديد من الأشخاص "من بؤرة الحدث المُثير لاهتمام وسائل الإعلام". وهو الإيميل الذي بدا له بلا شك هزليًّا أكثر من اللازم. على كل حال، كان "يان" يودُّ أن يكتب لي إيميل من جديد بعد انتهاء موعد تسليم بحثي.

– ارجعي للخلف، وخذي فترة راحة، وبعدها ألقِي نظرة على النص من جديد. شيئًا فشيئًا، ومن على بُعد مسافة قليلة من النص.

أومأت برأسي وأنا أشعر بالدُّوار.

قال لي:

– لم أعتبر الوضع خطيرًا هكذا. كُنتُ أشعر أن لديَّ معلومات جيدة فيما يخص أن الإعصار لم يكن من الممكن التنبُّؤ به. لكنني لم أفهم تعليمات الإخلاء جيدًا؛ فلم يسبق لي أن سمعت بعض المفردات اللغوية الواردة فيها. بينما كان السكان على معرفة بما لديهم من بنية تحتية. ولم تخبرني أسماء الضواحي بشيء. حسنًا، فيما عدا اسم حي "الجزائر". لم أكن بالطبع السائح الوحيد. لم أكن الوحيد على الإطلاق. ومع ذلك فقد شعرت بأنني لم أكن معنيًّا بكل التحذيرات واحتياطات الطوارئ. فلم أكن هناك سوى من قبيل الصدفة، ولم أكن مُنتميًا لتلك المنطقة. لم يكن هذا الإعصار هو كارثتي. ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أتجاهله. كانت أعصابي تثور مع أي هبَّة رياح. ولذلك فقد ركبت السيارة. وهيَّأت نفسي على السير بلا هدف لفترة أطول، لكنني هبطت بعد وقتٍ قصير إلى ممرِّ الإخلاء الآمن. كان هذا هو أول شيء حكيت لكِ عنه.

أومأت برأسي. واعتبر "يان" هذا بمثابة سؤال.

– حسنًا، لقد انتبهت فجأة إلى أنني أصوغ رسائل لكِ في رأسي. في الوقت الحالي، لكنها كانت بالطبع من أجل وقتٍ لاحق. لم يكن هناك شيء مُميَّز. كُنتُ أقع كذلك في أخطاء بين الحين والآخر.

أومأت برأسي من جديد، وتذكَّرت كم كُنتُ أنتظر بلهفة في الأيام نفسها أن تصل إليَّ رسائل منه... (وكم كُنتُ سأشعر بلهفة أكثر لو أدركت أين كان يختبئ).

كان الطريق يُؤدِّي لخارج المدينة إلى الغرب، نحو "تكساس". تحوَّل الطريق السريع إلى شارع ذي اتجاه واحد. وكانت كل حارات الطريق تُؤدِّي إلى أحد الاتجاهات. ومع ذلك كان الشارع مُمتلئًا.

– عدد رهيب من السيارات. الهروب الكبير؛ نهاية العالم حقًّا. حسنًا، كان مجرد زحام مروري في الطريق السريع. عندما عرفت ما كان يجري، وجدته أمرًا مُثيرًا للإعجاب في الحقيقة أيضًا.

أخذ "يان" يُدندن لفترة من الوقت في هذا الشارع المُكدَّس بالزحام المروري بأغنية "اذهب إلى الغرب!" !Go west. (لكنه لم يحكِ لي هذا. لم يحكِ لي شيئًا على الإطلاق وهو يُدندن. على العموم، كانت الدَّندنة بديلًا جيدًا. وللأسف، لم يحتمل "يان" هذا طويلًا). تقدَّم بالسيارة ببطء، لكنه تخيَّل نفسه في "تكساس" بالفعل، في مقهى إنترنت. في بار يُقدِّم الزبادي المُجمَّد. في أحد بيوت الشباب. في سرير تمت تغطيته للتَّوِّ. مرَّت ساعة أخرى. وربما ساعتان. أو أنها كانت أربع ساعات بهذا الإيقاع. وكانت من الناحية الواقعية ست ساعات. لم يكن "يان" يعرف هذا. وعلى الأرجح كانت المساكن المُؤقَّتة المُخصَّصة للطوارئ في "تكساس" مُمتلئة منذ وقت

طويل بالفعل. والحقيقة، إنها كانت مُمتلئة باللاجئين، وليس بالسُّيَّاح من أمثال "يان".

ومع ذلك لم تثُر أعصابه إلا عندما تحرَّكت السيارة أمامه من الطريق السريع.

- عادي جدًّا. في مخرج طريق سريع. هنا. ربما حدث هذا هنا.

جلسنا بجوار بعضنا بعضًا أمام "اللاب توب" الخاص به. وهو ما كُنَّا نفعله نادرًا. ومن ناحية أخرى، كان من المُعتاد أن يريني "يان" بشكلٍ يومي شيئًا على شاشة "اللاب توب" الخاص به؛ لدرجة أن حركات يده ونظرته أيضًا ظلَّت مُتَّجهة بتركيز نحو الأمام. وكانت تصطدم بنظرتي بصورة عابرة وتدعوني للنظر معه. مثلما كانت تفعل دائمًا. ومن جديد، أصبح لصوته أيضًا الوقع المُعتاد.

قال "يان" إنه شعر بأنه محبوس في الزحام المروري منذ لحظة أن رأى شخصًا ما آخر يخرج من سرب السيارات.

- على الرغم من أن السيارة كانت تسير نحو الأمام بصورة أبطأ تقريبًا، أو بالأرجح أسرع، لكن بدا لي، كما لو أننا جميعًا كُنَّا نزحف.

انتظر "يان"، لوقتٍ أطول، الفرصة التالية في مُغادرة الطريق الرئيسي. واستغلَّ كثيرون تلك الفرصة. كان صفُّ الانتظار أمام مخرج الطريق السريع طويلًا. لحق بهم "يان". استمرَّت حالة الشلل المروري. كان "يان" مسرورًا من كل وسيلة نقل كانت تغادر هذا الشارع أيضًا.

لم يكن الزحام المروري يتناقص إلا ببطء. وذلك حتى انتهى الحال بـ"يان" إلى أحد تفرُّعات الطريق، أو على الأحرى انتهى به الحال بشكلٍ غير مقصود إلى شارع أكثر تعقيدًا. ضغط "يان" على البنزين في ارتياح. تحوَّل شكل الشارع بسبب وجود منظر طبيعي به بعض الأشجار. كان

"يان" متأكدًا أنه متجه نحو الشمال، أي إلى داخل البلاد. أو أنه مستمر على الأقل نحو الغرب، لكن بمرور الوقت، بدأ "يان" يتلهف لوجود "چي پي إس" في السيارة، أو على الأقل لعلامة إرشادية على الطريق. كان في الراديو موسيقى تدور، أو أنه كان برنامجًا حواريًّا نفسيًّا. كان الإرسال سيئًا.

– أي إنني قد جئت من أجل أن أسير بلا هدف. لقد أصبح الشارع أضيقَ وأصغرَ. وبعد فترة، أصبحت موجودًا وحدي في ممرِّ الطريق، مثلما كُنتُ أتمنَّى. وبالفعل كُنتُ أنتِ هناك. كان من السهل عليَّ في البداية أن أتخيَّل أنني أكتب لكِ وأحكي لكِ في وقتٍ لاحق، كيف كُنتُ أسير هناك وحيدًا عبر مكانٍ ما وكيف استرحت في محطة بنزين مهجورة. لم أرَ هناك أي شخص، حتى أخذت أنظر لأتأكد هل كانت ماكينات تزويد السيارات بالبنزين تعمل. عندئذٍ تحرَّك شيء ما، بصورة مائلة خلف المبنى الصغير الخاص بمحطة البنزين. سحبت يدي عاليًا. حقًّا. كما لو أن هذا جزء من مجموعة الأفعال اللا إرادية التي أقوم بها. لكن لا بد أن هذه الحركة قد بدت – في أغلب الظن – مُبالغًا بها؛ لأن الشخص الموجود هناك بالخلف بدأ يُقهقه. ضحكت معه في ارتياح وبعصبية تامَّة. وعلى كل حال، استطعت أن أُزوِّد سيارتي بالبنزين، لكنني لم أتمكن من أن أستفسر أين كُنتُ هناك. وبعد ذلك، لم يعد من الجيد أيضًا أن أحكي عن هذا الأمر، وذلك كلما كُنتُ أحاول بعنادٍ مُتزايد أن أحكي عنه. تحدَّثت لنفسي بصمت، وكُنتُ أبحث دائمًا عن أثر لحكاية، لا أتعرَّض للطرد خارجها. ربما كان كل شيء سيصبح أفضلَ، لو كان هناك مزيد من المعلومات، ولو كان هناك بعض البيانات الواضحة ونقطة واحدة ثابتة، حيثما كان من الممكن ربما أن أضع فيها رافعة لأنتشل بها نفسي من المُستنقع.

صمت "يان"، كأنه ما زال يبحث عن تلك النقطة التي سيصبح كل شيء مفهومًا انطلاقًا منها. وددت أن أقول شيئًا يساعده، لكنني لم أكن قد عرفت بعد في أي اتجاه كان "يان" متوجهًا بالحديث. إلا أن الأمر استمر بعد ذلك ببساطة.

سادت الوحدة.

– وحدة حقيقية. طبيعة كثيرة. ولم تعد هناك أي قُرى. لم يكن هناك سوى بضعة منازل بين الحين والآخر. وكان بعض السيارات تمرُّ أحيانًا في الاتجاه المُعاكس. غير أن هذا كان نادرًا. لم يستطع أحد أن يعرف أين كُنتُ موجودًا. أخذت أفكر فيكِ دائمًا بشكلٍ أقوى. ولأكون صادقًا، كُنتُ أفكر بصفة خاصة في اللحظة التي سوف نلتقي فيها من جديد ونتحدث بكل هدوء. كان أهم شيء أن يحدث هذا في وقتٍ لاحق. وكان أهم شيء أن يحدث هذا في أي مكان آخر. وبشكل أو آخر، أخذتِ أنتِ – ليس على وجه الخصوص أنتِ التي أعرفها الآن، لكنكِ كُنتُ أنتِ التي أعرفها عن بعد – تتطلَّعين نحوي ذات مرَّة من هذه النقطة، وأخذتِ تنتبهين لي إلى حدٍّ ما. مثلما يحدث في أثناء السباحة، عندما يشعر الإنسان فجأة بأن هناك تيَّارًا، حيث يشعر الإنسان عندئذٍ بالاطمئنان من رؤية الشاطئ، حتى لو لم يكن هذا مُجديًا على الإطلاق.

جلسنا بجوار بعضنا بعضًا وأخذنا نُحدِّق، منذ تلك اللحظة، إلى أعلى نحو "اللاب توب" الخاص به، والذي ما زال يعرض صورة واحدة، الصورة نفسها.

– آنذاك كُنتُ أتوق إلى تلك اللحظة، التي سأتمكن من أن أحكي لكِ فيها كل شيء. وحاولتُ بالفعل أن أحكي ما حدث لنفسي. لكن هذا كان مستحيلًا.

لم أُومئ برأسي. حاولتُ أن أتذكر "الأنا" الخاصة بي في أثناء إعداد بحث التخرُّج. فقد كانت تلك "الأنا" تشعر بتعبٍ أكبر وتجلس بصورة مشابهة في تشنج أمام شاشة أخرى، بينما ينشغل تفكيرها تمامًا بـ"جاك كيرواك" ورحلاته، وتكتب البحث وهي تُركِّز انتباهها على موعد التسليم الذي تخشاه، والذي سيجعلها تتحرَّر. مع أنها لم تعد ترى النص بسبب وحوش الكلمات الكثيرة جدًّا. بل إنها لم تنتبه إلى أن هذه "الأنا" قد لعبت في الوقت نفسه دور الملاك الحارس لسائق سيارة كان يسير مُتخبِّطًا في مكانٍ ما في أمريكا.

– كانت الشوارع عندئذٍ خاوية تمامًا لدرجة أنني كُنتُ أخشى أن أسلك طرقًا غير مباشرة فأعود بالسيارة إلى منطقة الخطر. وبمرور الوقت، أخذت أفترض وجود مُستنقع خلف كل شجرة. ركَّزت انتباهي في الشارع وفي الريح التي لم تهُب. إلا أنني كُنتُ أعتقد أحيانًا أنني قد شعرت بوجود هبَّة ريح قوية، حتى إنني قد وجدته أمرًا مُثيرًا للإعجاب أن أحكي لكِ كيف سأدور في الهواء. إلا أن كل شيء أصبح هادئًا من جديد لدرجة أنني قد ظننت أنني في "تكساس" بالفعل. وقد حكيت هذا أيضًا لتَوِّي، حكيته في تلك الأثناء بصوتٍ عالٍ جدًّا. كُنتُ وحيدًا مما منعني من أبقى يقظًا. كُنتُ متأكدًا من أنني سأخرج من هناك، ما دُمت أتحدَّث معكِ.

(وبينما كان العالم يضيع منِّي بطريقتي هذه، لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئًا له).

إلا أن "يان" قال إنه لم يذكر لي على الفور السيارة الأخرى، بل على النقيض تمامًا توقَّف عن الحديث، بمجرد أن ظهرت أمامه الشاحنة الخفيفة.

وقال إنه لم يستأنف حديثنا من جديد، إلا عندما حلَّ الظلام. كان يشعر بالتَّعَب، لكنه لم يجرؤ أن يأخذ فترة راحة؛ فقد كان وحيدًا على أطراف مدينة مُعتمة. وأضاف أنه كان يتخوَّف من أن يفقد أثر الأضواء الخلفية للشاحنة الخفيفة. هذه الأضواء الخلفية، التي كانت على دراية (لا بد أنها كانت على دراية) بهذه المنطقة المهجورة بكل ما فيها من مُستنقعات وتحذيرات من هبوب عواصف؛ لأن هذه المُستنقعات والتحذيرات كانت تُمثِّل الدليل الوحيد في الطريق.

وقال "يان" إنه حكى لي أيضًا عن الآلام التي شعر بها في مؤخرة رأسه، وعن عينيه الدامعتين، وعن حفر الطريق، وعن مؤشرات منسوب الوقود التي أشعرته بالتَّشوُّش. وذلك حتى انعطفت السيارة الأخرى بشدَّة في الطريق، وانعطفت من جديد، وانعطفت مرَّة أخرى. ومضى هو خلفها، مثلما فعل قبل ذلك.

لمعت أضواء الفرامل في الشاحنة. وبعدها، أُضيئت مُجدَّدًا. وفجأة، أصبح كل شيء واضحًا. ومن الأعمدة الكبيرة، ألقت كشَّافات ساطعة بأشعَّتها على قطعة الأرض بأكملها. كانت على ما يبدو قطعة أرض مملوكة لأحد الأشخاص.

– ظننت أنها مزرعة. ما زلت أعرف هذا. لم يسبق لي أبدًا أن أن أكون موجودةً في مزرعة. ولم أرها إلا في الأفلام.

وبالخلف كان هناك منزل مُكوَّن من طابقين. كانت نوافذه وأبوابه مُحصَّنة بألواح خشبية. وأمامه بيت كلاب.

– فكَّرت على الفور في أن هناك طائفة دينية تنتهج العُنف. بعض الأشخاص غريبي الأطوار يُريدون أن يُطلقوا النار على العالم بأكمله. لم تكن لديَّ أدنى معرفة، هل لم أعد منذ وقتٍ طويل بالقُرب من مدينة "واكو"؟ حسنًا، لم أكن أعرف على كل حال أين تقع "واكو". أي إن موقعها قد يكون في أي مكان. متى نشأت هذه الطائفة الدينية الحمقاء؟ لكننا ربما كنا قد اقتربنا أكثر من "نيو أورلينز"، بينما كُنتُ أفكر في ذلك. وربما كان هذا وسيلة عادية تمامًا للاحتماء من العواصف.

قال "يان" إن باب سائق الشاحنة انفتح. نزل منها رجل ضخم البنية وأقبل نحوه. مع كل خطوة كان يخطوها، أي مع كل خطوة يخطوها كالبطل يحمل مُسدَّسًا، كان جسده يبدو أضخم. كان رجلًا شعره متوسط الطول ومُتطايرًا، يرتدي قميصًا يُرفرف (كان هذا بفعل الريح). أصبح في بيت الكلاب حركة ما؛ حيث نهض كلبان ضخمان وأخذا ينبحان وكأنهما يتراهنان.

– كان هذا الرجل يبدو كأنه يحب الأسلحة ويهوى جمعها ولا يخرج من المنزل أبدًا دون سلاح. أتى نحوي. كُنتُ الشخص الذي أخذ يتعقَّبه طوال ساعات ومضى بالسيارة في النهاية حتى وصل إلى مزرعته.

قال "يان" إن الرجل تحرَّك ببطء في اتجاهه.

– ببطء غير معقول. مثل شخص ليس بحاجة أبدًا لأن يتعجَّل. رأيت زجاج نافذة سيارتي ينزلق إلى أسفل بالفعل بناءً على أمرٍ صامت منه. حتى وإن كُنتُ قد أسدلت زجاج النافذة إلى أسفل بنفسي بعد ذلك. بأصابع مُرتعشة. في بادئ الأمر، ضغطت على الزِّرِّ الخاطئ؛ فانفتح زجاج النافذة الخاصة بالمقعد المجاور للسائق. أشعرني هذا بالصدمة، كأنني قد

أصبحت بذلك عُرضة للاعتداء بصورة أكبر. عندما ارتفع زجاج نافذة المقعد المجاور للسائق إلى أعلى من جديد، وأصبح زجاج النافذة الأخرى إلى أسفل، كان الرجل يقف بالفعل إلى جواري. فيما بعد، توهَّمت أنه كان يبدو مثل الممثل الأمريكي "نيك نولتي". كان اختيارًا خاطئًا. ومع ذلك فقد أصبح الرجل يُشبه هذا الممثل الأمريكي بشكل أكبر.

قال "يان" إن الرجل نظر إليه عبر نافذة السيارة المُهتزَّة، بفُضول وسُخرية مكتومة. بهدوء، بهدوء تام، بهدوء كبير.

تخيَّلت أنني أرى "يان" جالسًا في هذه السيارة. وأراه ينظر إلى ماسورة المسدس وهو يشعر بالرضا عن القدر المكتوب له. وبعد لحظة مرَّت كالدهر، تخيلته يهبط جانبًا وهو مُصاب بطلق ناري. تخيَّلت أنني أراه ينزف في صمت. لا، كان يترنَّح وهو يموت. تخيَّلت أنني رأيت تشنُّجاته الأخيرة وهو في حفرة بالطريق. وتخيَّلت أنني قد سمعته قبل أن يفقد الوعي بقليل وهو يأسف من سطوة تلك الصدفة السخيفة.

وتخيَّلت أنني رأيت الجاني نفسه يتصل بالشرطة بكل هدوء. حيث إن الشرطة ستهتم بالمتسلل الميت أكثر من اهتمامها بمَن قتله. تخيَّلت أنني قد رأيت بالفعل الحكم لصالح مَن قتل "يان" بالبراءة لأنه كان يدافع عن نفسه. وتخيَّلت أنني قد رأيت جَدَّ "يان" وجَدَّته وهما في حالة حزن وذهول... (وتخيَّلت أنني أرى نفسي لا أعرف شيئًا باستمرار)، لكنني

رأيت أن "يان" يجلس بجواري أيضًا وهو مُفعم بالحيوية، وعرفت أن الحكاية لا بد أنها قد انتهت بنهاية جيدة.

- اتضح بعد ذلك بوقت قليل أن الرجل لم يكن مُؤذيًا، وأنني كُنتُ مُخطئًا، لكنني كُنتُ أيضًا غير مُؤذٍ. أوضح لي الرجل كيف أجد الطريق إلى أقرب طريق سريع، وإلى أقرب محطة بنزين، وإلى أقرب فندق صغير. على الرغم من أنني كُنتُ أُريد أن أنصرف سريعًا جدًّا قدر الإمكان، فقد كُنتُ مضطرًا لأن أشرح كل شيء لنفسي خمس مرَّات؛ لأنني لم أعد أفهم أيضًا بالطبع اللغة الإنجليزية على الإطلاق. كان الرجل لطيفًا، في الواقع. لا، لطيفًا حقًّا. لطيفًا جدًّا أكثر مما ينبغي. ولم يكن مُسلَّحًا على كل حال.

استيقظ الطفل مُناديًا علينا. أردت أن أنهض، إلا أن "يان" سبقني في ذلك. سمعت صوته ينبعث من غرفة الطفل. كان يقول عبارات هادئة، وفي النهاية غنَّى كلامًا غريبًا بصوتٍ منخفض. وجعل فيه كلمتي "**غفوة**" و"**فقرة**" لهما القافية نفسها.

أخذت أُحدِّق في شاشة "لاب توب" "يان"، وتخيَّلت سيارة مُستأجرة صغيرة جدًّا تزحف ببطءٍ شديد على الخريطة، لكن من أين لي أن أعرف طريق سيرها؟ مددت يدي إلى فأرة "اللاب توب"، وعُدت إلى "نيو

أورلينز"، وبحثت عن معلومات عن إعصار "كاترينا". لم يتم العثور على أشخاص كثيرين، وكانت أعداد المفقودين ترتفع باستمرار.

قال "يان"، عندما عاد:

- أحيانًا أظن أنا نفسي أنني لم أكن موجودًا هناك حقًّا.

وأضاف:

- لم ألحق على كل حال بالكارثة. بشكلٍ أو آخر، لكنني أتمنَّى أن أعثُر على هذا المنزل مرَّة أخرى. من أعلى فقط. لكن هل سيكون الأمر بذلك أقل إزعاجًا؟ من دون الشارع، ليس لديَّ كثير في يدي للأسف.

في الأيام التالية، أخذ "يان" يشاهد في التليفزيون التغطية الصحفية لإعصار "كاترينا". هبَّت العاصفة حول الفندق الصغير الذي عثر فيه "يان" على غرفة ذات مستوى وضيع.

- لقد نسيت كم كانت الرياح شديدة هناك حقًّا. أحيانًا كان صوت الرياح عاليًا. وكان هناك صوت فرقعة وطقطقة. أجل، بالطبع، لكن في التليفزيون كان هناك الإعصار. والتقارير ترد باستمرار من "نيو أورلينز". والمراسلون موجودون في كل مكان. كانوا يجعلون الرياح تعصف من حولهم بعض الشيء ويحافظون على الميكروفونات في الرياح بصورة مُبالغ بها. وكانوا يحكون كم أن الناس لا يعرفون كثيرًا أن هذه الكارثة ربما تفسد كل شيء. لقد تمَّت أعمال إزالة آثار الإعصار في "فلوريدا" بالفعل. وكان ما هو أسوأ على وشك الوقوع في "نيو أورلينز".

وفي وقتٍ لاحق، رأيت لقطات مُسجَّلة من ملعب "سوبردوم". طوال لحظة، طوال لحظة فقط، تخيَّلت نفسي وكأنني قد رأيت وجهي شاحبًا وسط كل هذه الوجوه الكثيرة. وفي أثناء اللحظات التالية، شعرت بالسعادة لأنني فررت. ومن ناحية أخرى، ربما كان هذا سيصبح موضوعًا أحكيه، لكن حكايتي كانت حكاية أخرى. لم أتخلَّص منها مرارًا وتكرارًا، كانت هي حكايتي. هذه الحكاية المُزعجة من مرَّة لأخرى. كانت جديدة دائمًا. وكانت مُثيرة للسُّخرية في كل مرَّة. ذلك اللا شيء من حكاية. لا شيء إطلاقًا. لا شيء على الإطلاق. كان الوضع يزداد سوءًا دائمًا. حسنًا. ذكَّرتني تلك اللحظة الصادمة المنقولة في التليفزيون بأن أتواصل مع جَدِّي وجَدَّتي على الأقل.

قال "يان" إنه كان أمرًا جيدًا بشكلٍ مُفاجئ أنه ما زال على قيد الحياة. وقال إنه قد حرص على التخلُّص من السيارة التي استأجرها. وحجز رحلة بالباص إلى مدينة "هيوستن". وفضَّل العودة بالطائرة إلى ألمانيا.

سألته:

– هل كُنتُ ستتواصل معي من جديد؟

نظر في شاشة جهازه، ورفع في النهاية كتفيه.

– لقد تواصلتِ أنتِ معي حقًّا.

اتَّجه نحوي ببطء وهو يخفض بصره.

– كانت هذه بالطبع مشكلتي تمامًا. ربما لم يكن يجوز لي أن أحكي لكِ شيئًا. أقصد، في ذلك الوقت. فربما ظللت عندئذٍ قادرًا على التَّصرُّف. ربما كُنتُ سأستطيع أن أَفِرَّ. أن أهرب سريعًا. أن أسلك طريقي بنفسي. منذ البداية، لكنني ما زلت لم أخرج من هذا الفيلم.

(أمسكتُ به – أقصد شبيهتي المُتخيَّلَة – بإحكامٍ شديد في هذا المشهد الذي سيصبح فيما بعد مُزعجًا للغاية، وازداد إزعاجًا بشكلٍ دائم).

– عندما نزل البطل صاحب المُسدَّس من سيارته، أي البطل غير المُسلَّح هذا، بدا لي أنه لا مفرَّ من أي شيء. لم أستطع أن أتوقَّف عن الحكي. على أملٍ يائس أن أخرج نفسي بالحكايات مما مررت به من أحداث. وكذلك أن أجعل الموقف الذي كُنتُ عالقًا فيه يصبح ماضيًا أكيدًا. تشبَّثتُ بعجلة القيادة، وبحثتُ عن عبارات من أجل هذا الموقف. لم أكن أعرف حتى أين كنت! ومع ذلك فقد كُنتُ مضطرًا لأن أحكي. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا آخر سوى أن أحكي لكِ، كيف كُنتُ سأجلس هناك في السيارة، وكيف كُنتُ سأظن أنني غير مُحِقٍّ في شعوري بالخوف؛ فربما أنه لم يعد لديَّ شيء لأخسره.

وأضاف أنه في تلك اللحظة بالضبط اتَّضح له أنه يجب على الإنسان دائمًا أن يفقد كل شيء.

وقال إن هذا قد ذهب مع الريح أيضًا. وعندما يحكي عن هذا الأمر، فإنه لا يجلب سوى لا شيء... (لكنه يجلب أشياءَ أكثر مما يجب).

10

"وأخذ

الوقت يمضي ويمضي... وكُنتُ أنا مُغفَّلًا! الوقت! بالضبط! كُنتُ أحتاج فقط إلى أن أُوقف الوقت!".
"فالتر مورز"
"قصة البحَّار الكابتن "بلاو بير"، قراصنة خليج أسماك القرش"

قال الطفل:

– وعاد الشتاء من جديد.

(كان الشتاء قد بدأ بالأمس فعلًا). ومن جديد وقع اعتداء إرهابي. هذه المرَّة في باريس. (حجبتُ الأخبار عنَّا وعنِّي أنا أيضًا؛ لأن الطفل كان يفطن بالفعل لكثير مما ينبعث من الراديو، ومما تشير إليه الوجوه المذهولة

الموجودة في التليفزيون والصور المنقولة على شاشة "اللاب توب" من مكان وقوع الاعتداء. وكان يفطن كذلك لما كانت تشير إليه تفسيراتي، التي تتحاشى الحديث عن الاعتداء. حاولتُ أن أُؤجِّل شعوري بالصدمة للمساء).

حلَّ الشتاء. لم يكن شتاءً باردًا. ومع ذلك لم يكن يجوز للطفل أن يخرج مُرتديًا الصندل، لكنه كان مُصمِّمًا على ارتداء الحذاء الخفيف الذي يُناسبه بصعوبة. وكان يشعر بأن كل شعاع شمس يتسلَّل عبر النافذة بمثابة تأييد لرغبته.

كنا نريد أن نخرج. أقصد أنا والطفل. لا، الآن لم يعد الطفل يريد ذلك. كُنتُ أريد وأتمنَّى أن يريد هو أيضًا الخروج. اضطررت منذ فترة طويلة بالفعل أن أنقل الملابس القديمة الخاصة بالطفل الرضيع إلى حاوية جمع الملابس القديمة، وأن أُحضر الكُتُب من المكتبة.

- يمكننا في الطريق أن نمُرَّ ونُلقي نظرة في المنتزه ونجمع أشجار الصنوبر الصغيرة والعِصيَّ ونأكل ثمار "الكستناء" أو "الوافل".

حاولتُ أن أقول له كل شيء.

لكن الطفل لم يكن لديه وقت.

- في وقتٍ لاحق!

صاح بها وأسرع راكضًا إلى حجرته. كان يودُّ أن ينتظر أباه. يريد أن يرسم لوحة ويُصبح من ثمَّ غير راضٍ عنها. وبالطبع، عندما كُنتُ أُحاول أن أصرف انتباهه عن شعوره بالانزعاج، وأن أُغريه بالخروج، كان يخطر بباله شيء جديد. ومن جديد لا يُصبح لديه وقت ويُصبح مُضطرًا لأن يفوته كثير جدًّا من الأمور؛ حيث يكون مُضطرًا لأن يبني جراجًا، وأن يهدم في مقابل ذلك البرج، الذي بناه بالأمس.

كما يكون مُضطرًا لأن يطهو الأكل المهروس ليُعطيه للدُّمية، وأن يبحث عن كتاب، وعن كتاب آخر، وأن يُسلِّي الدُّمية، وأن يخرج ربما بعد ذلك، لكن ليس قبلها. كُنتُ أسأل الدُّمية، هل تريد أن تذهب إلى المنتزه؟ لكن الدُّمية أيضًا لم يكن لديها وقت؛ فكل الدُّمى والحيوانات ستقوم معًا بنُزهة.

- لكن ليس بالخارج!

فقدتُ الأمل، وملأتُ الغسَّالة، وبحثتُ عن كلمة في قاموس المُترادفات... (وفي أثناء ذلك، ترجمت السيرة الذاتية لـ"كيرواك"، لكنني لم أُترجم الكلمة الختامية بعد. كان عليَّ أن أُراجع بعض التعليقات الهامشية، وأن أُحدِّث قائمة المراجع. كانت الكُتُب جاهزة من أجلي منذ أيام. وكُنتُ أُفضِّل أن تبقى في منزلي، حتى وإن كُنتُ أدرك بالفعل أنني سوف أُواصل العمل فيها بصعوبة في هذا المساء).

نظرتُ في رسائل الإيميل، ونسيتُ أن أُشغِّل الغسَّالة. نفضتُ التراب سريعًا عن أحد الأرفُف، بينما اكتشف الطفل وجود الأكياس التي تحتوي على ملابسه القديمة، التي فرزتها. فأخذ يقيس بجِدِّية وصبر بِدَل الأطفال الرُّضَّع، التي لم تعد تُناسبه أبدًا.

وفي النهاية، عاد "يان" من العمل إلى المنزل. ومن فوق رأس الطفل، أخذنا نُرسل لبعضنا بعضًا إشارات، تُعبِّر عن شعورنا بالفزع بسبب ما وقع من جرائم قتل... (ولفترة من الوقت سنقول نحن أيضًا "كلنا شارلي". سيسمع الطفل هذا الاسم في الحضانة أيضًا، وسيظن أنه اسم يخصُّ أفلام الكارتون).

تعلَّق الطفل برقبة "يان"، وأردتُ أن أذهب وأُحضر كُتُبي بسُرعة. لكن عندئذٍ أصبح الطفل مُستعدًّا لكل شيء. ولم يُرِد قط أن يجعلني أمضي وحدي.

قلت له على سبيل التحذير:

– لكن الآن وقت المكتبة فقط. سيكون الأمر مُمِلًّا.

وأضفتُ:

– ومُجهِدًا عصبيًّا. سيُغلقون المكتبة قريبًا. سوف أذهب بالسيارة إلى هناك وأُحضر ثلاثة كُتُب. ثم سأعود من جديد. لا شيء أكثر من ذلك.

– أُريد أن أذهب معكِ. لا بد أن أذهب!

قلت له:

– حسنًا. حسنًا، لكن عليك أن تُسرِع. أرجوك. تعالَ. تعالَ الآن. بسُرعة. سنتأخَّر أكثر من اللازم.

– أجل.

قالها الطفل، ومدَّ يده نحو حذائه الشِّتوي، وأخذ وقت العالم كله.

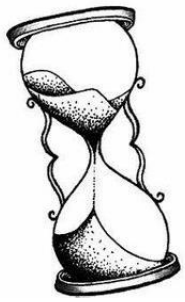

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
6.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
7.	علاقات دولية	إلبيت إليكا	ألبانيا
8.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
9.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
10.	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
11.	أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
12.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
13.	اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
14.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
15.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
16.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
17.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
18.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
19.	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
20.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
21.	امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
22.	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
23.	كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
24.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
25.	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
26.	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
27.	الأشياء الماضية	برونو فييرا	البرتغال
28.	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
29.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
30.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة

31. جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
32. أبسنت	أيفر تونش	تركيا
33. أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
34. ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
35. امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
36. توباز	هاكان جنيد	تركيا
37. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
38. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
39. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
40. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
41. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
42. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
43. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
44. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
45. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
46. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
47. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
48. المزيد	هاكان جنيد	تركيا
49. الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
50. المدينة ذات العباءة القرمزية	أصيلي إردوغان	تركيا
51. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
52. معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
53. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
54. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
55. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
56. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
57. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
58. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
59. احذري يا آنا	ماريك سيندیلكا	التشيك
60. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
61. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
62. بال خال	أولجا سلافينكوفا	روسيا
63. رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي

64. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
65. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
66. يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوراي فوينوفيتش	سلوفينيا
67. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
68. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
69. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
70. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
71. بنات الصين	يي مِاي	الصين
72. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
73. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
74. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
75. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
76. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
77. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
78. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
79. جريمة في باريس	صوفي إيناف	فرنسا
80. الأخ الأكبر	ماهير جوفين	فرنسا
81. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
82. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
83. اعترافات مؤجلة	ميجيلا بودوين	فنزويلا
84. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
85. أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
86. حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	كندا
87. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
88. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
89. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
90. القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
91. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
92. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
93. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
94. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
95. حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
96. ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا

97. دگّان الساري	روبا باجوا	الهند
98. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
99. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
100. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
101. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
102. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
103. أفكار سيئة	لويد ميركام	ويلز
104. أيتام ذهبيون	جاري ريموند	ويلز

صدر من كتب عامَّة:

105. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
106. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
107. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
108. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
109. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
110. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
111. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
112. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
113. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
114. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
115. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
116. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
117. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
118. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
119. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
120. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
121. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
122. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
123. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
124. الجري	ثور جوتاس	النرويج
125. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
126. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

127. بيلبورت: قصة مدينة	جيفري لويس	أمريكا
128. سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
129. لا صديق سوى الجبال	بهروز بوجاني	إيران
130. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
131. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
132. طلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
133. جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
134. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
135. يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
136. روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
137. أختي فاتلة متسلسلة	أوينكان برايزوايت	نيجيريا
138. لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا